

جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب
عرض اقتصادي تاريخي
الجزء الثاني
المكتبة التقدمية
تشكيلات ماقبل الرأسمالية والمجتمع الرأسمالي
الفارابي

٤ـ المجتمع الرأسمالي

الفصل الاول

السمات الاساسية لاسلوب الانتاج الرأسمالى

١ ـ علاقات الانتاج فى المجتمع الراسمالى

الرأسمالية هى نظام اجتماعى تخص فيه ادوات ووسائل الانتاج عددا غير كبير من الراسماليين ومن مالكي الارض ، بينا سواد الشعب لا يملك او يكاد لا يملك اى شىء ، ويتعين عليه بالتالى ان يؤجر نفسه للعمل .

الانتاج البضاعى البسيط والراسمالى

ان الانتاج الرأسمالى قد نما من الانتاج البضاعى البسيط . ولكن هذا لم يحدث دفعة واحدة ، بل فى سياق مرحلة طويلة من تطور المجتمع البشرى . ولم يكن من الممكن ان ينبثق الانتاج الرأسمالى من الانتاج البضاعى البسيط لا فى ظل مجتمع الرق (مجتمع العبودية) ولا فى ظل المجتمع الاقطاعى ، لان الاقتصاد البضاعى نفسه كان يشغل آنذاك مكانا صغيرا جدا فى اقتصاد المجتمع ، وذلك بسبب من انخفاض مستوى تطور القوى المنتجة . اما فى ظل الرأسمالية ، فان انتاج البضائع اى المنتوجات المعدة لا للاستهلاك الشخصى ، بل للبيع فى السوق ، يشمل جميع المؤسسات الرأسمالية . وبقدر ما تتطور الرأسمالية ، يبيع المنتجون الصغار ايضا ، اى الفلاحون ، قسما متزايدا ابدا

مما ينتجونه ، فى السوق . وفى ظل الرأسمالية ، تخضع وسائل الانتاج وسلع الاستهلاك جميعها تقريبا للبيع والشراء .

هناك سمتان اساسيتان يشترك بهما الانتاج البضاعى البسيط والانتاج البضاعى الرأسمالى : اولا ، الملكية الخاصة لوسائل الانتاج . وثانيا ، التقسيم الاجتماعى للعمل . وبقدر ما تطور التقسيم الاجتماعى للعمل وازداد سعة وعمقا ، تطور الاقتصاد البضاعى ايضا .

ان ارتكاز الانتاج البضاعى البسيط والرأسمالية على اساس واحد مشترك هو الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، يشكل تلك التربة التى انبثقت وتنبثق عليها الرأسمالية . ان الانتاج البضاعى البسيط قد افضى تاريخيا الى نشوء الانتاج الرأسمالى ، وليس هذا وحسب ، بل ان بمستطاعه ، فى احوال اجتماعية معينة ، ان يفضى وهو يفضى فعلا الى نشوء الرأسمالية ، فيغنى اقلية المنتجين ويلحق الخراب باكثريتهم .

ولكنه يوجد فرق جوهرى بين الانتاج البضاعى والانتاج الرأسمالى . ففى ظل الانتاج البضاعى البسيط ، ينتج الفلاح او الحرفى البضاعة بعمله الشخصى ، اى ان اساس الانتاج البضاعى هو العمل الشخصى الذى يبذله المنتج وان البضاعة تخص منتجها بالذات . اما فى ظل الرأسمالية ، فان الانسان الذى ينتج البضاعة والانسان الذى يملك البضاعة ليسا الشخص نفسه . ان الانتاج الرأسمالى يرتكز على استثمار العمل الماجور .

علاقات الانتاج فى ظل الرأسمالية

قبل الرأسمالية ، كانت توجد ايضا استثمارات كبيرة يشتغل فيها عدد كبير من الافراد وينتجون فيها المنتوجات ، لا لأجل استهلاك المالك الشخصى وحسب ، بل ايضا لأجل البيع فى السوق

(حسبنا ان نذكر على سبيل المثال اللاتيفونديات* الرومانية) . ولكنه لا يجوز مع ذلك تسمية هذه الاستثمارات بالاستثمارات الرأسمالية لأن من كانوا يشتغلون فيها لم يكونوا عمالا ماجورين ، بل العبيد الارقاء (فى اللاتيفونديات) او الفلاحين الاقنان .

ان وضع العامل الماجور يختلف عن وضع الرقيق او القن ، رغم ان كلا منهم هو ممثل طبقة مستثمَرة . فان العامل ، خلافا للرقيق او للقن ، حر شخصيا ، وليس ملزما قانونا بالعمل لأجل الرأسمالى . ولكن العامل لا يملك ، عادة ، اقتصادا له يكون مورد رزق له وعيش . فلكى يؤمن عيشه نفسه وعيش اسرته ، لا بدّ له ان يعمل بالاجرة عند الرأسمالى . وعندما يعقد العامل عقدا مع الرأسمالى للعمل بالاجرة ، فهو يفعل ذلك بملء اختياره بمعنى ان ليس الرأسمالى وليس اى احد آخر يستعمل القوة لكى يجبر العامل على العمل .

ان العمل المأجور قد شغل فى ظل الرأسمالية مركزا مهيمنا. وقد نجم ذلك عن خصائص اسلوب الانتاج الرأسمالى الذى تخص فى ظله شروط الانتاج المادية — اى الارض وادوات ووسائل الانتاج — حفنة صغيرة نسبيا من الرأسماليين ، بينما السواد الاعظم من الشعب لا يملك شيئا ، عدا القدرة على العمل . وفى وسع مالكى ادوات ووسائل الانتاج الاّ يشتغلوا لأنه تتوافر لهم امكانية التمتع بنتائج عمل الآخرين المضطرين الى العمل لكى يعيشوا . وفى استثمار العمال من قبل الرأسماليين يكمن جوهر علاقات الانتاج فى ظل الرأسمالية .

ان علاقات الانتاج تشمل اشكال ملكية وسائل الانتاج ، ومكان الطبقات والفئات الاجتماعية فى الانتاج والعلاقات فيما بينها ، وكذلك اشكال توزيع المنتوجات .

---

* اللاتيفونديا — الملكيات الكبيرة ، الشاسعة من الاراضى. **المعرب** .

ان الملكية الخاصة الرأسمالية لوسائل الانتاج هى اساس علاقات الانتاج الرأسمالية . وهى تختلف عن سائر اشكال الملكية الخاصة ، وفى المقام الاول عن الملكية الخاصة الصغيرة . فان ملكية المنتجين الصغار الخاصة ترتكز على عملهم الشخصى . اما الملكية الخاصة الرأسمالية فهى ترتكز على استثمار العمال الاجراء . ان ملكية الرأسمالى الخاصة ليست من صنعه نفسه ، بل يخلقها عمل عمال المؤسسات الرأسمالية .

ان شكل الملكية يحدد مكان الطبقات فى عملية الانتاج . فان العامل فى ظل الرأسمالية يعمل تحت رقابة الرأسمالى الذى يملك عمل العامل ومنتوج عمله . وتوزيع المنتوجات بين الرأسماليين والعمال يختلف سواء أمن حيث اسلوب الحصول على المنتوجات ، ام من حيث مقدار الحصة التى ينالونها من المنتوجات . فان الرأسمالى يحصل على ربح لا يكفى لاستهلاكه الشخصى وحسب ، بل يكفى كذلك لأجل توسيع الانتاج . اما العامل فيحصل على اجرة تكفى فى افضل الاحوال لتأمين معيشة اسرته معيشة عادية .

ان علاقات الانتاج فى ظل الرأسمالية ، كما فى ظل العبودية والاقطاعية ، ترتكز على استثمار الانسان للانسان . ولكن اشكال الاستثمار تتغير . فقبل الرأسمالية ، كان ثمة اغنياء وفقراء ، وقبل الرأسمالية ، كان الفقراء فى تبعية الاغنياء . ولكن ، قبل الرأسمالية ، لم يكن ثمة رأسماليون . فان المرء يسمى رأسماليا ، لا لأنه يملك ثروة وحسب . فان مالك الثروة لا يصبح رأسماليا الا متى توافرت له ، بفضل علاقات اجتماعية معينة ، امكانية استعمال ثروته لأجل استثمار افراد احرار آخرين ولأجل العيش من ثمار عملهم .

ان العامل مضطـــر الى العمل اجيرا عند الرأسمالى ، لأنه لا يملك شيئـــا يعيش منه ؛ ولكن الرأسمالى ايضـــا لا يستطيع ان يبدأ بالانتـــاج دون العامل ، رغم انه يملك جميع وسائل الانتـــاج . ان العامل ، ككل انســـان ، يملك قوة عمل ، اى القدرة على العمل . ان قوة العمل هى عنصر هام من عناصر الانتاج مهما كان شكل المجتمع . ولكن دور قوة العمل يتغير فى ظل الرأسمالية : فهى ايضا تصبح بضاعة . ومع تحول قوة العمل الى بضاعة ، يكتسب الانتاج البضاعى طابعا عاما ، صفة شاملة ، ولذا يمكن القول ان الرأسمالية هى الانتاج البضاعى فى اعلى درجات تطوره .

ولكى تتحول قوة العمل الى بضاعة ، لا بد من شرطين . اولا ، ينبغى ان يكون العامل حرا شخصيا لكى يتصرف حسب ارادته بقدرته على العمل . فلا العبد ولا القن كان فى وسعهما ان يبيعا قوة عملهما لأنهما لم يكونا حرّين . ثانيا ، ينبغى ان يكون العامل محروما من وسائل الانتاج ووسائل المعيشة لكى لا يكون له مخرج غير توسل العمل من الرأسمالى . اما الفلاح القن ، فقد كان وضعه يختلف تماما لأنه كان يملك اقتصادا خاصا به وكان فى وسعه ان يؤمن عيشه وعيش عائلته .

ولذا كان لا بدّ ، لأجل نشوء الرأسمالية ، من ظهور جمهور من انـــاس يتمتعون بالحرية الشخصية ، ولكنهم لا يملكون لا وسائل الانتاج ولا وسائل العيش ومضطرين بالتالى الى بيع قوة عملهم . وفضلا عن ذلك كان لا بدّ من تمركز مبالغ كبيرة من المال ووسائل انتاج فى ايدى بعض الافراد . وهذان الشرطان تكوّنا فى قلب النظام الاقطاعى فى مرحلة ما يسمى بالتراكم البدائى للرأسمال .

ان قوة العمل فى ظل الرأسمالية هىْ بضاعة ، ولذا يجب ان تكون لها قيمةٌ . وللبضاعة جانبان . فهى ، اولا ، شيء يلبى حاجة ما من حاجات الانسان . وهى ، ثانيا ، شيء منتوج لا للاستهلاك الشخصي بل للبيع ، للمبادلة .

وللبضاعة خاصتان هما القيمة الاستعمالية والقيمة . ان خاصة البضاعة فى ان تلبى هذه الحاجة البشرية او تلك تسمى القيمة الاستعمالية (قيمة الاستعمال) . وقيمة البضاعة (القيمة) هى عمل المنتجين الاجتماعى المجسد فى البضاعة . ان قيمة البضاعة تتجلى بشكل نسبة كمية ، تبادلُ بموجبها بضاعةِ باخرى . وهذه النسبة الكمية تسمى القيمة التبادلية (قيمة التبادل) . ان قيمة البضاعة تقاس بكمية العمل المضمّنة فيها ، لأن العمل وحده هو الذى يخلق البضاعة . وكمية العمل تقاس بكمية وقت العمل . وهذا يعنى ان قيمة قوة العمل تقاس كذلك بكمية وقت العمل الضرورى لانتاجها . فكيف يقاس هذا الوقت ؟ لكى يستطيع العامل ان يعمل ، ينبغى ان يملك حدا ادنى من وسائل العيش : الغذاء ، واللباس ، والاحذية ، والمسكن ، الخ .. ولتامين استمرار قوة العمل ، ينبغى ان يكون فى امكان العامل لا أن يؤمن العيش لنفسه وحسب ، بل ايضا لعائلته . واخيرا ، ينبغى للعامل درجة معينة من الكفاءة لكى يشرف على الآلات المعقدة ، الامر الذى يتطلب نفقات لتعليمه .

وعليه ، فان قيمة قوة العمل تحددها قيمة وسائل العيش اللازمة لحياة العامل وعائلته . ان قيمة قوة العمل ، معبرا عنها بالنقد ، هى سعر (ثمن) قوة العمل . ان سعر قوة العمل فى ظل الرأسمالية يظهر بمظهر الاجرة .

ان قيمة قوة العمل ليست قدرا جامدا ثابتا ، بل تتغير

فى سيــاق التطور التاريخى . ان تغير قيمـة العمل يسير فى اتجاهين . فمن جهة ، تقل قيمة بضائع الاستهلاك نتيجة لزيادة انتاجية العمل فى الفروع التى تنتج هذه البضائع . ولكن قيمة بضائع الاستهلاك ، وخاصة بضائع الضرورة الاولى ، تدخل فى قيمة قوة العمل ، ولذا يؤدى انخفاض قيمة بضائع الاستهلاك الى انخفاض قيمة قوة العمل . ومن جهة اخرى ، لا تشمل قيمة قوة العمل قيمة سلع الاستهلاك الضرورية لأجل تجديد قوى الانسان الجسدية وحسب ، بل تشمل كذلك تلبية حاجات ثقافية معينة للعامل وعائلته . ومع تطور المجتمع ، يتغير مستوى حاجات العمال العادية . ان اتساع حاجات العمال ، وظهور بضائع جديدة يزيدان قيمة قوة العمل . ولكن أهم عنصر يغير قيمة قوة العمل انما هو نمو شدة العمل . فان تقوية عصر طاقة العمال ، لا الجسدية وحسب ، بل العصبية ايضا ، تزيد حتما كمية المنتوجات الضرورية لأجل تجديد القدرة على العمل ، اى انها تزيد قيمة قوة العمل .

ان الرأسماليين يحاولون دائما ان يخفضوا شروط حياة الطبقة العاملة الى الحد الادنى ، اى الى حد يكون كافيا فقط لابقاء العامل قيد الحياة . وبهذه المحاولات ، يعيق الرأسماليون نضال الطبقة العاملة من اجل رفع مستوى حياتها .

٢ ـ كنه الاستثمار الرأسمالى

دور قوة العمل فى عملية الانتاج

ان مفهوم «قيمـــة قوة العمل» لا يتسم باهميـــة نظرية وحسب . فان الاقتصاد السياسى البرجوازى يؤكد منذ زمن آدم سميث ودافيد ريكاردو ان العامل يبيع للرأسمـــالى عمله

لا قوة عمله . فاذا وافقنا على وجهة النظر هذه ، خلصنا حتما الى الاستنتاج التالى وهو ان العامل ينال مكافاة عن عمله بشكل الاجرة ، بينا ينال الرأسمالى مكافاة عن رأسماله بشكل الربح . وبموجب هذا التفسير ، يكون العامل والرأسمالى متساويين ، وليس ثمة استثمار للانسان من قبل الانسان . اما فى الواقع ، فان العامل ، اذ يؤجر نفسه للرأسمالى ، لا يبيع عملا (فهو لم يعمل بعد) ، بل يبيع فقط قدرته على العمل ، اى قوة العمل . اما كيف ستستخدم قوة العمل ، فان هذه المسألة يحلها الرأسمالى ويحلها بالطبع فى مصلحته . ان الرأسمالى يستعمل قوة العمل بحيث يعطيه عمل العامل اكثر مما يدفعه للعامل .

اى دور تلعبه قوة العمل فى عملية الانتاج ؟ ان العامل يستعمل قوة عمله فيخلق بواسطة الآلات منتوجا من الخامات . وبما ان هذا المنتوج هو بضاعة ، فهو يملك بالتالى قيمة . وفى قيمة البضاعة ، تدخل كليا قيمة الخامات والوقود ، وكذلك قسم من قيمة البناية والآلات والادوات طالما انها استعملت لأجل صنع البضاعة . وفضلا عن ذلك ، تدخل فى قيمة البضاعة قيمة جديدة خلقها عمل العمال اثناء انتاج البضاعة . وهذه القيمة الجديدة هى اكبر من قيمة قوة العمل الذى دفع الرأسمالى عنها . لنر هذا من المثال الملموس التالى .

القيمة الزائدة

لنفترض ان رأسماليا يملك مؤسسة لانتاج آلات الخياطة . لأجل انتاج آلات الخياطة ، يشترى الرأسمالى المعدن . لنفترض ان الرأسمالى يشترى لانتاج ٢٠٠ آلة للخياطة ١٠٠٠٠ كيلوغرام

من المعدن بسعر ٢٠ سنتا للكيلوغرام الواحد ، اى انه يدفع بالاجمال مبلغ ٢٠٠٠ دولار . واثناء انتاج الـ٢٠٠ آلة ، لا بدّ من تلف فى التجهيزات ومن نفقات للانارة والتدفئة ، الخ . ، بمبلغ ٢٥٠ دولارا . كذلك تبلغ النفقات على استئجار قوة العمل ٢٥٠ دولارا (٥٠ عاملا بـ ٥ دولارات للعامل الواحد) . وهكذا تبلغ نفقات الرأسمالى العامة:

قيمة المعدن	٢٠٠٠ دولار
قيمة تلف التجهيزات	٢٥٠ دولارا
قيمة قوة العمل	٢٥٠ دولارا
الحاصل	٢٥٠٠ دولار

وبهذه النفقات ، انتجت المؤسسة ٢٠٠ آلة للخياطة . وبلغت نفقات الرأسمالى لانتاج كل آلة للخياطة ١٢,٥ دولارا (٢٥٠٠ : ٢٠٠) .

لنفترض ان آلات مماثلة للخياطة تباع كذلك فى السوق بـ ١٢,٥ دولارا الواحدة منها . فاذا باع الرأسمالى آلات الخياطة بقيمتها ، حصل على نفس المبلغ الذى انفقه فى بداية عملية الانتاج ، اى انه لا يحصل على اى ربح .

اما فى الواقع فان الحال آخر . فان مستوى انتاجية العمل فى ظل الرأسمالية عال نسبيا . وفى هذا المستوى ، ينتج العامل بعمله اليومى من المنتوجات اكثر مما هو ضرورى لعيشه . وبقدر ما يرتفع مستوى التكنيك ، يقل الوقت اللازم لأجل انتاج الوسائل الضرورية لعيش العامل . ولكن الرأسمالى ، بدفعه القيمة النقدية لقوة العمل ، يجبر العامل على العمل طيلة يوم العمل . وبالنتيجة يخلق العامل قيمة اكبر من قيمة قوة عمله .

لنفترض فى مثالنا ان العامل خلق ، فى ٤ ساعات ، قيمة تساوى قيمة قوة عمله . ولكنه ملزم ، بموجب العقد مع الرأسمالى ، ان يعمل ٨ ساعات . فى ٨ ساعات عمل ، يعالج العمال ال ٥٠ انفسهم من وسائل الانتاج ما يزيد ١٠٠ بالمئة وينتجون من المنتوجات ما يزيد ١٠٠ بالمئة ، اى انهم ينتجون ٤٠٠ آلة للخياطة . فى هذه الحال ، تتغير نفقات الرأسمالى :

قيمة المعدن	٤٠٠٠ دولار
قيمة تلف التجهيزات	٥٠٠ دولار
قيمة قوة العمل	٢٥٠ دولارا
الحاصل	٤٧٥٠ دولارا

وعندما يبيع الرأسمالى فى السوق آلات الخياطة ال ٤٠٠ بالسعر السابق (١٢,٥ دولارا) ، يحصل على ٥٠٠٠ دولار . ان القيمة الحاصلة نتيجة لعملية الانتاج تزيد مقدار ٢٥٠ دولارا على نفقات الرأسمالى فى بداية الانتاج . وهذه الزيادة فى القيمة تسمى القيمة الزائدة .

ان القيمة الزائدة التى يخلقها عمل العمال فى سياق عملية الانتاج هى ، فى المجتمع الرأسمالى ، مصدر جميع المداخيل (الايرادات) غير الناجمة عن العمل ، اى ارباح الصناعيين والتجار ، وقسائم المساهمين ، والفوائد المئوية التى يتقاضاها المرابون واصحاب المصارف ، والريع العقارى الذى يتقاضاه ملاكو الاراضى ، الخ ..

لقد استطاع الرأسمالى ان يحصل على القيمة الزائدة لأن العامل عمل زمنا اطول مما ينبغى لأجل خلق قيمة تساوى قيمة قوة عمله . والقيمة الزائدة يستأثر بها الرأسمالى مجانا ،

بلا مقابل ، بينما لا يحصل العامل على اى اجر لقاء خلقها .
وعليه يتلخص كنه الاستثمار الرأسمالى فى استئثار الرأسماليين بالقيمة الزائدة التى يخلقها عمل العمال الأجراء .

ان الاستثمار الرأسمالى يختلف عن الاستثمار العبودى والاقطاعى بكونه يتخذ شكلا مقنعا . فان عمل العبيد والفلاحين الاقنان كان الزاميا ، قسريا . والعمل فى ظل الرأسمالية ايضا يتسم بطابع الزامى ، قسرى لأن العامل نفسه لا يملك وسائل العيش . ولكن هذا الطابع الالزامى ، القسرى للعمل مقنع بقناع حرية العامل الشخصية حيال الرأسمالى .

العمل الضرورى والعمل الزائد

فى ظل الرأسمالية ، يعمل العامل قسما من الوقت من اجل نفسه ، والقسم الآخر من اجل الرأسمالى . ان وقت العمل الضرورى للعامل لكى يخلق قيمة وسائل العيش اللازمة له ، يسمى وقت العمل الضرورى ، والعمل فى هذا الوقت يسمى العمل الضرورى . ان وقت العمل الضرورى يسدده الرأسمالى بالاجرة .

اما وقت العمل المبذول لانتاج المنتوج الزائد فيسمى وقت العمل الزائد ، والعمل فى هذا الوقت يسمى العمل الزائد . ان نسبة العمل الزائد الى العمل الضرورى ، او نسبة وقت العمل الزائد الى وقت العمل الضرورى تبين درجة استثمار العامل .

ان العمل الزائد الذى يخلق المنتوج الزائد قد وجد ايضا قبل الرأسمالية . فان الطبقات المستثمرة المستغلة سواء أفى مجتمع الرق ام فى المجتمع الاقطاعى كانت تعيش ، على وجه الدقة ، على حساب العمل الزائد الاضافى الذى كانت تقوم

به الطبقات المستثمرة ، المستغلة . ولكن المنتوج الزائد يتحول فى ظل الرأسمالية الى قيمة زائدة ، لأن قوة العمل تصبح بضاعة ؛ والقيمة الزائدة نفسها لا تستخدم لتامين استهلاك الرأسماليين وحسب ، بل تستخدم كذلك لاستثمار عمال جدد ، فتتحول بالتالى الى رأسمال .

هدف الانتاج الراسمالى

ان تحول القيمة الزائدة الى رأسمال واستعمالهـا لأجل الحصول على قيمة زائدة جديدة هما هدف الانتاج الرأسمالى . فان الرأسماليين يسعون على الدوام الى الحصول ، مع الحد الادنى من النفقات ، على اكبر قدر ممكن من القيمة الزائدة . ولبلوغ هذا الهدف يلجؤون الى شتى الوسائل . ان الرأسمال يكشف عن نهم للعمل الزائد كنهم الذئاب . ان الرأسمال ، كما كتب احد القادة النقابيين الانجليز ، يخاف من انعدام الربح او الربح التافه ، كما تخاف الطبيعة من الفراغ . فاذا تأمن ربح كاف ، كما قال هذا القائد النقابى ، يصبح الرأسمال جريئا : فاذا تأمن له ربح قدره ١٠ بالمئة ، فانه يشتغل فى اى مجال كان ؛ ٢٠ بالمئة ، ينشط ؛ ٥٠ بالمئة ، تتملكه جرأة مجنونة ؛ ١٠٠ بالمئة ، يدوس بالاقدام جميع القوانين البشرية ؛ ٣٠٠ بالمئة ، ليس ثمة جريمة لا يتجاسر على ارتكابها حتى ولو قادته الى حبل المشنقة .

ان الركض وراء القيمة الزائدة قد كان قوة جبارة لتطوير الانتاج لم يعرفها لا مجتمع الرق ولا المجتمع الاقطاعى . وهذه القوة خلقت صناعة ضخمة فى اوروبا وفى اميركا الشمالية اولا ، ثم فى مختلف انحاء الكرة الارضية . وفى الوقت نفسه ، يفضى

الركض وراء القيمة الزائدة الى نشوء تناقضات بين الرأسماليين والعمال ، ويضفى على تطور الانتاج الرأسمالى طابعا تناحريا (مستعصيا لا حل له) . ان العمل الذى يعود بالقيمة الزائدة هو وحده العمل المنتج بنظر الرأسمالى . ورغبة فى زيادة القيمة الزائدة ، يسعى كل رأسمالى الى اعتصار اكثر ما يمكن من العمل الزائد من العامل . وهناك وسيلتان لزيادة القيمة الزائدة . لندرسهما بمثال ملموس . لنفترض ان يوم العمل يدوم ١٠ ساعات ، منها ٥ ساعات تشكل وقت العمل الضرورى و ٥ ساعات وقت العمل الزائد .

٥ ساعات	٥ ساعات
العمل الضرورى	العمل الزائد

فى هذه الحال ، تبلغ درجة الاستثمار (الاستغلال) او معدل القيمة الزائدة :

$$\frac{\text{٥ ساعات الوقت الزائد}}{\text{٥ ساعات الوقت الضرورى}} \times ١٠٠ \% = ١٠٠ \% .$$

القيمة الزائدة المطلقة

ان الاسلوب الاول لزيادة معدل القيمة الزائدة يقوم فى تطويل يوم العمل . لنفترض ان يوم العمل يزداد من ١٠ ساعات الى ١٢ ساعة . ان وقت العمل الضرورى لم يتغير لأن قيمة قوة العمل لم تتغير . ولكن وقت العمل الزائد ازداد .

٥ ساعات	٧ ساعات
العمل الضرورى	العمل الزائد

ولذا يبلغ معدل القيمة الزائدة :

$$\frac{\text{٧ ساعات}}{\text{٥ ساعات}} \times ١٠٠ ٪ = ١٤٠ ٪ .$$

ان القيمة الزائدة ، الحاصلة عن طريق تطويل يوم العمل تسمى القيمة الزائدة المطلقة ، لأن يوم العمل بمجمله اصبح اطول بصورة مطلقة . ان القيمة الزائدة المطلقة ، اى تطويل يوم العمل ، قد كانت سمة مميزة للمرحلة الاولى من تطور الرأسمالية ، عندما كان التكنيك لا يزال فى مستوى منخفض ، وعندما كان لا يزال عدد كبير من الفلاحين والحرفيين الذين يملكون استثمارات خاصة وعندما كان عدد العمال لا يزال غير كاف . وآنذاك اصدرت الدولة البرجوازية قوانين خاصة لكى تجبر العمال على العمل من اجل الرأسمالى اطول وقت ممكن . ومن جرّاء ذلك ، انخفض متوسط عمر العمال ، وارتفعت نسبة الوفيات بين السكان العمال .

ومع نمو الطبقة العاملة وتوطد قواها ، اشتد نضال العمال من اجل تقصير يوم العمل . وقد كان مطلب تقصير يوم العمل من اوائل مطالب الحركة العمالية . بدأ هذا النضال اولا فى بريطانيا . ففى اواسط القرن التاسع عشر ، حدّد يوم العمل فى بريطانيا بـ١٢ ساعة ، وفى عام ١٩٠١ بـ١٠ ساعات . كذلك نشب النضال فى بلدان اخرى من اجل تقصير يوم العمل . ففى روسيا ، مثلا ، صدر فى عام ١٨٩٧ ، بعد اضرابات كبيرة ، قانون بتحديد يوم العمل بـ١١,٥ ساعة .

وفيما بعد ، تقدمت الحركة العمالية بمطلب يوم العمل من ٨ ساعات . ان النضال من اجل يوم العمل من ٨ ساعات قد اشتد على الاخص بعد ان حققت الثورة الاشتراكية الظافرة فى روسيا عام ١٩١٧ مطلب البروليتاريا هذا . وتحت ضغط

الطبقة العاملة ، طبّق يوم العمل من ٨ ساعات فى كثرة من البلدان الرأسمالية . الا ان الرأسماليين عوضوا عن تقصير يوم العمل بتعزيز شدة العمل الى حد كبير جدا .

القيمة الزائدة النسبية

ان زيادة القيمة الزائدة عن طريق تطويل يوم العمل قد استثارت مقاومة العمال . وهذا ما اجبر الرأسماليين على اللجوء الى اسلوب آخر لزيادة الاستثمار . فى ظل هذا الاسلوب ، لا تزداد مدة يوم العمل ، بل يقل وقت العمل الضرورى ، وهذا ما يفضى فى الوقت نفسه الى ازدياد وقت العمل الزائد، وبالتالى الى ازدياد القيمة الزائدة . ان تقليل وقت العمل الضرورى يصبح ممكنا نتيجة لانماء انتاجية العمل فى الفروع التى تنتج سلع الاستهلاك للعمال . ان انماء انتاجية العمل يخفض قيمة وسائل عيش العمال ويخفض بالتالى قيمة قوة العمل . من قبل ، كان ينبغى انفاق ٥ ساعات لأجل انتاج وسائل العيش للعامل ؛ وبعد ذاك ، ينبغى ، مثلا ، ٣ ساعات فقط . وفى هذه الحال ، يبدو يوم العمل على النحو التالى :

٣ ساعات	٧ ساعات
الوقت الضرورى	الوقت الزائد

ان درجة الاستثمار قد ارتفعت كذلك مع ان مدة يوم العمل لم تتغير .

ان القيمة الزائدة التى تظهر من جرّاء تقليل وقت العمل الضرورى ، ومن جرّاء ما يناسبه من تطويل وقت العمل الزائد اثر زيادة انتاجية العمل ، تسمى القيمة الزائدة النسبية .

وهكذا يستغل الرأسماليون جميع الوسائل ، اى توسيع الانتاج وتطوير التكنيك وتشديد استثمار العمال ، – من اجل الحصول على اكبر قدر ممكن من القيمة الزائدة . ان انتاج القيمة الزائدة هو قانون اقتصادى اساسى من قوانين المجتمع الرأسمالى .

الرأسمال

عند دراسة المجتمع الرأسمالى ، نواجه بادئ الامر مفهوم الرأسمال . ما هو الرأسمال ؟ ماذا نفهم بهذا التعبير ؟

ان ظاهرات الرأسمال الملموسة كثيرة جدا . ففى كل بلد برجوازى ، يمكن ان يكون النقد رأسمالا ، ويمكن ان تكونه الآلات والمبانى والبضائع الجاهزة ، الخ .. ولذا يمكن استخلاص الاستنتاج الاول ومفاده ان الرأسمال هو قيمة . ولكن ليست كل قيمة رأسمالا . فان العامل يحصل على اجرته نقدا ، ولكن هذا لا يعنى انه يملك رأسمالا . والفلاح يملك بيتا وادوات زراعية ، ولكن ملكيته هذه ليست رأسمالا . والنقد ، شانه شأن اى قيمة اخرى ، لا يصبح رأسمالا الا متى زاد قيمته ، اى متى عاد بقيمة زائدة . ولهذا يمكن توسيع الاستنتاج الاول وتعريف الرأسمال بانه قيمة تجلب قيمة زائدة .

ان العلم البرجوازى يزعم ان الربح هو خاصة ملازمة ، داخلية ، للرأسمال . ولكن الرأسمال لا يستطيع بحد نفسه ان يجلب قيمة زائدة . ان الرأسمال لا يزيد قيمته الا متى اتحد مع العمل ، اى فى عملية الانتاج . ان الرأسمال يستثمر العامل الذى يخلق بعمله القيمة الزائدة التى تزيد بدورها الرأسمال . ولذا كان الرأسمال قيمة تجلب قيمة زائدة عن طريق استثمار العمال الاجراء .

ان الرأسمال ، ايا كان الشكل الملموس الذى يرتديه ، ليس

شيئا وحسب . فالرأسمال يتضمن علاقة انتاج معينة بين طبقة الرأسماليين وطبقة العمال ، تتجلى فى استثمار الانسان للانسان .
ان الاقتصاديين البرجوازيين ، اذ يعرفون الرأسمال ، يقصدون به ، على العموم ، وسائل الانتاج . وهذا الموقف وقفه ممثلا الاقتصاد السياسى البرجوازى الكلاسيكى البريطانى آدم سميث ودافيد ريكاردو . فان ريكاردو ، مثلا ، قد رأى فى الادوات البدائية التى استخدمها الانسان البدائى ، كالحجر والعصا ، راسمالا . والعلم البرجوازى لا يزال الآن ايضا يعتبر الرأسمال ووسائل الانتاج شيئا واحدا . وهو يحاول تصوير الرأسمال بصورة شرط ابدى وطبيعى لكل انتاج . والى هذا الهدف بالذات يرمى «ايجاد» الرأسمال فى المجتمع البدائى . ان «نظرية سرمدية» الرأسمال تبتغى تأكيد «نظرية سرمدية» الراسمالية .
كذلك يشوه الاقتصاديون البرجوازيون تاريخ نشوء الرأسمالية وتشكل طبقات المجتمع الرأسمالى . فهم يرون ان الناس المقتصدين والمحبين للعمل اصبحوا رأسماليين بينما الكسالى الذين بددوا كل ما يملكونه اصبحوا عمالا . ان هذا التشويه لا يجمعه جامع بالحقيقة التاريخية . فان التراكم البدائى للرأسمال لم يكن نتيجة توفير واقتصاد ، بل نتيجة نهب حقيقى للمستعمرات ، نتيجة انتزاع اراضى الفلاحين بالعنف ، نتيجة قوانين صارمة ضد غير المالكين بغية خلق طاعة (انضباط) العمل الرأسمالية .

٣ ـ التركيب الطبقى للمجتمع الراسمالى

البرجوازية والبروليتاريا

فى كل مجتمع طبقى ، توجد طبقات وفئات مختلفة ، ولكنه تبرز دائما بينها طبقتان اساسيتان تفصح العلاقات بينهما عن التناقض الرئيسى فى المجتمع . هاتان الطبقتان كانتا فى نظام الرق

طبقة مالكى الارقاء وطبقة الارقاء ، وفى المجتمع الاقطاعى ، طبقة الاقطاعيين وطبقة الفلاحين الاقنان ؛ اما فى المجتمع الرأسمالى فان البرجوازية والبروليتاريا هما الطبقتان الاساسيتان .

ان البرجوازية هى الطبقة التى تملك وسائل الانتاج وتستعملها لأجل استثمار العمال الاجراء . ولكن البرجوازية نفسها ليست متجانسة . فان البرجوازية الاحتكارية التى تشغل الوضع السائد فى اقتصاد العالم الرأسمالى وسياسته هى الفئة العليا من طبقة الرأسماليين . فان ٢٠٠ احتكار ، مثلا ، تراقب ثلث انتاج البلدان الرأسمالية كافة . والبرجوازية الصغيرة تشغل مركزا وسطيا بين طبقة الرأسماليين وطبقة العمال . وقسم ملحوظ من صغار اصحاب العمل يجد نفسه فى تبعية الشركات الكبرى .

فيما مضى ، كان مستوى حياة البرجوازية الصغيرة فى المدن عاليا بالقياس الى مستوى حياة الطبقة العاملة . اما فى الوقت الحاضر ، فان ايرادات الاغلبية الساحقة من البرجوازيين الصغار ليست اعلى ، بل احيانا ادنى من اجور العمال فى المؤسسات الكبيرة . وشروط عمل ارباب العمل الصغار اسوأ من شروط عمل العمال : فان يوم عملهم اطول ، ولا يتمتعون بالاعانات والتعويضات الاجتماعية التى ظفر بها العمال فى نضالهم العنيد . وفضلا عن ذلك ، يجد المنتج الصغير نفسه فى تبعية الشركات الكبيرة . ومن حيث جوهر الامر ، فقدت البرجوازية الصغيرة استقلالها .

ان البروليتاريا هى طبقة العمال الاجراء المحرومين من وسائل الانتاج ووسائل العيش ، والمضطرين بالتالى الى بيع قوة عملهم من الرأسماليين .

ان البرجوازية والبروليتاريا فى المجتمع الرأسمالى ترتبطان احداهما بالاخرى ارتباطا لا انفصام لعراه : فان البرجوازية لا

تستطيع ان تعيش وتغتنى اذا لم تستثمر العمال الاجراء ؛ والبروليتاريا لا تستطيع ان تعيش اذا لم تؤجر نفسها للراسماليين ولم تبع قوة عملها . ولكن البرجوازية والبروليتاريا هما فى الوقت نفسه طبقتان متناحرتان ، مصالحهما متعادية عداء مستحكما . ان التناقض بين البرجوازية والبروليتاريا هو التناقض الطبقى الاساسى فى المجتمع الرأسمالى .

الملاكون العقاريون والفلاحون

الى جانب البرجوازية والبروليتاريا ، توجد فى ظل الرأسمالية طبقة الملاكين العقاريين وطبقة الفلاحين . وقد بقيت هاتان الطبقتان عن النظام الاقطاعى ، ولكنهما تغيرتا تغيرا جذريا . فان الاقطاعيين فى ظل الرأسمالية اصبحوا طبقة كبار ملاكى الاراضى الذين يؤجرون ارضهم للرأسماليين المستاجرين او للفلاحين او يستثمرون بانفسهم اراضيهم الشاسعة بطريقة رأسمالية ، اى ، اساسا ، باستخدام العمل المأجور .

اما الفلاحون فهم اساسا منتجون صغار يستثمرون اقتصادهم بعملهم الخاص وبوسائل انتاج تخصهم . ان الفلاحين يشكلون فى اغلبية البلدان البرجوازية قسما كبيرا من السكان ، ولكنهم ليسوا متجانسين اجتماعيا . فعلى الدوام ، يستمر تمايز الفلاحين : بروز العناصر الرأسمالية ، وانمو عدد الفقراء ، وخراب هؤلاء .

الفئات المتوسطة

ان تطور الرأسمالية يتصف ، على الاخص ، بنمو عدد العاملين الاجراء ، اى العمال والمستخدمين ، وبأنخفاض عدد ارباب العمل المستقلين . ففى الولايات المتحدة الاميركية ، مثلا ، كان عدد

ارباب العمل المستقلين يبلغ فى عام ١٨٧٠ مقدار ٤٠,٤ بالمئة من السكان القادرين على العمل ، وفى عام ١٩٥٤ ، مقدار ١٣,٣ بالمئة فقط . اما عدد العاملين الاجراء فقد ازداد من ٥٩,٤ بالمئة الى ٨٦,٨ بالمئة .

وخلافا للوقائع الجلية ، يزعم العلماء البرجوازيون ان التناقضات الطبقية تزول فى المجتمع الرأسمالى الحالى وان «طبقة متوسطة» تشغل مكان الطبقتين المتعاديتين سابقا . فان الاستاذ البريطانى مارشال يزعم «ان المجتمع الغربى كله تقريبا يتحول الى «طبقة متوسطة» هائلة . ولكنهم فى البلدان الرأسمالية يصنفون فى عداد «الطبقة المتوسطة» كل من يملك سيارة او برادا او تلفازا او غيرها من سلع الاستهلاك الطويل الأمد . غير ان اقتناء العامل تلفازا وحتى سيارة لا يغير وضعه الاجتماعى ، وعلاقته بوسائل الانتاج ، وبتعبير آخر ، لا يجعله رأسماليا . وفى كثير جدا من الحالات ، يقتنى العمال سلع الاستهلاك الطويل الامد بالتقسيط اى انهم لا يملكون هذه السلع عمليا ملكية تامة . وليس من النادر ان يعجز العامل عن ايجاد القسط الدورى ، فيفقد هذه «الملكية» .

ان نظرية «الطبقة المتوسطة» تعتمد على ظاهرة نمو عدد المستخدمين فى البلدان الرأسمالية . ان المستخدمين ليسوا عمالا بمفهوم هذه الكلمة العادى ، لأنهم لا يقومون بعمل يدوى ، جسدى ، بل بعمل فكرى . ولكنهم ، شانهم شان العمال ، عاملون اجراء . والواقع ان عدد المستخدمين فى البلدان الرأسمالية ينمو بسرعة . ففى مستهل القرن العشرين ، كان المستخدمون فى البلدان الرأسمالية الرئيسية يشكلون ٧ـ٨ بالمئة من السكان القادرين على العمل ، بينما يشكلون فى الوقت الحاضر ٢٠ـ٣٠ بالمئة . وفى الولايات المتحدة الاميركية اكثر من ٢٣ مليون

مستخدم اى قرابة ثلث السكان القادرين على العمل . وعلى هذا الاساس اعلن الايديولوجيون البرجوازيون ان المستخدمين يشكلون «طبقة متوسطة جديدة» تمتص البروليتاريا والبرجوازية على السواء وتصبح القوة الحاسمة فى التطور الاجتماعى .

اما فى الواقع ، فلا توجد اى «طبقة متوسطة جديدة» او «طبقة من المستخدمين» . فان المستخدمين فى المجتمع الرأسمالى فئة متنافرة جدا ، غير متجانسة . فان قمة المستخدمين ، – موظفى الحكومة ، مدراء المصارف والشركات ، الخ . ، – يلتصقون بالطبقة البرجوازية من حيث وضعهم الاجتماعى ومن حيث مستوى مداخيلهم وطريقة الحصول عليها . اما اغلبية المستخدمين فانهم ينتسبون الي الطبقات الكادحة ويلتصقون بالبروليتاريا . وغالبا ما يسمونهم «بالعمال ذوى القبات البيضاء» .

كذلك طرأت تغيرات كبيرة فى صفوف المثقفين . فقد ازداد عدد المثقفين العاملين بالاجرة . وهذه الفئة من المثقفين تقترب من حيث وضعها من الطبقة العاملة ، وهى تتحد فى جمعيات مهنية ، فى نقابات (المعلمين ، شغيلة الطب) تشترك بنشاط فى الحركة العمالية .

٤ ـ تناقضات الراسمالية

تناقض الراسمالية الاساسى

مع تطور الرأسمالية ، ينمو التقسيم الاجتماعى للعمل ، وتشتد الصلة المتبادلة والتبعية المتبادلة بين مختلف الفروع الصناعية المستقلة سابقا بعضها عن بعض . وتتعاظم كثيرا الصلات الاقتصادية بين مختلف المؤسسات والمناطق والبلدان . فان النظام الرأسمالى يشمل قارات بكاملها بما فيها ايضا تلك البلدان المستعمرة التى لا توجد بعد فيها علاقات رأسمالية .

وينشا الانتاج الضخم سواء أفى الصناعة ام فى الزراعة . ومع تطور القوى المنتجة ، تظهر ادوات وطرائق للانتاج تتطلب توحيد عمل مئات وآلاف العمال . واكثر فاكثر يغدو الانتاج اجتماعيا . ولكن وجود الملكية الخاصة لوسائل الانتاج يفضى الى استئثار حفنة من الرأسماليين بنتاج العمل الاجتماعى الذى يبذله ملايين الناس .

ان النظام الرأسمالى مفطور على تناقضات عميقة : فاكثر فاكثر يكتسب الانتاج صفة اجتماعية ، بينما ملكية وسائل الانتاج تظل ملكية رأسمالية خاصة لا تتفق مع صفة الانتاج الاجتماعية . ان التناقض بين صفة الإنتاج الاجتماعية والشكل الرأسمالى الخاص لتملك ثمار الانتاج هو تناقض الرأسمالية الاساسى .

ان تناقض الرأسمالية الاساسى يفصح عن التناقض بين القوى المنتجة المتنامية باستمرار وعلاقات الانتاج الرأسمالية . وهذا التناقض يتبدى بوضوح خاص فى ازمات فيض الانتاج الاقتصادية .

الازمات الاقتصادية

منذ مطلع القرن التاسع عشر ، اى منذ ظهور الصناعة الآلية الكبيرة ، تهز الازمات الاقتصادية بصورة دورية اقتصاد بلدان الرأسمالية . فان اول ازمة صناعية شملت اقتصاد البلد كله قد نشبت فى بريطانيا عام ١٨٢٥ . وفى عام ١٨٣٦ ، نشبت ازمة جديدة هزت بريطانيا وشملت الولايات المتحدة الاميركية . والازمة التالية ، فى عامى ١٨٤٧ و ١٨٤٨ ، كانت ازمة عالمية . ثم تبعتها ازمات اعوام ١٨٥٧ ، ١٨٦٦ ، ١٨٧٣ ، ١٨٨٢ ، ١٨٩٠ . وفى القرن العشرين ، نشبت الازمات فى اعوام ١٩٠٠–١٩٠٣ ، ١٩٠٧ ، ١٩٢٠–١٩٢١ ، ١٩٢٩–١٩٣٣ ، ١٩٣٧–

١٩٣٨ . وبعد الحرب العالمية الثانية ، لوحظت فى الولايات المتحدة الاميركية ، مثلا ، اربع ازمات (١٩٤٨-١٩٤٩ ، ١٩٥٣-١٩٥٤ ، ١٩٥٧-١٩٥٨ ، ١٩٦٠-١٩٦١) . وقد كانت ازمة ١٩٥٧-١٩٥٨ عالمية ، وقد شملت بلدانا تبلغ حصتها من انتاج الصناعة فى العالم الرأسمالى الثلثين .

ان الازمات الاقتصادية فى ظل الرأسمالية انما هى ازمات فيض الانتاج. ففى مرحلة الازمة ، لا تجد البضائع تصريفا لها ، لأنه أنتج منها اكثر مما يستطيع ان يشترى المستهلكون الذين قدرة معظمهم الشرائية محدودة . الا ان فيض انتاج البضائع لا يعنى ابدا ان حاجات جميع اعضاء المجتمع قد لبّيت . بل بالعكس . ففى زمن الازمة ، يتفاقم وضع الكادحين تفاقما شديدا ، ويهبط مستوى حياتهم كثيرا . ويؤدى نمو البطالة الى حرمان عدد ضخم جدا من الناس من جميع موارد الرزق والعيش . ان فيض البضائع لا يوجد بالقياس الى حاجات المجتمع الفعلية ، بل فقط بالقياس الى الطلب المقتدر ، (القادر على الدفع) ، ولذا يكون فيض انتاج البضائع فى زمن الازمة نسبيا .

ان التناقض بين صفة الانتاج الاجتماعية والشكل الرأسمالى الخاص لتملك ثمار الانتاج هو اساس ازمات فيض الانتاج الاقتصادية . ففى المؤسسات الرأسمالية يكدح ملايين الناس ، ولكن كل ما ينتجونه يخص مالكى المؤسسات . ومهما بلغت كمية المنتوجات التى ينتجها العامل ، فانه لا يستطيع أن يشترى منها الا بقدر ما تسمح له اجرته .

وركضا وراء الربح الاقصى ، يوسع الرأسماليون الانتاج ويحسنون التكنيك ويقذفون بمقادير ضخمة جدا من البضائع الى السوق . ولكن نمو اجور العمال ، هذا اذا ما جرى على العموم ، يتاخر عن نمو الانتاج . وهذا يعنى ان الطلب المقتدر

لدى الطبقة العاملة وجماهير الكادحين الغفيرة ينخفض نسبيا . ان توسيع الانتاج الرأسمالي يصطدم حتما بضيق نطاق الاستهلاك عند الجماهير الاساسية من السكان .

ان تناقض الرأسمالية الاساسى يتجلى فى التناحرات الطبقية بين البروليتاريا والبرجوازية . فان القطيعة بين أهم شرطى الانتاج اى بين وسائل الانتاج المتمركزة فى ايدى الرأسماليين والمنتجين المباشرين المحرومين من وسائل الانتاج والمالكين قوة عملهم فقط ، ان هذه القطيعة التى تتميز بها الرأسمالية ، تتكشف بسطوع شديد ، خاص ، فى ازمات فيض الانتاج ، عندما يظهر ، من جهة ، فيض من وسائل الانتاج ومن المنتوجات ، ومن جهة اخرى ، فيض من قوة العمل ، وجمهور من العاطلين المحرومين من وسائل العيش .

وابّان الازمة ، تتأزم وتشتد التناقضات الطبقية بين البروليتاريا والبرجوازية ، بين الفلاحين والاقطاعيين الذين يستثمرون الفلاحين . ويتأزم ويشتد النضال الطبقى فى المجتمع الرأسمالى . وفى هذا النضال تشترك جماهير غفيرة من الشغيلة .

ان الازمات هى رفيقة لازمة لازبة لاسلوب الانتاج الرأسمالى . ولا يمكن القضاء عليها طالما الرأسمالية موجودة . ان الازمات هى اجلى واسطع دليل على ان القوى المنتجة التى خلقتها الرأسمالية قد تخطت نطاق علاقات الانتاج البرجوازية ، ومن جرّاء ذلك ، أمست هذه العلاقات عائقا امام استمرار نمو القوى المنتجة . ولتامين هذا النمو ، لا بدّ من تصفية الملكية الرأسمالية الخاصة لوسائل الانتاج ، وعلاقات الانتاج الرأسمالية .

وبتطوير القوى المنتجة ، واضفاء الطابع الاجتماعى على الانتاج ، تخلق الرأسمالية موضوعيا المقدمات المادية لأجل ظهور الاشتراكية . وفى الوقت نفسه تولد الرأسمالية تلك القوة المدعوة الى تحويل المجتمع ، الا وهى الطبقة العاملة .

الفصل الثانى

الثورات البرجوازية

١ ـ حتمية الاطاحة بالنظام الاقطاعى والاستعاضة عنه بالنظام البرجوازى

ان نمو القوى المنتجة باستمرار هو قانون تطور المجتمع البشرى . ولكن هذا التطور تكبحه علاقات الانتاج القديمة المتخلفة عن نمو القوى المنتجة . ان عدم تطابق القوى المنتجة الجديدة وعلاقات الانتاج القديمة هو اساس الثورة الاجتماعية التى تفضى الى الاستعاضة عن تشكيلة اقتصادية اجتماعية بتشكيلة اخرى اكثر تقدما ، وهذا قانون من قوانين التطور التاريخى . ان التناقض المذكور يتجلى فى النضال بين الطبقات الرجعية التى تدافع عن علاقات الانتاج التى شاخت وولى زمنها من جهة وبين الطبقات التقدمية من جهة اخرى ، وفى المقام الاول الكادحين ، الشغيلة الذين يؤلفون العنصر الرئيسى فى عداد عناصر القوى المنتجة المتطورة بلا انقطاع . ان النضال الطبقى يؤدى فى مرحلة معينة من تطوره الى الثورة .

طابع الثورات البرجوازية واساسها الاقتصادى الاجتماعى

تختلف الثورات الاجتماعية بعضها عن بعض من حيث طابعها وقواها المحركة ، ومن حيث نتائجها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . ان طابع الثورة يحدده ما يلى : اى هى التناقضات التى تحلها واى هى المهام المدعوة الى تحقيقها ، وبتعبير آخر ، اى هى

علاقات الانتاج التى يجب تدميرها واى هى العلاقات التى يجب توطيدها . ان الثورة المدعوة بحكم سير تطور المجتمع الاقتصادى الاجتماعى الى القضاء على العلاقات الاقطاعية هى ، من حيث طابعها ، ثورة برجوازية . واساس الثورات البرجوازية الاقتصادى الاجتماعى هو عدم التطابق بين القوى المنتجة الجديدة المتنامية فى احشاء المجتمع الاقطاعى وبين علاقات الانتاج القديمة ، الاقطاعية . ان اسلوب الانتاج الاقطاعى الذى حل محل اسلوب الانتاج العبودى ، كان يمثل درجة اعلى فى التطور الاقتصادى . فقد كشف امكانيات كبيرة لانماء القوى المنتجة .

ان عمل الفلاح التابع الذى يملك استثمارة وادوات انتاج ، والذى له ، بمعنى معين ، مصلحة فى مردود عمله ، كان اكثر انتاجية من عمل العبد الرقيق . ولكن العمل الالزامى امسى فى مرحلة معينة من تطور الانتاج الاجتماعى ، عائقا امام تطور الزراعة والصناعة .

وعلى حراسة وصيانة علاقات الانتاج بسبيل الزوال ، تقوم الطبقات الاستثمارية السائدة . فهى تستغل السلطة (سلطة الدولة) العائدة لها لأجل الاحتفاظ بسيادتها . ولهذا ينبغى على الطبقة الثورية ان تاخذ السلطة فى يدها قبل كل شيء لكى توطد علاقات الانتاج الجديدة . ان مسالة السلطة هى المسالة الاساسية فى كل ثورة . ان دك النظام الجديد وتنظيم السلطة الجديدة يشكلان مضمون الثورة السياسية .

تطور علاقات الانتاج الراسمالية فى احشاء الاقطاعية

تتميز الثورات البرجوازية بخاصة قوامها ان علاقات الانتاج الراسمالية تبدأ تتكون بل وتتطور فى احشاء المجتمع

الاقطاعى حتى قبل انتصار الثورة البرجوازية . وهذا ما يتضح جيدا من مثال الثورة البرجوازية الانجليزية فى السنوات الاربعين من القرن السابع عشر والثورة البرجوازية الفرنسية فى اواخر القرن الثامن عشر . فان هاتين الثورتين لم تكونا انجليزية وفرنسية صرف ، بل كانتا ثورتين اتسمتا باهمية اوروبية عامة ، خلافا للثورة البرجوازية الهولندية . فلم ترمزا الى انتصار برجوازية هذين البلدين وحسب ، بل نادتا كذلك بنظام سياسى واجتماعى جديد لاوروبا بأسرها . وقد اعربتا عن حاجات العالم كله فى ذلك الوقت ، اكثر مما اعربتا عن حاجات هذا او ذاك من اقسامه ، عن حاجات بريطانيا او فرنسا . ولهذا يعطى تاريخ الثورة الانجليزية والفرنسية مادة مقنعة لأجل تفسير خصائص الثورات البرجوازية على العموم .

ولادة الراسمالية فى انجلترا

فى النصف الثانى من القرن السادس عشر والنصف الاول من القرن السابع عشر ، لوحظ فى انجلترا اشتداد نمو العلاقات الرأسمالية ، وتطور الرأسمالية فى الصناعة . فالى جانب الانتاج البضاعى الصغير ، تطورت مختلف اشكال المانيفاكتوره الرأسمالية . وقد ظهر الانتاج الرأسمالى الكبير بادئ الامر حيث كان ينبغى مستوى تكنيكى اعلى وبالتالى قدر اكبر من نفقات الرأسمال ، أى فى الانتاج التعدينى والمنجمى والزجاجى والحريرى وانتاج الاسلحة ، الخ . .

وقد اسهم تطور المانيفاكتورات فى انماء الانتاج . مثلا ، ازداد استخراج الفحم الحجرى الى ١٤ مرة من عام ١٥٦٠ الى عام ١٦٨٠ ، وبلغ ٣ ملايين طن فى السنة . وهذا ما شكل

اربعة اخماس عموم الفحم المستخرج فى هذه الحقبة من الزمن فى اوروبا . وفى مائة سنة ، من ١٥٤٠ الى ١٦٤٠ ، ازداد استخراج الرصاص والقصدير والنحاس الى ٦ او ٨ مرات ، والحديد الى ٣ مرات .

ولربما كان تطور الرأسمالية فى الزراعة الانجليزية أشد مما فى الصناعة . فقد بدأ هذا التطور فى القرية قبل ان يبدأ فى الصناعة ، وكان فى القرية اكثر جذرية . وهذا ما اضفى طابعا خاصا على عملية التراكم البدائى للرأسمال فى انجلترا واضطلع بدور خاص فى توزع القوى الطبقية فى البلد .

وقد رأى قسم من النبلاء ان من المفيد لهم القيام بمشاريع رأسمالية عن طريق تربية الاغنام وبيع الصوف . وحاول النبلاء ان يقضوا على اراضى الفلاحين المحروثة . وهذا ما آل فى آخر المطاف الى انتزاع اراضى الفلاحين بالجملة ثم ان ممثلى هذه الفئة من الطبقة الاقطاعية المسمّين « بالنبلاء الجدد » ، قاموا كذلك بنشاط كبير فى الصناعة (وفى التجارة الداخلية والخارجية ايضا) . وفضلا عن النبلاء ، انصرف الى المشاريع اغنى الفلاحين الذين تحولوا الى مزارعين رأسماليين .

ان تطور التجارة ، اى التبادل التجارى بين المدينة والقرية كان اساس نمو العلاقات الرأسمالية . وهذا ما يسّر عملية اندماج الاسواق المحلية فى سوق وطنية واحدة ، الامر الذى كان على ارتباط بتطور تخصص مختلف المناطق .

تطور الراسمالية فى فرنسا

فى فرنسا ، بدأ الانتاج المانيفاكتورى يتطور من القرن السادس عشر ، وبلغ مستوى عاليا نحو الثلث الاخير من القرن الثامن عشر . ففى مدينة ليون وغيرها من مدن جنوب فرنسا ،

2•

ازدهرت مانيفاكتورات الحرير ، وفى منطقة ريمس (الشمال) ازدهرت مانيفاكتورات الجوخ ، وفى منطقة باريس ، مانيفاكتورات سجاد غوبلين . وفى باريس وليون ، اتسمت كبريات المطابع بسمة راسمالية . وفى مستهل العقد التاسع ، اعطت مصانع التعدين فى كروزو انتاجها الاول . ومن وقت الى آخر ، سرعوا يستخدمون الآلات البخارية فى الانتاج . فقد لوحظ استعمالها فى مقالع الفحم فى انزين بشمال فرنسا ، وفى اورليان ، وفى اماكن اخرى . ولكن الصناعة المانيفاكتورية الفرنسية ظلت فى غالبها صناعة صغيرة ومبعثرة ، وقد هيمنت فيها المؤسسات التى تشغل عددا غير كبير من العمال . وقد افضت سيطرة المشاغل فى اغلبية فروع الانتاج الى نشوء المانيفاكتورات المشتتة والممركزة على السواء فى الانحاء الريفية . وهذا ما زاد المصاعب فى تنظيم الانتاج ، اى المصاعب المرتبطة بايصال الخامات ونقل المصنوعات الجاهزة وجمع العمال الخ . .

كذلك تطورت العلاقات الرأسمالية فى الزراعة . ففى الزراعة ظهرت فئة من الفلاحين المستاجرين شرعوا يستاجرون الارض من الملاكين الاقطاعيين ، ويؤجرونها بدورهم للفلاحين الفقراء او يستغلونها بمساعدة الفلاحين الذين لا يملكون ارضا وتحولوا الى اجراء زراعيين . وبين كبار المستاجرين ، كان عدد كبير من برجوازيي المدن . وهكذا ادى الاستثمار الرأسمالى المشتد اكثر فاكثر بالاضافة الى الاتاوات والفرائض الاقطاعية العديدة الى استشراء الفقر وخراب الفلاحين . كان الفلاحون يشكلون السواد الاعظم من السكان ، فافضى انخفاض قدرتهم الشرائية الى تقلص السوق الداخلية ، الامر الذى اعاق تطور الراسمالية .

فى انجلترا ، تكونت البرجوازية الناشئة من المتحدرين من مختلف الطبقات والفئات فى المجتمع الاقطاعى . وتحدرت البرجوازية التجارية من عداد تجار القرون الوسطى ، وشكل الحرفيون المغتنون اساس البرجوازية الصناعية .

وانتقل قسم من الاقطاعيين من اشكال الاقتصاد الاقطاعية الى استثمار العمل الماجور اى الى الاقتصاد الرأسمالى . وهذا ما اشترط مسبقا ظهور فئتين اجتماعيتين مختلفتين داخل طبقة الرأسماليين بسبيل التكوين : فئة الاقطاعيين المتبرجزين ، وفئة برجوازية المدن . وشكل الفلاحون المطرودون من جميع الاراضى السواد الاعظم من العمال المانيفاكتوريين الماجورين . وقد رأت الدولة الانجليزية الاقطاعية ان من المفيد لها ان تدعم تطور المانيفاكتورات . وبديهى انها «ساعدتْ» اصحاب المشروعات الرأسمالية بطرائق اقطاعية . لهذا كان ما يسمى «تشريع العمل» الذى بدأت تطبقه سلالتا تيودور وستوارت منذ القرن السادس عشر ، يمثل نوعا من اكراه غير اقتصادى للشغيلة . وليس من باب الصدفة ان دخل هذا التشريع فى التاريخ باسم التشريع «الدموى» لأنه ادى الى ملاحقة الشغيلة المحرومين من وسائل العيش ، والى ارهابهم واعدام عشرات الآلاف منهم . ان تكوّن البروليتاريا قد جرى فى ظروف تحالف وثيق بين الدولة الاقطاعية والطبقة البرجوازية الناشئة .

وفى فرنسا ، تحدرت الطبقتان بسبيل التكوين ، البرجوازية والبروليتاريا ، من الفئة غير المميزة ، الثالثة . وقد بلغ عدد افراد البرجوازية الفرنسية فى اواخر القرن الثامن عشر قرابة ٢٥٠ الف شخص . وكان هؤلاء من اصحاب المانيفاكتورات والتجار واصحاب

المصارف وغيرهم من رجال المال . وتكونت البروليتاريا من الحرفيين ومن صناع المشاغل . وعشية الثورة كان عدد عمال المانيفاكتورات قرابة ٦٠٠ الف . وقد كانت البرجوازية الفرنسية تمثل قوة منظمة الى هذا الحد او ذاك ، بينما الطبقة العاملة الفرنسية كانت فى اقصى الضعف وعديمة الشكل ، وغير مدركة مصالحها الطبقية ، كانت طبقة «فى نفسها» .

التناقضات بين الاقتصاد الراسمالى والنظام السياسى الاقطاعى

ان الطبقة الاقطاعية فى انجلترا ، شانهـا شان الاقطاعيين الفرنسيين ، لم تعتزم التنازل عن مواقعها للبرجوازية . ورغم الكسب من تطـور المانيفاكتورات ، دعمت الدولة الاقطاعيـة المشاغل القروسطية . وكانت هذه المشاغل تعيق بشتى الوسائل استخدام المستحدثات التكنيكية وتكافح ظهور المانيفاكتورات . ولكن هذا لم يصن المشاغل دون تسرب العلاقات الرأسمالية ، دون تحولها فيما بعد الى مؤسسات رأسمالية . ومع ذلك ، اعاق النظام المشغلى والتنظيم المشغلى والامتيازات المشغلية (لم يكن من النادر فى انجلترا ان تتسم المشاغل بسمة مختلطة حرفية تجارية) التطور الرأسمالى فى انجلترا وفرنسا . والحدود الجمركية الداخلية ، والرسوم المحلية التى لا عدّ لها ، وتعسف السلطات والاسياد الاقطاعيين ، والاختلافات فى المقاييس والاوزان ، ووجود اصول تشريعية محلية ، كل هذا كبح تطور التجارة وتشكل سوق وطنية واحدة وتوطد العلاقات الرأسمالية . فقط تصفية النظـام السياسى الاقطاعى وظفر البرجوازية بالسلطة كان فى مستطاعهما ان يفسحا المجال رحبا امام تطور اسلوب الانتاج الرأسمالى .

دون التحضير الفكرى ، الايديولوجى ، دون «ثورة فى العقول» ، لاستحالت الثورة البرجوازية . وفى هذا الصدد ، تتميز الثورة البرجوازية الفرنسية بدلالة خاصة . فقبل نشوبها بزمن طويل ، سلط ممثلو المرتبة الثالثة ، الذين اسموا بالمنورين ، على النظم الاقطاعية السائدة ، نقدا فى غاية الضراوة ، واثبتوا ضرورة القضاء عليها . وعرضوا تصوراتهم عن المجتمع الذى ينبغى ان يحل محل المجتمع القديم . وقد كان منورو الفئة الاقدم – فولتير ومونتيسكيو وغيرهما ، مفكرى ، ايديولوجيى البرجوازية الكبيرة . وبلا هوادة ، فضح فولتير (فرانسوا مارى اورويه ، ١٦٩٤ – ١٧٧٨) الحكم المطلق الملكى ، وامتيازات النبلاء المراتبية ، والكنيسة الكاثوليكية التى نعتها بانها «غول المعتقدات الباطلة وتنين التعصب الاعمى» . ونادى بافكار الحرية الانسانية والمساواة بين البشر قاصدا بذلك المساواة بين البرجوازية والاريستقراطية فقط .

وبسخط وغضب ، انتقد شارل لويس مونتيسكيو (١٦٨٩– ١٧٥٥) النظم الاقطاعية وذلك فى مؤلفه الهجائى الحاذق «رسائل فارسية» . وفى كتابه «روح الشرائع» ابدى رأيه بالنظام الذى ينبغى ان يحل محل الحكم المطلق الاقطاعى . وقد اعتبر الملكية الدستورية خير نظام اجتماعى . ونادى ، مثله مثل فولتير ، بافكار الحرية والمساواة . وانتقد استرقاق الزنوج انتقادا حادا .

اما الفئة الثانية فقد شكلها منورو الجيل الاصغر ، اى روسو والموسوعيون الذين اعربوا عن آراء البرجوازيـــة المتوسطة والصغيرة . وقد استمدوا اسمهم من اسم «الموسوعة ، او القاموس التفسيرى للعلوم والفنون والحرف» التى وضعوها بـ٣٠ مجلدا .

وقد كتبت الموسوعة من مواقع المادية الميكانيكية ، الا ان واضعيها ظلوا مثاليين فى تفسير الظاهرات الاجتماعية .

حلم جان جاك روسو (١٧١٢–١٧٧٨) بمجتمع لا اضطهاد فيه ، وبدولة الرفاهية العامة التى ستكون نتيجة «لعقد اجتماعى» بين الناس الاحرار . وقد كتب عن حق الشعب فى الاطاحة بالاستبداد ، وفى الثورة . كان روسو ثوريا برجوازيا صغيرا . وقد نادى بتوزيع الملكية الخاصة بالتساوى ، ولم يقل بتصفيتها كليا ، معتبرا ان ذلك غير ممكن .

وكانت مواقف الموسوعيين ديدرو وهلفيسيوس ودالامبير والآخرين قريبة من مواقف روسو .

وقد اشار هوغو الى دور المنورين فى التربية الفكرية ، الايديولوجية لرجال الثورة الفرنسية الكبرى ، فكتب يقول : «ان عام ١٧٨٩ لم يكن ممكنا لولا المبشرة به ، لولا الموسوعة . لقد اعد فولتير ظهور ميرابو . ضعوا جانبا ديدرو ، فلا يبقى دانتون . ولو انهم حالوا فى مستهل القرن الثامن عشر دون نمو النبتة التى اسمها روسو ، لما كان من الممكن ان تنمو فى اواخر القرن من باب النتيجة نبتة اخرى اسمها روبيسبيير» .

واخيرا ، الفئة الثالثة من المنورين ، يمثلها مفكرو الفلاحين الفقراء وفقراء المدن والبروليتاريا الجنينية ، الذين طورا على الاخص افكار الشيوعية الطوباوية . فقد كتب جان ميليه (١٦٦٤–١٧٢٩) فى كتابه «الوصية» عن ضرورة الاطاحة ، عن طريق الثورة ، بالنظام القائم على الاضطهاد والملكية الخاصة . وقد اعتبر الدين خرافة سافلة القصد منها ابقاء الشعب فى حالة الطاعة والخضوع . كذلك كتب ميليه عن ضرورة انشاء مجتمع خال من الاستثمار ، ويستعاض فيه عن الملكية الخاصة للارض بملكية الكادحين العامة . وكانت تلك ، من حيث الجوهر ، افكار

الشيوعية الطوباوية . كذلك عرض موريللى (سنتا ولادته ووفاته غير ثابتتين بدقة) فى مؤلفه «قانون الطبيعة» والابيه مابلى (١٧٠٩–١٧٨٥) افكارا قريبة من افكار الشيوعية الطوباوية .

لقد اضطلع نشاط المنورين بدور كبير فى اعداد الثورة . فقد قوّض نفوذ السلطة الملكية والنظام الاقطاعى والكنيسة بين الجماهير الواسعة .

الوضع الثورى

ان الانفجار الثورى يسبقه ما يسمى الوضع الثورى . والوضع الثورى هو مجمل العوامل الموضوعية التى تؤدى باتحادها مع العامل الذاتى الى الثورة . وفى عداد العوامل الموضوعية يجب ان نضع قبل كل شىء تأزم حاجات ومصائب الجماهير المضطهدة تأزما خارق العادة ، فتبدأ تتقدم بمطالبها الخاصة . والوضع الثورى هو ، اخيرا ، ازمة سياسة الطبقات السائدة التى لا يبقى فى وسعها ان تحتفظ بسيادتها بشكلها السابق . اما العامل الذاتى الذى يكمل الوضع الثورى فهو قدرة الطبقة الثورية على القيام باعمال جماهيرية ثورية ، وقوية الى حد ان تحطم سيادة الطبقة الرجعية .

ان الخصائص الملموسة التى تميز الوضع الثورى ، وكذلك الثورة البرجوازية على العموم ، تظهر فى مثال الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ .

فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، كانت الملكية المطلقة الفرنسية فى مرحلة التفسخ التام . وقد ازدهر الفجور والتبذير فى القصر الملكى . كذلك اجتهد كبار الاقطاعيين فى الاقتداء بالملك .

وفى وقت نفسه ، كانت انتفاضات الفلاحين تتوالى فى البلاد بلا انقطاع ، وفى جملة من الحالات هب العمال الى النضال (مثلا، انتفاضة حاكة ليون عام ١٧٨٦) .

وقد ادرك ابعد ممثلى الطبقة الاقطاعية السائدة نظرا ، وكذلك القسم من البرجوازية الذى كان فى خدمة الحكم المطلق ، ضرورة تغيير النظم القائمة . ولكنهم ظنوا ان فى مستطاعهم بلوغ اهدافهم بواسطة الاصلاحات اى بواسطة تنازلات جزئية غايتها الحفاظ على سيطرتهم وعلى كل النظام الاجتماعى الاقطاعى . وهذا الطابع بالذات اتسمت به اصلاحات روبر جاك تورغو الذى اصبح فى عام ١٧٧٤ مراقبا عاما ووزيرا يشرف على المالية والتجارة . وكانت هذه الاصلاحات من حيث الجوهر عبارة عن محاولة لتمهيد الطريق امام التحويلات الرأسمالية . ولكن تورغو أقيل ، وألغيت اصلاحاته . وقد بيّن هذا مرة اخرى عدم تطابق التطور الرأسمالى والنظام السياسى الاقطاعى .

وفى اواخر السنوات الثمانين ، تردى وضع البلاد الاقتصادى بشكل خاص ، الامر الذى استتبع انفجارا جديدا فى استياء الشعب . ونشأ فى البلاد وضع ثورى . وكانت دعوة مجلس طبقات الامة الى الانعقاد لأجل حل القضايا الجوهرية المتعلقة بتطور البلاد ، المطلب الاساسى للطبقة الثالثة . وقد اضطر الملك لويس السادس عشر الى الموافقة على هذا الطلب . وأمكن للطبقة الثالثة (اى بصورة رئيسية البرجوازيـــة والفئات الميسورة الاخرى) ان تختار إلى مجلس طبقات الامة عددا من النواب يوازى عدد نواب الطبقتين الاوليين معا .

٢ ـ تطور الثورة

الانفجار الثورى

افتتح مجلس طبقات الامة جلساته فى ٥ ايار (مايو) ١٧٨٩ . وفى اليوم التالى ، نشبت خلافات جدية بين ممثلى

الطبقات . فقد رفض نواب الطبقتين الاوليين الجلوس مع مندوبى الطبقة الثالثة مما دفع هؤلاء الى عمل ثورى جرىء . ففى ١٧ حزيران (يونيو) اتخذوا قرارا باعلان انفسهم الجمعية الوطنية ، اى الهيئة العليا للسلطة . وبعد فترة قصيرة ، اعلنت الجمعية الوطنية نفسها ، رغم تهديد الملك ، جمعية تأسيسية ، مشيرة بذلك الى انها تعتبر وضع دستور مهمتها الاساسية .

فقررت السلطة الملكية القضـــاء على المقاومة واستعادة امتيازاتها . فبدأ حشد القوات . وشرع شغيلة باريس يتسلحون . واطلقت الخيالة الملكية ، المجموعة من الاجانب ، النار على الشعب مما جعل كأس الصبر يطفح . وفى ١٣ تموز (يوليو) بدأت انتفاضة حقيقية . وفى ١٤ تموز شن الثوار ولا سيما العمال الفقراء هجوما على قلعة الباستيل . وكان الاستيلاء عليها بداية الثورة البرجوازية الفرنسية الكبرى .

وصارت السلطة فى يد الجمعية التأسيسية . وفى الوقت نفسه انشئت هيئة للادارة الذاتية البلدية اسميت الكومونة .

ان الثورات البرجوازية تمر فى تطورها بجملة من المراحل تبعا لاشتراك مختلف الفئات الاجتماعية ودورها فيها . ويمكن ابراز مثل هذه المراحل فى تطور الثورة الفرنسية ايضا .

المرحلة الاولى للثورة . السلطة فى يد البرجوازية الكبيرة (١٤ تموز - يوليو ١٧٨٩-١٠ آب - اغسطس ١٧٩٢)

ان الاستيلاء على الباستيل كان بمثابة اشارة لأجل انتفاض الفلاحين المطالبين بالقضاء على الاتاوات والفرائض الاقطاعية . فهبت البلديات وفصائل الحرس الوطنى فى مدن كثيرة كان كبار البرجوازيين - ملاكى الاراضى يشغلون فيها وضعا قياديا الى نجدة

الاقطاعيين . واستدعيت القوات العسكرية الى مقاتلة المنتفضين . وتشكل اتحاد فريد بين البرجوازية الكبيرة والاريستقراطية ضد شغيلة الريف والمدينة . لم تكن الجمعية التاسيسية تعطف على الثائرين ، ولكنها خوفا من استمرار نهوض الثورة ، اتخذت فى ١١ آب (اغسطس) قانونا بتصفية الاتاوات والفرائض الاقطاعية . ولم تلغ بدون تعويض غير الاتاوات الشخصية التى كانت مفروضة على الفلاحين . اما سائر الاتاوات فكان ينبغى التعويض عنها . ولم تلغ المدفوعات فى صالح الاكليروس الا مبدئيا ، ولكنه كان ينبغى دفعها حتى سن قانون جديد . وبنفس الطابع المشروط ، اتسم الغـــاء السلطة القضائية ، اى سلطة السيد الاقطاعى القضائية على الفلاحين الاقنان . وبنتيجة قانون ١١ آب ، توصل ممثلو البرجوازية الى اقرار بنود مفيدة لها . كذلك ألغيت امتيازات مختلف المدن والاقاليم ، واصبحت الطبقتان الاوليان ايضا خاضعتين للضريبة ، الخ ..

وسعيا لاضفاء طابع شرعى على المساواة بين البرجوازية وطبقتى الاقطاعيين ، اقرت الجمعية التأسيسية فى ٢٦ آب (اغسطس) ١٧٨٩ «اعلان حقوق الانسان والمواطن» الذى اضطلع بدور مقدمة للدستور المقبل . كان الاعلان موجها ضد دعائم المجتمع الاقطاعى ، وبهذا تتلخص اهميته التقدمية . وقد نادى الاعلان بالمساواة بين الناس ، واكد «حقوق الانسان الطبيعية التى لا يمكن التنازل عنها» فى الحرية والملكية والامن ومقاومة الظلم ، ونادى بمبدأ سيادة الشعب واكد ان «الملكية حق مقدس لا يمس» . وفى هذه الموضوعة الاخيرة ، تجلت صفة الاعلان الطبقية ، البرجوازية . وهو لم يعتبر غير البرجوازى ذى الملكية انسانا حقيقيا . وقد استعاض الاعلان عن اللامساواة الاقطاعية باللامساواة البرجوازية .

على تخوم ١٧٨٩-١٧٩٠ ظهرت النوادى الثورية فى باريس ثم فى مدن اخرى . وقد اضطلعت هذه النوادى بدور الاحزاب السياسية فى زمن الثورة الفرنسية الكبرى . ومن اشد النوادى نفوذا ، كان نادى اليعاقبة الذى اخذ اسمه عن اسم دير القديس يعقوب ، التابع للرهبنة الدومينيكية فى باريس ، حيث كان مقر هذا النادى . وفيما بعد ، ظهر لنادى اليعاقبة بضع مئات من الفروع فى الاقاليم . فى البدء ، عاد الدور القيادى فيه الى انصار الملكية الدستورية (ميرابو وبارناف ولافاييت ، وغيرهم) ثم عـــادت الغلبة الى الاتجـــاه البرجوازى الديموقراطى برئاســة مكسيميليان روبسبيير ، من اتباع روسو . فخرج اخصامه من هذا النادى واسسوا ناديا لهم عرف باسم نادى الفويان .

فى مستهل عام ١٧٩٠ ، ظهر فى باريس نادى الكوردوليير (من اسم دير الفرنسيسكان – الكوردوليير حيث كان النادى يعقد جلساته) . كان زعماء النادى جورج جاك دانتون وكميل ديمولين وجاك ايبير وبيار غاسبار شوميت وجان بول مارا . وكان مارا (١٧٤٣-١٧٩٣) من ابرز قادة الثورة الذين وقفوا اوفر المواقف جذرية وديموقراطية . وقد سماه الكادحون «صديق الشعب».

توطيد سلطة البرجوازية الكبيرة والاريستقراطية الليبيرالية

عرض قانون الغاء الاتاوات والفرائض الاقطاعية على مصادقة الملك ، ولكن الملك لم يسرع الى مصادقته وليس هذا وحسب ، بل ترصد الفرصة السانحة لأجل تصفية المكتسبات الثورية . وهذا ما دفع كادحى باريس الى القيام باعمال ثورية . فاضطر الملك الى التوقيع على القانون والى الانتقال الى باريس . والى باريس ايضا انتقلت الجمعية التاسيسية . وقد عنيت هذه الاحداث

نشوء الملكية البرجوازية التى اضطلع فيها ممثلو البرجوازية الكبيرة والاريستقراطية الليبيرالية بالدور الحاسم .

واتخذت مراسيم تيسر تطور العلاقات الرأسمالية . وصفيت المشاغل ، وصودرت ملكية الكنيسة ، وأخضعت الكنيسة للدولة ، والغيت الحدود الجمركية الداخلية . وسنت الجمعية التاسيسية جملة من المراسيم الموجهة ضد الشغيلة الكادحين ، لأن البرجوازية الكبيرة كانت تخاف من استمرار تطور الثورة .

وفى ايار (مايو) ١٧٩٠ ، رصد مبلغ للتعويض عن الأتاوات والفرائض الاقطاعية يوازى مدفوعات الاتاوات خلال عشرين سنة (دون تقسيط ودون سلفيات) . فاستثار ذلك موجة جديدة من حركات الفلاحين . وفى حزيران (يونيو) ١٧٩١ ، اقر قانون ضد العمال معروف بقانون « له شابليه »، ويمنع تشكيل الجمعيات العمالية والقيام بالاضرابات ، الخ ..

كذلك امتنعت الجمعية التاسيسية عن تصفية العبودية فى المستعمرات الفرنسية .

وجرى تثبيت الملكية الدستورية فى دستور أقر فى ٣ ايلول (سبتمبر) ١٧٩١ . وقد حدث ذلك بعد اخفاق هرب الملك من باريس (فى حزيران – يونيو ١٧٩١) واطلاق النار على مظاهرة سلمية قام بها شغيلة باريس مطالبين بخلع الملك واعلان الجمهورية .

وبموجب الدستور ، كانت السلطة التشريعية تخص المجلس التشريعى . ولم ينل الحقوق الانتخابية السياسية الا المواطنون « النشطاء » اى اكثر المواطنين يسرا وايرادا . وهؤلاء كانوا فى فرنسا ٤,٣ ملايين فقط . وفى المجلس التشريعى المنتخب حديثا ، كانت الاغلبية الى جانب الفويان الذين كانوا يشغلون وضعا مهيمنا ، قياديا فى الجمعية التشريعية ايضا . وكان الفويان

ممثلو الفئات العليا من البرجوازية ، المرتبطة وثيق الارتباط بالبلاط الملكى (اصحاب المصارف ، ملتزمو جباية الضرائب ، الخ .) . وكان عدد اليعاقبة كبيرا . ولكن الديموقراطيين البرجوازيين الثوريين حقا كانوا قلة بينهم . وكانت اغلبية اليعاقبة تتألف من ممثلى البرجوازية التجارية والصناعية الكبيرة والمتوسطة ، الذين كانوا يسمون بالجيرونديين (نسبة لنواب محافظة الجيروند) . وقد كانت مقاعد الفويان الى يمين قاعة الجلسات ، ومقاعد اليعاقبة الى يسارها ، ومن هنا بدأ تقسيم الاحزاب السياسية الى احزاب « يمينية » و « يسارية » .

وفى عداد المسائل الحادة التى احتدم حولها صراع ضار بين كتل الفويان والجيرونديين واليعاقبة ، كانت مسألة الحرب الوشيكة ، الزاحفة . فمنذ عام ١٧٩١ ، اخذت استعدادات الملكيات الاوروبية للتدخل من اجل خنق الثورة الفرنسية تتخذ طابعا سافرا . ومنذ عام ١٧٩٢ بدأت حروب فرنسا الثورية ضد الملكية والرجعية فى اوروبا . وقد كانت هذه الحروب من جانب فرنسا حروبا عادلة ترمى الى الدفاع عن المكتسبات الثورية . وهكذا ظلت حتى نهاية الثورة اى حتى عام ١٧٩٤ .

وقد ادى التأييد السافر للسلطة الملكية من جانب حلف الدول الاقطاعية الى انتفاضة الجماهير الشعبية . فانشئت لدى كومونة باريس لجنة ثورية برئاسة مارا ودانتون وروبسبيير . وكان تركيب الكومونة قد جدّد بطريقة ثورية ودخلها عمال وحرفيون وبرجوازيون صغار ، فأصبحت هيئة للسلطة الى جانب المجلس التشريعى .

فى ١٠ آب (اغسطس) ١٧٩٢ ، انفجر الشعب الثائر بانتفاضة حقيقية ، فاستولى على قصر الملك بعد قتال . واضطر المجلس التشريعى الى اتخاذ قرار بخلع الملك .

المرحلة الثانية من الثورة . السلطة بيد البرجوازية التجارية الصناعيه
(١٠ آب ١٧٩٢-٢ حزيران ١٧٩٣)

رمز دك الملكية الى بداية مرحلة جديدة من الثورة . فقد شرع المجلس التنفيذى الموقت الذى شكله المجلس التشريعى يضطلع بالدور القيادى . وكان الجيروندیون على رأس المجلس التنفيذى الموقت . وفى ايلول (سبتمبر) ١٧٩٢ جرت الانتخابات الى الكونفانسيون (المجلس الوطنى ، التى كان المجلس التشريعى قد قررها تحت ضغط الجماهير الشعبية . واتخذ المجلس الوطنى قرارا بالغاء السلطة الملكية (٢١ ايلول) واعلن فى اليوم التالى الجمهورية فى فرنسا . وأقر تقويما جديدا ، ونادى بيوم ٢٢ ايلول «اليوم الاول من عام الحرية الاول» .

كان الجيروندیون يشغلون فى المجلس الوطنى اقصى اليمين ؛ اما اليسار ، فكان يشغله القسم الاكثر ثورية بين اليعاقبة ، اى الجبليون ، ذلك انهم كانوا يجلسون فى اعلى قاعة الجلسات ، «فى الجبل» . ولكن الاغلبية كانت تتشكل من «السهل» (او «المستنقع») اى من النواب المتذبذبين المنتخبين فى الاقاليم . ولم يكن الجبليون اليعاقبة الحزب الاكثر جذرية فى الثورة الفرنسية . فان الحزب الاكثر جذرية انما كانته جماعة برئاسة جاك رو وبيار دوليفيه وتيوفيل ليكلير وجاك فارله . وكان مقر هذه الجماعة كومونة العاصمة وكذلك نادى الكورديليير . وقد لقبوا «بالمسعورين» لمطالبتهم باتخاذ تدابير حاسمة ضد المضاربة . وقد اصبح «المسعورون» مفكرى الفئات الفقيرة من سكان باريس .

كانت مطالب «المسعورين» ترمى موضوعيا الى القضاء على النظام البرجوازى . فقد قالوا ان الحرية كلمة فارغة عندما يكون فى وسع طبقة واحدة ان تميت طبقة اخرى بالجوع . ودعوا

الى تصفية الملكية الكبيرة للارض ومنح العائلات الفلاحية من الارض قدر ما تستطيع ان تحرثه بقواها . وطالبوا بتنظيم مشاعة يجب ان يتلقى كل عضو من اعضائها قدر ما يعطيها فقط .

وقد نشب صراع ضار بين الجيرونديين والجبليين . فقد دافع الجيرونديون بشكل سافر عن كبار التجار والمضاربين وعارضوا اقرار حد اقصى لاسعار سلع الاستهلاك الواسع ، والتصقوا اكثر فاكثر بالثورة المضادة . وهذا ما ادى الى قيام الجماهير الشعبية بانتفاضة جديدة (٣١ ايار – مايو – ٢ حزيران – يونيو ١٧٩٣) بقيادة الجبليين و«المسعورين» والى سقوط الجيرونديين . واعتقلت اغلبية زعماء الجيرونديين .

المرحلة الثالثة من الثورة . الديكتاتورية الديموقراطية الثورية (٢ حزيران ١٧٩٣–٢٧ تموز ١٧٩٤)

كانت الاعمال الحازمة التى تقوم بها الجماهير الشعبية تدفع الثورة الى امام بلا انقطاع . وقد افضت تصفية الزعامة الجيروندية الى قيام سلطة الجبليين اليعاقبة ، الى ديكتاتورية اليعاقبة . وكان عنى ذلك دخول الثورة الفرنسية مرحلتها العليا .

وفى صيف ١٧٩٣ ، عانت البلاد مصاعب هائلة . فقد اندمج هجوم جيوش النمسا وبروسيا وانجلترا مع حملات الثورة المضادة . وفى عشر من المحافظات الشمالية الغربية ، انتشرت فتنة معادية للثورة ، وفى كثرة من المدن ساد الارهاب الابيض بشكل وحشى . ومن ظاهراته ، اغتيال مارا غدرا وخساسة . ولم يكن من الممكن انقـــاذ البلاد الا بالديكتاتورية الثورية . واهم هيئـــات هذه الديكتاتورية كانت لجنة السلامة العامة القائمة بوظائف الحكومة ، ولجنة الامن العام والمحكمة الثورية . واستعيض عن البلديات

المنتخبة بلجان ثورية . وعهد بصلاحيـات غير محدودة الى المفوضين ، اى نواب المجلس الوطنى الذين ارسلوا الى مختلف الانحاء فى البلاد . ان اقامة الديكتاتورية الديموقراطية الثورية ، ديكتاتورية الفئة الطليعية من البرجوازية ، المعتمدة على الجماهير الشعبية ، قد ساعدت فى تحقيق تحويلات ديموقراطية جذرية فى البلاد .

ومن اولى التدابير الهامة التى طبقها اليعاقبة اقرار دستور جديد (٢٤ حزيران – يونيو ١٧٩٣) . وقد اصبح هذا الدستور الاوفر ديموقراطية بين جميع الدساتير المتخذة فى البلدان الرأسمالية حتى ايامنا هذه . ومع ذلك احتفظ بجميع سمات الدساتير البرجوازية من حيث الضيق والتناقض . فمن جهة ، نادى «اعلان حقوق الانسان والمواطن» ، الذى صار القسم الاول من الدستور ، ان الخير العام هو غاية المجتمع ، واعلن حرية الفكر والكتابة والاجتماع والايمان وممارسة الشعائر الدينية وتقديم العرائض والحق فى العمل والتعليم ، ونادى بحق الشعب فى القيام بالثورة حقا مقدسا . ومنح جميع الرجال ممن بلغوا الحادية والعشرين من العمر وما فوق الحقوق الانتخابية . ولكن اغلبية موضوعات الدستور ارتدت طابعا شكليا وحسب . فان تطبيقها كان مستحيلا فى ظل النظام البرجوازى . وهذا ما تجلى من الدستور نفسه . فقد تضمن بنودا خاصة تشير الى عصمة وحصانة الملكية الخاصة وتعلنها حقا طبيعيا لكل مواطن . وعلى هذا النحو ، انهار زعم الدستور بشأن المساواة بين المواطنين .

وعندما غدا اليعاقبة القوة القائدة فى المجلس الوطنى ، لجأوا الى التنكيل تنكيلا ثوريا حقا بالاقطاعية الشائخة التى ولى زمنها ، وحلوا مسألة الارض حلا جذريا . وكان أهم اجراء فى تشاريع اليعاقبة الزراعية ، قرار ١٧ تموز (يوليو) ١٧٩٣ بالغاء

جميع الحقوق والمدفوعات الاقطاعية الغاء نهائيا دون اى تعويض . وأحرقت جميع الوثائق الاقطاعية علنا امام الملأ . وقد سجلت تدابير اليعاقبة الزراعية انتقال البلاد بأسرها الى حرية امتلاك الفلاحين للارض .

واستجابة لمطالب «المسعورين» الذين كانوا يفصحون عن مطالب الجماهير الشعبية ، فرض اليعاقبة (فى ٢٩ ايلول – سبتمبر) على جميع بضائع الاستهلاك الواسع الاساسية حدا اقصى من الاسعار لا يجوز بيع اى بضاعة باسعار اعلى منها .

فى تلك المرحلة ، وللمرة الاولى ، ابدى الشعب الفرنسى الثائر عزيمة ثورية لا سابق لها ، وضرب آيات من الابداع الثورى العملاق سواء أفى ميدان السياسة الداخلية ام فى ميادين القتال ، خالقا ستراتيجية جديدة ، وقوات شعبية ثورية جديدة .

وقد اصبح اليعاقبة الثوريون ، بوصفهم القوة القائدة فى الكونفانسيون (المجلس الوطنى) ، واسم زعيمهم روبسبيير نفسه ، موضع كره وحقد ، لا من جانب انصار الملك وحسب ، بل ايضا من جانب القسم الاساسى من البرجوازية الذى كان مستاء للغاية من الدستور الديموقراطى المتخذ عام ١٧٩٣ ، ومن تطبيق الحد الاقصى للاسعار وغير ذلك من التدابير الثورية التى اقرها المجلس الوطنى بقيادة اليعاقبة . وقد عارضت الاوساط البرجوازية الرجعية بجميع الوسائل تطبيق هذه التدابير . وجوابا على هذه المعارضة ، لجأ زعماء اليعاقبة الى الارهاب الثورى . وهكذا جرى اقرار عقوبة واحدة على جميع الجرائم المقترفة ضد الجمهورية هى عقوبة الاعدام . وكان الارهاب الثورى الوسيلة الاكثر جذرية للقضاء على الحكم المطلق والاقطاعية .

واضطر انصار روبسبيير الى النضال ضد حلفائهم السابقين ، دانتون وانصاره الذين انزلقوا الى مواقع معادية للثورة . فقد

وقف انصار دانتون ضد الحد الاقصى من الاسعار ، وضد التدابير الثورية ، ونادوا بحرية التجارة والمضاربة ، وبتوطيد حق الملكية بجميع الوسائل والى اقصى حد . فاعتقلوا وحوكموا امام محكمة ثورية واعدموا بوصفهم اعداء الثورة .

الثورة والكنيسة

خلافا للثورة البرجوازية الانجليزية التى جرت تحت راية دينية ، نشبت الثورة فى فرنسا وتطورت فى اعوام ١٧٨٩-١٧٩٣ باشكال طبقية صرف . ولكن هذا لم يعن ان الكنيسة كانت فى معزل عن المعارك الطبقية . بل بالعكس . فان الكنيسة الكاثوليكية وقفت بحزم وعزم الى جانب القوى الاقطاعية الرجعية ، والهمت كثرة من الاعمال المعادية للثورة ، ومنها ، مثلا ، انتفاضة الفانده . ولهذا سلكت الجماهير الشعبيـــة ، والقسم الثورى الديموقراطى من البرجوازية سبيل النضال الحازم ضد الكنيسة ، ضد الكاثوليكية . وقد جرى هذا النضال بشكل خنق مباشر لاعمال وانتفاضات الاكليروس المعادية للثورة ، وبشكل نضال ضد الكاثوليكية كمذهب فكرى ، كايديولوجية . ولكن محاولة تطبيق دين جديد اسمى «عبادة العقل» تبين ان البرجوازية لم تستطع ان تتخلى عن الدين والكنيسة بوجه عام ، انما حاولت فقط ان تكيفهما وفق مصالحها الطبقية .

تناقض مواقف انصار روبيسبيير . نهاية الديكتاتورية الثورية

بقدر ما كانت تتحقق مهام الثورة البرحوازية ، كان التناقض يتفاقم اكثر فاكثر فى مواقف اليعاقبة الثوريين . ولكى تمضى الثورة قدما ، كان لا بدّ ان يتحول اليعاقبة من ثوريين برجوازيين

الى بروليتاريين ثوريين . ولكن الظروف والشروط الاقتصادية والاجتماعية لقيام ثورة بروليتارية لم تكن متوافرة آنذاك . ولم يكن المجلس الوطنى الذى يهيمن فيه اليعاقبة يتمتع بالسند الضرورى من اجل الثورة البروليتارية بين الجماهير الشعبية الواسعة ، وفى المقام الاول بين العمال وبين الفلاحين الفقراء . ولم تكن الرأسمالية فى فرنسا قد نضجت بعد ، وكان البلد قد انخرط للتو فى طريق الانقلاب الصناعى . ناهيك بان اليعاقبة كانوا يغازلون البرجوازية الكبيرة ، ولم ينادوا بالمساواة فى الملكية ، واثاروا نقمة الفلاحين باجراءات المصادرة الشاملة ، ودعموا القوانين المعادية للعمال ، وشرعوا يقضون على اخصامهم السياسيين من الجناح اليسارى .

وقد طبقت حكومة اليعاقبة جملة من التدابير التى تشجع نشاط التجار والصناعيين : فقد منحتهم الاعانات وشجعت حرية التجارة ، وخففت العقوبات لمخالفة قانون الحد الاقصى للاسعار ، الامر الذى استثار استياء العمال . فبدأت الاضرابات . وقد خنق اليعاقبة هذه الاضرابات . ولم يلغوا القانون الرجعى المعروف بقانون له شابيلية ، وليس هذا وحسب ، بل زادوه بالعكس سوءا على سوء ، اذ خفضوا تعاريف اجور العمال ، وطبقوا على اجورهم قانون الحد الاقصى . فادى ذلك الى استيـــاء «المسعورين» ، اى الجماعة الاوفر ديموقراطية بين جماعات الثورة الفرنسيـــة . آنذاك انهال اليعاقبة على «المسعورين» بأجراءات القمع والتنكيل . كذلك حطم اليعاقبة انصار روبسبيير جماعة ديموقراطية اخرى قريبة من «المسعورين» ، كان يتزعمها هيبير وشوميت . وقد دعا انصارهما (الهيبيريون) الى تطوير الثورة باطراد واستمرار ، ونادوا بالارهـــاب بلا هوادة ضد اعداء الثورة ، وحلموا باقامة النظام الجمهورى فى العالم بأسره .

واكثر فاكثر تحول الارهاب الثورى من جانب انصار روبسبيير الى نضال ضد ممثلى الشعب ، الامر الذى حرمهم بالطبع من مساندة الجماهير الشعبية وسهل الانقلاب المعادى للثورة والقضاء جسديا على روبسبيير ورفاقه فى ٩ ترميدور (٢٧ تموز - يوليو ١٧٩٤) . وقد سجل الانقلاب نهاية ديكتاتورية اليعاقبة ونهاية الثورة البرجوازية الفرنسية الكبرى .

القوى المحركة، الزعامة فى الثورة . نتائج الثورة

تطورت الثورة فى خط صاعد . اما قواها المحركة فكانتها الجماهير الشعبية ، اى الفلاحون التابعون للاقطاعيين ، وفى المقام الاول الفلاحون الفقراء منهم ، والفئات الدنيا فى المدن . ولكن الجماهير الشعبية لم تكن قادرة ، بحكم انعدام تنظيمها وانعدام وعيها ، على ان تصبح قائدة الثورة . فأقدمت البرجوازية التى كانت آنذاك طبقة ثورية واخذت على عاتقها دور الزعامة فى الثورة ، دور القوة المهيمنة فى الثورة . وقد عرفت البرجوازية واستطاعت ان تجر وراءها الجماهير الشعبية وتستخدمها لتحقيق مآربها ومصالحها . ولهذا السبب بالذات ، ادت سياسة البرجوازية ، فى حالات غير نادرة ، خلال مجرى الثورة نفسها ، الى عميق استياء الجماهير الشعبية الواسعة ، والى سعيها لتوسيع وتعميق النضال ضد الاقطاعية .

ان الثورة الفرنسية الكبرى قد قضت على الاقطاعية ومهدت السبيل امام تطور علاقات الانتاج الجديدة ، وهدمت التركيب الاجتماعى القديم للمجتمع ، والغت تنظيمه السياسى . واثر الثورة البرجوازية الانجليزية فى عام ١٦٤٩ ، دشنت الثورة الفرنسية عهدا جديدا فى المجتمع البشرى ، هو عهد توطد

الرأسمالية ونموها وتطورها . وكان ذلك يعنى انها لم تنقض اطلاقا على استثمار الكادحين . انما غيرت فقط شكل هذا الاستثمار .
وقد اوجدت الثورة الشروط والظروف لتطور البروليتاريا الصناعية المدعوة الى ان تصبح حفارة قبر الرأسمالية .

انواع الثورات البرجوازية

كانت الثورة الفرنسية من تلك الثورات البرجوازية التى عمدت فيها الجماهير الشعبية ، ادنى الفئات الاجتماعية التى تكابد نير الاضطهاد والاستثمار ، وهبت من تلقاء ذاتها ، وبصورة مستقلة ، الى النضال والكفاح ، وأثرت تأثيرا كبيرا فى مجرى الثورة . وهذا النوع من الثورات يمكن وصفه بالثورات البرجوازية الديموقراطية . وهى تختلف عن الثورات البرجوازية من فوق اى الثورات التى ليست شعبية (مثلا ، ثورة جماعة تركيا الفتاة) ، بكون الكادحين لا يتقدمون فى هذا النوع الاخير من الثورات بمطالبهم الاقتصادية والسياسية .
وينبغى التمييز بين الثورات البرجوازية الديموقراطية فى مرحلة ما قبل الامبريالية حيث كانت الزعامة فى يد البرجوازية ، وبين الثورات البرجوازية الديموقراطية فى مرحلة الامبريالية . ففى هذه المرحلة تبرز على حلبة التاريخ البروليتاريا الصناعية مع حزبها السياسى الثورى ، وفلسفتها العلمية المتماسكة المتجانسة ، وهذا ما يغير نسبة القوى الطبقية بصورة جذرية . وفى الثورات البرجوازية الديموقراطية فى عهد الامبريالية ، تعود الزعامة الى البروليتاريا التى تضع نصب عينيها ، بالتحالف مع طبقة الفلاحين ، اقامة ديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الديموقراطية الثورية .

الفصل الثالث

توطد الرأسمالية وتطورها

١ - الانقلاب الصناعي

جوهر الانقلاب الصناعي

ادت الثورات البرجوازية فى القــارة الاوروبية الى انهيار الاقطاعية فى عدد من البلدان . وآل نشوء علاقــات الانتــاج الرأسمالية الى تحطيم السلاسل الاقطاعية ؛ وهكذا انفتح السبيل امام تطور علاقات الانتاج الرأسمالية بسرعة . وقد تطورت الصناعة الرأسمالية بسرعة فى البلدان التى جرت فيها أولى الثورات البرجوازية ، وكذلك ، بتأثيرها ، فى البلدان الاخرى التى كانت تنضج فيها العلاقات الرأسمالية . وهذا التطور لم يقتصر على مجرد ازدياد عدد المؤسسات التى تستغل عمل العمال الاجراء ، ولا على مجرد ازدياد حجم الانتاج . فان صفة هذا التطور ونتائجه بالنسبة للمجتمع كانت أهم بكثير . ذلك ان الثورات البرجوازية قد قضت على العقبات والعراقيل امام تطور القوى المنتجة وعجلت كثيرا وتيرة نموها . وفى حاصل الثورات البرجوازية ، جرت ثورة فى التكنيك : فقد تم اختراع الآلة . وبالتالى عنى تطور الصناعة الرأسمالية الاستعاضة عن العمل اليدوى الذى كان سائدا فى المانيفاكتورات الرأسمالية بالعمل الآلى . ان الانتقال من طور الرأسمالية المانيفاكتورى بتكنيكه اليدوى الى الصناعة الآلية يسمى بالانقلاب الصناعى او بالثورة الصناعية .

ويستعمل تعبيرا «الانقلاب» و«الثورة» فى هذه الحال لأن حلول العمل الآلى محل العمل اليدوى أثر تأثيرا كبيرا فى تطور العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التى قررت فى ذلك الزمن ، بدرجة معينة ، مصير الرأسمالية .

الانقلاب الصناعى فى انجلترا

بدأ الانقلاب الصناعى اولا فى انجلترا (فى اواسط القرن الثامن عشر) وجرى بأوضح شكل . وفى القرن التاسع عشر امتد الانقلاب الصناعى وشمل بلدانا رأسمالية أخرى .

ان بداية الانقلاب الصناعى فى انجلترا بالذات لم تكن من باب الصدفة . ففى سياق بضعة قرون ، نشأت هناك المقدمات لتطور الصناعة بسرعة . ذلك ان تصفية حق القنانة باكرا وحرمان الفلاحين من الارض قد افضيا ، من جهة ، الى ظهور جمهور من الايدى العاملة الحرة ، ومن جهة ثانية ، الى تطور الطرائق الرأسمالية فى ادارة الزراعة ؛ وهذان اديا بدورهما الى انمو السوق الداخلية . كذلك قدمت الفتوحات الاستعمارية (الاستيلاء على المستعمرات) لانجلترا اسواقا خارجية مضمونة وأمنت لها مصدرا لتكديس ثروات طائلة . واخيرا قضت الثورة البرجوازية فى القرن السابع عشر على كثرة من رواسب الاقطاعية .

بدأ الانقلاب الصناعى فى ذلك الفرع الانتاجى حيث القيود الحرفية أقل ما يكون تأثيرا ، اى فى فرع النسيج القطنى . ففى انجلترا الاقطاعية ، كما فى اوروبا الاقطاعية على العموم ، لم يكن هذا الفرع موجودا نظرا لعدم وجود الخامات . ولم تحصل انجلترا على القطن الا بعد الاستيلاء على المستعمرات ،

ولا سيما على الهند . وسرعان ما اصبحت المنسوجات القطنية تزاحم بنجاح المنسوجات الصوفية والكتانية ، واكتسبت عددا أكبر من المستهلكين ، وبالتالى سوقا أكثر استقرارا . كل هذا حفز تطور انتاج القطنيات الى حد انه لم يبق فى وسع المانيفاكتوره ان تلبى الطلب المتنامى على الدوام . وكان كل مستحدث يسهم فى زيادة انتاج المنسوجات القطنية ، يجلب ارباحا هائلة .

بدأ اختراع الآلات فى صناعة الغزل . ففى عام ١٧٦٥ ، اخترع المغزل الميكانيكى «جينى» ، وفى عام ١٧٦٧ النول المائى ، وفى عام ١٧٧٩ النول مول (لغزل القطن والصوف) . وقد غيّر نشوء هذه الآلات تكنيك غزل القطن تغييرا جذريا . ومنذ العقد الثامن ، شرعت تظهر مصانع للغزل تضم مئات العمال ، ونحو عام ١٧٨٠ ، كان فى انجلترا ٢٠ فبركة للغزل ، وبعد ١٠ سنوات ١٥٠ فبركة .

وقد ادى تطـور التكنيك الآلى فى صناعة غزل القطن الى تاخر الحياكة . فبدأت المحاولات لصنع آلات للحياكة ؛ وبعد جهود طويلة تكللت هذه المحاولات بالنجاح .

كانت الآلات الاولى تسير بواسطـة الدواليب (العجلات) المائية ، الامر الذى لم يسمح باستعمالها الا فى الانحاء الواقعة على مقربة من الانهر . وأكثر فأكثر ، أخذت تشتد الحاجة الى محرك شامل يمكن استعماله فى اى مكان كان . ومنذ سنوات العقد التاسع ، بدأت صناعة المنسوجات القطنية تستخدم آلة واط البخارية . وهذا ما اتاح زيادة مقادير ومقاييس الانتاج المصنعى زيادة كبيرة وأمن انتشار المصانع فى شتى انحاء البلاد ، ونمو المراكز الصناعية .

وقد استتبع نمو انتاج الآلات زيادة الطلب على المعادن ،

ولكن نقص الفحم الخشبى كان يحد من تطور صناعة التعدين . ولم يبدأ انتاج المعادن يتطور بسرعة الا بعد ان اخترع هنرى كورت فى عام ١٧٨٤ الفرن ـ البودلنغ (الفرن ذو العاكس لتنقية الحديد الصب وتحويله الى حديد) . وهكذا ازداد انتاج الحديد فى انجلترا ١٠٠ بالمئة من عام ١٧٨٥ الى عام ١٧٩٧ . كذلك أسهم استعمال الكوك عند تذويب الحديد الصب ، بدلا من الفحم الخشبى ، فى نمو استخراج الفحم الحجرى . ففى مائة سنة ، ازداد استخراج الفحم الحجرى الى ٤ مرات ، وبلغ فى اواخر القرن زهاء ١٠ ملايين طن .

ان استعمال الآلات ، الذى بدأ فى صناعة غزل القطن ، قد انتشر فيما بعد وشمل فروعا اخرى وأدى الى نشوء جملة كاملة من الفروع المتقاربة ولا سيما الصناعة الثقيلة . وقد تكلل تطور الصناعة الثقيلة بظهور صناعة الانشاءات الميكانيكية (او صناعة الآلات) . فى البدء ، كانوا يصنعون الآلات فى المانيفاكتورات بالطريقة اليدوية . فكانت غالية جدا ، وكان انتاجها يتأخر عن طلب الصناعة المتنامى . ولم يصبح من الممكن تعجيل انتاج الآلات وترخيصه الا بعد ما ظهرت صناعة الانساءات الميكانيكية كفرع صناعى مستقل ، متميز . وقد نما انتاج الآلات بدرجة من السرعة بحيث ان البرلمان سمح فى عام ١٨٢٤ بتصدير الآلات من انجلترا .

وفى عام ١٨٢٥ ، بنيت فى انجلترا اول سكة حديدية ، وفى عام ١٨٣٠ افتتح خط حديدى مباشر بين مانشستر وليفربول ، ونحو منتصف القرن التاسع عشر ، بلغ طول شبكة السكك الحديدية فى انجلترا ١٠ آلاف كيلومتر .

فى سنوات العقد الخامس من القرن التاسع عشر ، ازاحت الصناعة الآلية نهائيا الانتاج اليدوى . وكانت تلك سنوات انجاز

الانقلاب الصناعى . فشغلت انجلترا بكل رسوخ المرتبة الاولى بوصفها بلدا صناعيا ، وأصبحت «مشغل العالم» . ففى عام ١٨٣٩ ، استخرجت انجلترا من الفحم ما يوازى اربعة امثال ما استخرجته فرنسا وبلجيكا وبروسيا معا . ومن عام ١٨٢٦ حتى عام ١٨٤٦ ، ازدادت صادرات انجلترا من الحديد والحديد الصب الى ٧,٥ مرات .

خصائص الانقلاب الصناعى فى البلدان الاخرى

فى فرنسا ، كانت الثورة الفرنسية الكبرى هى التى دفعت وحركت الانقلاب الصناعى . وقد بدأ الانقلاب الصناعى فى فرنسا فى اواخر القرن الثامن عشر وتطور فى كامل النصف الاول من القرن التاسع عشر . وقد بدأ ، كما فى انجلترا ، فى فرع جديد ، هو غزل القطن . ففى عام ١٨٠٥ ، اخترعت آلات جاكار ؛ وفى عام ١٨١٢ ، كان فى فرنسا أكثر من ٢٠٠ فبركة ميكانيكية للغزل . وفى سنوات العقد الثالث من القرن التاسع عشر ، ظهرت فى فرنسا صناعة وطنية للانشاءات الميكانيكية ، وفى سنوات العقد الرابع بدأ بناء السكك الحديدية .

وقد تميز الانقلاب الصناعى فى فرنسا بعدم انتظام تطور الصناعة وتوزعها . ولم تظهر المؤسسات الكبيرة الا فى صناعة المنسوجات القطنية وصناعة التعدين . وقد انما هذان الفرعان فى اطراف البلاد ، واساسا فى الشمال وفى الشرق . وحتى فى منتصف القرن التاسع عشر ، كانت تهيمن فى باريس فروع صناعية كفروع انتاج الالبسة وسلع الترفيه والبذخ ، وفى هذه الفروع كانت تسود على العموم مؤسسات صغيرة ومتوسطة يتراوح عدد العمال فيها بين عاملين و ١٠ عمال . وفى صناعة

حياكة الحرير ، المركزة فى منطقة ليون ، أخذت تتطور اساسا المانيفاكتورات المبعثرة ، القائمة فى أكثر الاحيان فى القرى حيث كان الفلاحون يشتغلون فى بيوتهم .

وبالاجمال ، بدأ الانقلاب الصناعى فى فرنسا بعده فى انجلترا ، وسار بوتائر ابطأ . وسبب ذلك ، سيطرة انجلترا على السوق العالمية للسلع الصناعية . ناهيك بان فيض الاستثمارات الفلاحية الصغيرة كان يصعّب تطور الصناعة الكبيرة المحتاجة الى الايدى العاملة .

اما فى المانيا فان تطور الانقلاب الصناعى قد تأخر اكثر مما فى انجلترا وفرنسا ، بسبب من رواسب الاقطاعية وكذلك بسبب من انقسام البلاد سياسيا الى دويلات ووجود حدود جمركية داخلية . وقد بدأ الانقلاب الصناعى فى ألمانيا فى سنوات العقد الخامس ، اساسا ، من القرن التاسع عشر . رغم انه كان هناك فى ذلك الوقت منطقتان صناعيتان هما منطقة الرين ـ ويستفاليا بصناعتها التعدينية والفحمية ، ومنطقة ساكسونيا ـ سيليزيـا بصناعة النسيج . ومما يسر تطور الصناعة فى منطقة الرين ـ ويستفاليـا ، تصفية النظم الاقطاعية اثناء السيطرة الفرنسية وكذلك الموارد الطبيعيـة الغنية (الفحم وفلـز الحديد) . وفى ساكسونيا وسيليزيا ، كانت المانيفاكتورات هى التى تمثل ، اساسا ، صناعة النسيج . ونحو سنوات العقد الخامس من القرن التاسع عشر ، كانت المانيا ايضا بمجملها تتميز بهيمنة الانتاج المانيفاكتورى . ولم يتطور الانقلاب الصناعى فى المانيا على نطاق واسع الا فى سنوات العقدين السادس والسابع . فان البرجوازية الالمانية التى كانت قد منيت بالهزيمة فى الميدان السياسى ابان ثورة ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩ ، قد حاولت فى تلك الحقبة ان تستولى على مواقع السيطرة فى مضمار الاقتصاد .

ان بدء الانقلاب الصناعى فى المانيا بعد بدئه فى انجلترا وفرنسا قد أدى الى كون الصناعة الالمانية قد استغلت آخر منجزات العلم والتكنيك ، واصبحت أكبر من الصناعة فى بلدان «الرأسمالية القديمة» وأحسن تجهيزا .

وفى الولايات المتحدة الاميركية ، بدأ الانقلاب الصناعى فى اواخر القرن الثامن عشر ، بعد الحرب فى سبيل الاستقلال ، واتسم بجملة من الخصائص التى تفسر تميز تطور هذه الدولة . اولا ، لم يجر الانقلاب الصناعى فى عموم اراضى الولايات المتحدة الاميركية ، بل جرى فى الولايات الشمالية الشرقية فقط ، اى فى أكثر اقسام البلاد سكانا . اما فى الجنوب وفى الجنوب الشرقى ، فكان نظام المزارع الكبيرة ونظام الرق هما السائدين ، وفى الغرب كان يستمر استعمار الاراضى الجديدة . وبالاجمال ، تطور الانقلاب الصناعى فى الولايات المتحدة الاميركية بصورة ابطأ مما فى انجلترا ، الامر الذى تفسره ، فيما يفسره ، المزاحمة الانجليزية .

فى عام ١٨٠٠ ، كان فى الولايات المتحدة الاميركية ٢٠ الف مغزل ، و٨٧ الفا فى عام ١٨١٠ ، و ١٣٠ الفا فى عام ١٨١٥ . وفى عام ١٨١٤ ، ظهرت للمرة الاولى فى البلاد آلة ميكانيكية للحياكة . وفى سنوات العقد الرابع ، كانت الولايات المتحدة الاميركية تاتى مباشرة بعد انجلترا وفرنسا فيما يتعلق بعدد المغازل ومقادير استهلاك القطن . اما فى الفروع الاخرى ، فان استخدام الآلات وتطبيق طرائق الانتاج الجديدة قد تحققا فيها ببطء . ولم يبدأ استعمال الفحم الحجرى فى صناعة التعدين الا فى سنوات العقد الرابع من القرن التاسع عشر ، ولم يشغل المحرك البخارى مركز السيادة فى الصناعة الا فى سنوات العقد السادس ، ولم تشرع صناعة الانشاءات الميكانيكية فى تطورها الا منذ اواخر العقد الخامس .

زمنـــا طويلا ، اعاقت المزاحمة البَريطانية تطور صناعة الانشاءات الميكانيكية – أساس الانقلاب الصناعى – فى الولايات المتحدة الاميركية (مثلا ، كان ثمن آلة حلج القطن الانجليزية فى الولايات المتحدة الاميركيـــة أقل بـ ٥٠ مرة من آلة حلج القطن الاميركية الصنع) . ولكن نقص الايدى العاملة كان ، من جهة اخرى ، يحفز على الدوام اختراع وصنع الآلات الجديدة .

نتائج الانقلاب الصناعى الاجتماعية

كانت الآلة الاساس المادى التكنيكى للانقلاب الصناعى . ولكن الانقلاب الصناعى لا يقتصر على الخطوات التكنيكية التقدمية فى الصناعة ، رغم ان هذه الخطوات التكنيكية غير قليلة الشأن ، لأنها تفضى الى نمو انتاجية العمل والى انخفاض نفقات الانتاج . وقد استتبع الانقلاب الصناعى تغيرات كبيرة فى العلاقات الاجتماعية . فان ظهور جماهير العمال الصناعيين ، وسرعة تشكل البروليتاريا كطبقة ، وزوال فئة الفلاحين (فى انجلترا) او انخفاض عددهم (فى بلدان اخرى) ، كل هذا كان نتيجة مباشرة للانتقال الى الانتاج الآلى .

ان تطور اسلوب الانتاج الرأسمالى قد رافقه تشديد استثمار الشغيلة . فقد تحول العامل الى ذيل للآلة . وادى تبسيط عمليات الانتاج واستخدام الآلة الى التقليل من اهمية العمل الكفوء ؛ وأصبح عمل النساء والاطفال الرخيص موضع استغلال على نطاق واسع ، الامر الذى أدى الى انخفاض الاجور وازدياد البطالة . وفى مستهل القرن التاسع عشر ، كان الرجال ممن تجاوزوا الثامنة عشرة من العمر يشكلون ٢٧ بالمئة فقط من عمال المصانع والفبارك .

ان ظهور البروليتاريا الصناعية هو أهم عاقبة من عواقب الانقلاب الصناعى الاجتماعية . فان العمل المشترك فى المؤسسات الكبيرة قد يسّر تنظيم العمال ورص صفوفهم ، وظهور التضامن الطبقى ، ناهيك بان البروليتاريا غدت ، بحكم ظروف حياتها الاجتماعية ، الطبقية الاكثر ثورية . ان البرجوازية ، بانشائها الصناعة الكبيرة ، قد خلقت بالتالى القوة الثورية المدعوة الى القضاء على المجتمع البرجوازى نفسه .

كذلك أفضى الانقلاب الصناعى الى تغير نسبة القوى داخل الطبقة البرجوازية نفسها . فبدلا عن البرجوازية التجارية ، شغلت البرجوازية الصناعية المرتبة الاولى .

التصنيع الراسمالى

كان انشاء الصناعة الكبيرة ، اى التصنيع هو مضمون الانقلاب الصناعى . وكان الهدف من التصنيع بناء قاعدة تكنيكية تتناسب وعلاقات الانتاج فى ظل الرأسمالية . ولكن التصنيع الرأسمالى ، بوصفه قسما من الانتاج الرأسمالى ، خضع لقانون الرأسمالية الاقتصادى الاساسى ، اى لقانون الحصول على القيمة الزائدة . ولهذا بدأ الانقلاب الصناعى فى البلدان الرأسمالية من الصناعة الخفيفة حيث يمكن الحصول على الربح بمزيد من السرعة نظرا لدوران الرأسمال بمزيد من السرعة ، ولم تتحول الرساميل الى الصناعة الثقيلة الا بقدر ما كانت تتراكم .

ان تصنيع البلدان الرأسمالية قد تحقق فى المقام الاول عن طريق نهب المستعمرات . وهذا ما يميز انجلترا وفرنسا على الاخص . وكانت القروض الأجنبية وسيلة أخرى لبناء الصناعة . واخيرا ، تحقق التصنيع جزئيا ، فى جملة من الحالات ، على حساب

البلد المغلوب فى الحرب . فان المانيا ، مثلا ، قد استغلت الغرامة التى تقاضتها من فرنسا بعد الحرب الفرنسية البروسية ، لأجل بناء صناعة كبيرة .

ولكن بناء الصناعة الكبيرة فى البلدان الرأسمالية يتحقق كذلك فى جميع الاحوال بنهب شغيلة البلد المعنى واشاعة الخراب فى صفوفهم عن طريق زيادة عبء الضرائب ، وحرمان الفلاحين من الارض ، وتشديد استثمار العمال ، الخ ..

٢ ـ سبيلا تطور الراسمالية فى الزراعة

بعد الثورة البرجوازية ، تطورت الرأسمالية فى الصناعة بقوة لا مردّ لها، وحطمت فى طريقها جميع العقبات الاقطاعية ، وزادت القوى المنتجة مرارا عديدة .

كذلك تطورت الرأسمالية فى الزراعة ، ولكن تطورهـا فى الزراعة كان مرتبطا الى حد كبير بوجود او عدم وجود بقايا العلاقات الاقطاعية . ويبين تاريخ البلدان الرأسمالية الراقية ان هناك سبيلين لتطور الرأسمالية فى الزراعة . فمن جهة ، الاستثمارات الفلاحية التى تتحول تدريجيا إلى مزارع رأسمالية تكون اساس الانتاج الرأسمالى ؛ ومن جهة ثانية ، الاستثمارات الاقطاعية التى تحتفظ بقوتها ونفوذها فى الريف ، تنتقل تدريجيا من اشكال استثمار الفلاحين الاقطاعية الى اشكال الاستثمار الرأسمالية .

السبيل المزرعى لتطور الراسمالية

السبيل الاول (السبيل المزرعى او سبيل المزارع) مرتبط بالثورة فى العلاقات الزراعية ، بانتقال جميع الاراضى او القسم الاكبر منها الى الفلاحين . وفى هذه الحال ، يجرى تطور الرأسمالية

وتطور القوى المنتجة فى الزراعة بوتائر أسرع . ان هذا السبيل لتطور الرأسمالية فى الزراعة قد تميزت به ، مثلا ، فرنسا والولايات المتحدة الاميركية ، مع كل تنوع ظاهراته التاريخية الملموسة فى كل من هذين البلدين . فان الثورة الفرنسية الكبرى قد صفّت الملكية الاقطاعية الكبرى للارض فى فرنسا واعطت الفلاحين الارض . وفيما بعد سار تطور الزراعة الرأسمالى فى خط تمايز الفلاحين وبروز الفلاحين الاغنياء وتحولهم الى مزارعين رأسماليين كبار من جهة ، وفى خط تجزؤ اراضى الفلاحين الفقراء من جهة أخرى .

وفى الولايات المتحدة الاميركية ، اتصف تطور الرأسمالية فى الزراعة بمزيد من التنوع . ففى جنوب البلاد ، كان نظام المزارع الكبيرة ونظام الرق ؛ وفى المناطق الاخرى ، تطورت الزراعة فى السبيل الرأسمالى الذى يرتكز على المزارع التى تستخدم العمل الماجور وكمية كبيرة من الاعتدة الزراعية . ثم ان المناطق الشمالية الغربية المستعمرة حديثا فى الولايات المتحدة الاميركية لم تعرف لا عناصر الاقطاعية ولا عناصر الرق الذى كان ممنوعا فيها منذ عام ١٧٨٧ . ومنذ البدء بالذات ، يسّر فيض الاراضى الحرة ونقص الايدى العاملة تطور المزارع التى اصبحت الشكل السائد للاقتصاد الزراعى فى هذه المناطق .

وقد توطد تطور الزراعة فى الولايـات المتحدة الاميركية بسبيل المزارع ورسخ نتيجة للحرب الاهلية التى استمرت من عام ١٨٦١ الى عام ١٨٦٥ . ففى عام ١٨٦٢ ، توصلت حكومة لينكولن الى اصدار قانون «هومستيد» الذى كان يطالب المزارعون وجميع الشغيلة باصداره من زمان . وبموجب هذا القانون ، أصبح من حق كل شخص ان يحصل من صندوق الدولة مجانا تقريبا على قطعة من الارض مساحتها ١٦٠ اكرا (زهاء ٦٤ هكتارا) . ومن جرّاء ذلك ، ارتفع عدد المزارع بسرعة . ثم ان تحرير

الزنوج الارقاء ، الذى اعلنه لينكولن ايضا فى عام ١٨٦٢ ، قد قوض اساس نظام المزارع الكبيرة القائمة على استغلال عمل الارقاء وقلل نفوذ كبار المزارعين ، اصحاب هذا النوع من المزارع ، فى حياة الولايات المتحدة الامير كية ، الاقتصادية منها والسياسية .

السبيل الاقطاعى لتطور الراسمالية

كان السبيل الثانى لتطور الرأسمالية فى الزراعة أكثر بطئا وأشد عذابا للفلاحين . ففى هذه الحال ، يظل الاقطاعيون ، كما فى السابق ، القوة السائدة فى الريف ، وعلى العموم فى البلاد بمجملها ، ويكون القسم الاكبر من الارض فى أيديهم ، ويتحول الفلاحون من اقنان الى اجراء زراعيين او الى مستأجرين . الا قسم ضئيل من الاستثمارات الفلاحية الغنية تسلك سبيل الاستثمار الرأسمالى وتلجـأ الى العمل المأجور . ان هذا السبيل لتطور الراسمالية فى الزراعة مرتبط بوجود الانظمة السياسية الرجعية ، بوجود اشكال سيطرة الطبقة الاقطاعية . وقد كانت المانيا ، ولا سيما بروسيا ، وكذلك روسيا القيصرية أبرز نماذج هذا السبيل لتطور الرأسمالية فى الزراعة .

ان المسالة الزراعية لم تحل بالسبيل الثورى لا فى المانيا ولا فى روسيا (قبل عام ١٩١٧) . ولهذا لم يكن تطور العلاقات البرجوازية فى زراعة هذين البلدين نتيجة لدك الاقطاعية بالسبيل الثورى ، بل حاصلا لتحول اشكال الاستثمار الاقطاعية الى اشكال استثمار رأسمالية تحولا بطيئا حافلا بالعذابات بالنسبة للفلاحين . ففى بروسيا الغى حق القنانة فى عام ١٨٠٦ ، ولكن الاتاوات الاقطاعية ظلت قائمة فعلا حتى منتصف القرن التاسع عشر . وفى عام ١٨٥٠ فقط اتخذ قانون بالتعويض عن الاتاوات الاقطاعية

دفع بموجبه الفلاحون مليار مارك للاقطاعيين . ان هذه الاموال الطائلة التي حصل عليها الاقطاعيون من الفلاحين قد عجلت تحول الاملاك الاقطاعية الى استثمارات رأسمالية وافضت فى الوقت نفسه الى خراب عدد كبير من الاستثمارات الفلاحية . كذلك ظهرت اللوحة نفسها فى روسيا بعد «تحرير» الفلاحين فى عام ١٨٦١.

ان السبيل الاقطاعى لتطور الرأسمالية فى الزراعة يعنى بقاء رواسب الاقطاعية سواء أفى الاقتصاد ام فى نظام الدولة السياسى . ان تصفية هذه الرواسب تصبح مهمة من مهام الحركة الثورية .

الفصل الرابع

تطور الرأسمالية فى الولايات المتحدة الاميركية

١ ـ حرب المستعمرات الاميركية الشمالية فى سبيل الاستقلال

التطور الاقتصادى فى اميركا الشمالية فى مرحلة الاستعمار

فى الولايات المتحدة الاميركية ، نشأت الرأسمالية وتكونت فى ظروف نظام الحكم الاستعمارى . فان نظام الحكم الاستعمارى قد ختم بخاتمه شكل ولادة الرأسمالية فى الولايات المتحدة الاميركية . وقد تطورت الرأسمالية فى هذا البلد بشكل اشد وقاحة وصفاقة مما فى البلدان الاخرى .

فى القرن السادس عشر ، كان الهنود الحمر يسكنون فى اراضى الولايات المتحدة الاميركية الحالية وكان عددهم زهاء مليونى نسمة . وكانت قبائل الايروكوا والامونكين البالغ عدد افرادها قرابة ٢٠٠ الف ، اكبر مجموعات القبائل . وكان الهنود الحمر فى مختلف درجات النظام المشاعى البدائى .

قامت انجلترا واسبانيا وفرنسا وهولنده باستعمار اميركا الشمالية . وقد تعلم المستعمرون المستوطنون اشياء كثيرة من الهنود الحمر ، واستوعبوا تربية الذرة الصفراء والبندوره والتبغ والنيل وغيرها من النباتات ؛ واخذوا عنهم اساليب الصيد ، وتاكتيك القتال باسلوب الصفوف المتفرقة ، واستغلوا هذا الاسلوب فى النضال من اجل تحرير المستعمرات .

وجلب المستعمرون للهنود الحمر الموت والدمار . ولم تكن

ثمة جريمة لم يقترفها المستعمرون من اجل اخضاع الهنود الحمر وابادتهم . فان الجمعية التشريعية فى انجلترا الجديدة ، مثلا ، قد اصدرت فى عام ١٧٠٣ قانونا بدفع «مكافأة» قدرها ٤٠ جنيها سترلينيا عن كل «سكالب» (قطعة من جلد الرأس مسلوخة مع الشعر) هندى احمر ، عن كل اسير هندى احمر ؛ وفى عام ١٧٧٤ ، زيد مقدار «المكافأة» : عن كل «سكالب» رجل في الثانية عشرة من العمر وما فوق ١٠٠ جنيه سترلينى ، عن كل رجل اسير ١٠٥ جنيهات سترلينية ، عن كل امرأة اسيرة او طفل ٥٥ جنيها سترلينيا .

ومن جرّاء التبادل غير المتكافئ بين المستعمرين الاوروبيين والهنود الحمر ، تكوّنت رساميل اميركية ضخمة . وكان المستعمرون الاوروبيون يشترون من الهنود الحمر الفراء الثمينة باسعار زهيدة للغاية .

ورغم مقاومة الهنود الحمر الباسلة ، استطاع الاوروبيون ان يستولوا على اميركا الشمالية بفضل تفوقهم الكبير فى السلاح ، وباستغلالهم انعدام الوحدة بين القبائل الهندية . وقد رافقت عملية الاستعمار حروب طويلة ضارية كانت تنتهى على العموم بزحزحة واقصاء الهنود الحمر نحو الغرب ، وابادتهم ، والاستيلاء على اراضيهم وممتلكاتهم .

فى مستهل القرن الثامن عشر ، افتتح الروس آلاسكا وبدأوا استصلاحها . وفى مستهل القرن التاسع عشر ظهر فى كاليفورنيا اوائل السكان الروس . ونحو سنوات العقد السابع من القرن الثامن عشر ، كانت انجلترا قد استولت على اراضى اميركا الشمالية جميعها تقريبا وانشأت فيها ١٣ مستعمرة انجليزية . ومن حيث طابع الاقتصاد والعلاقات الاجتماعية ، كانت مستعمرات انجلترا فى اميركا الشمالية تنقسم الى ثلاث فئات .

في المستعمرات الشمالية المسمـــاة باسم انجلترا الجديدة (رود-ايلند ، كونيكتيكوت ، نيوهمبشير ، ماساتشوسيتس) ، كانت المزارع هي السائدة في الزراعة . وكان السواد الاعظم من السكان يتألف من الفلاحين المزارعين ، اي من صغار مالكي الارض . وفي المدن تطورت بسرعة الصناعة المانيفاكتورية (صناعات الجلود والصوف والكتان) ، وتطور انتاج الحديد ، وانتاج الادوات الزراعية والاسلحة ، وتطور انتاج البيوت الخشبية المركبة ، وفي المناطق الساحلية ، تطور صيد السمك وبناء السفن . اما المزارعون الذين كانوا لا يملكون ارضا ، فقد اندفعوا نحو الغرب .

في المستعمرات الجنوبية (كارولينـــا الشمالية والجنوبية ، جورجيا ، ميريلند ، فرجينيا) ، تطور اقتصاد المزارع الكبيرة لانتاج التبغ والذرة الصفراء والرز والنيل وقصب السكر ، وفيما بعد ، القطن . وفي هذه المزارع الكبيرة كان يشتغل الزنوج الارقاء مكابدين استثمارا وحشيا . وقد اخفقت محاولات المستعمرين تحويل الهنود الحمر الى عبيد ارقاء واستغلالهم كقوة عمل . فقد كان الهنود الحمر الاسرى يهربون ، وكانوا في حالات كثيرة ينتحرون .

في المستعمـــرات الاطلسية المتوسطة ، او المركزيـــــة (نيو جرسي ، بنسيلفانيا ، نيويورك ، ديلافير) ، كان نظام المزارع الحرة هو السائد في الزراعة . وفضلا عن الاستثمارات الصغيرة ، كانت ثمة عقارات كبيرة يؤجر اصحابها الارض للمزارعين . وكانت هذه المنطقة منطقة لزراعة الحبوب . وفيها تطورت مانيفاكتورات الحديد والفولاذ وصناعة البيره .

وفي المستعمرات المركزية ، تطور استرقاق البيض «الملزمين بالخدمة موقتا» (من ٤ الى ٧ سنوات) تطورا واسعا . وكان جيش هؤلاء الارقاء يكتمل ويتزايد بالمهاجرين من اوروبا ،

وبالمحكومين لاسباب سياسية او لجرائم جنائية ، وبالفقراء الذين يسترقونهم لعدم تسديد ديونهم . وكانت معاملة الارقاء البيض معاملة همجية . كانوا يضربونهم ويجلدونهم ويجبرونهم على العمل مقيدين بالسلاسل ، ويرشون الملح على جراحهم ، ويختمون اجسامهم بالحديد المحمي . وكانت تنشب الاضطرابات بين الخدم الاجباريين ولكن وضعهم كان بالنسبة لوضع الارقاء الزنوج اكثر احتمالا . فقد كان الرقيق الابيض يصبح حرا طليقا بعد عمله مدة معينة لسيده ورب عمله . اما عبودية الزنوج ، فقد كانت دائمة لا نهاية لها . كان الخادم الاجبارى لا يعانى من الكره والحقد الخاصين الناجمين عن العنصرية .

مقدمات الثورة الاميركية البرجوازية ١٧٧٥-١٧٨٣

افضى نمو المستعمرات الاقتصادى الى تأزم التناقضات بينها وبين انجلترا . فان انجلترا ، سعيا منها الى الاحتفاظ بالمستعمرات الاميركية الشمالية مصدرا للخامات وسوقا لتصريف البضائع الصناعية ، فرضت جملة كاملة من القيود التي تحد من تطور الصناعة والتجارة فى المستعمرات . ففى عام ١٧٥٦ ، اقر البرلمان الانجليزى قانونا يمنع المستعمرات الاميركية الشمالية من بناء الافران العالية والمصافيح ومصانع الحديد والفولاذ ، ويمنع انتاج المصنوعات من الحديد ايا كانت وصنع القبعات اللبادية والاقمشة ، وتكييف الجلود والفراء . وبموجب «قانون الملاحة» ، لم يكن فى وسع المستعمرات الاميركية الشمالية ان تبيع بضائعها وتشتري السلع الصناعية الا فى انجلترا ، ولم يكن فى وسعها ان تنقلها الا على البواخر الانجليزية . وكانت هذه السلع الصناعية تباع باسعار فاحشة .

وفى عام ١٧٦٣ ، اصدر ملك انجلترا اعلانا بشأن نظام ادارة الاراضى المكتسبة حديثا ، منع بموجبه المستعمرون المستوطنون من اشغال قطع من الارض ما وراء سلسلة جبال أللغانى ، واعلن الاراضى الواقعة غربى جبال أللغانى والممتدة حتى نهر ميسيسيبى ملك التاج البريطانى . وكانت الاريستقراطية الانجليزية والبرجوازية الانجليزية تطمعان بالاراضى الحرة فى غربى جبال أللغانى . وقبل الاعلان الملكى ، كان يمضى الى هذه المنطقة الارقاء البيض ممن نالوا الحرية والمزارعون الذين حل بهم الخراب . وبهذه الاراضى طمع كذلك كبار المزارعين ، وقد استنفدوا تربة اراضيهم باتباع طرائق وحشية ضارية فى ادارة استثماراتهم .

وقد ازدادت التناقضات بين انجلترا والمستعمرات الاميركية الشمالية تأزما بعد محاولات الحكومة الانجليزية القاء قسم كبير من ديون الدولة على عاتق المستعمرات . وقبل عام ١٧٦٥ لم يكن سكان المستعمرات مكلفين باى ضريبة فى صالح انجلترا . وفى عام ١٧٦٥ اصدر البرلمان الانجليزى قانونا بفرض التمغة على الدعاوى امام المحاكم وعلى الصفقات التجارية فى المستعمرات الاميركية الشمالية . وبموجب قانون التمغة ، شملت الضريبة كل نوع من الوثائق والكراريس والجرائد والاعلانات وجميع الصفقات التجارية وجميع الدعاوى امام المحاكم . وفى العام نفسه ، اصدر البرلمان الانجليزى ما يسمى «قانون الاسكان» الذى خول انجلترا الحق فى ارسال عدد غير محدود من العساكر الى المستعمرات الاميركية الشمالية واسكانها عند الاهلين .

وقد استثارت جميع هذه الاجراءات شديد الاستياء فى المستعمرات . ففى بوسطن ونيويورك وبعض المدن الاخرى

انشئت منظمات سياسية سرية اسميت باسم «ابناء الحرية» . وفى هذه المنظمات التى كان يرأسها اوفر ممثلى البرجوازية استقامة ، إسهم العمال والحرفيون والمزارعون وصيادو السمك والتجار والقسم الثورى من البرجوازية بقسط نشيط .

وفى عـــام ١٧٦٥ ، انعقد فى نيويورك مؤتمـر ممثلى المستعمرات الاميركية الشمالية الـ ١٣ ، واعلن ان سكان المستعمرات لا يمكنهم ان يخضعوا للضريبة او للتمغة الا بموافقتهم او بموافقة ممثليهم . واتخذ المؤتمر قرارا بمقاطعة البضائع الانجليزية . وقد الحقت المقاطعة خسارة جسيمة بالبرجوازية الانجليزية ، حتى ان التجار تقدموا من الحكومة بطلب الغاء قانون التمغة . وفى عام ١٧٦٦ ، ألغيت التمغة تحت تأثير طلب التجار الانجليز والحركة الشعبية القوية فى المستعمرات الاميركية الشمالية ، وبعد احتجاج ممثل المستعمرات الاميركية الشمالية فى انجلترا بنيامين فرانكلين .

ولكن البرلمان الانجليزى اقـــر فى السنة التالية قانونـــا بزيادة الرسوم الجمركية على البضائع الانجليزية المرسلة الى المستعمرات : الورق والشاى والزجاج والمصنوعات الزجاجية والاصبغة . وجوابا على ذلك ، اشتدت فى المستعمرات الاميركية الشمالية حركة مقاطعة البضائع الانجليزية وحركة تطوير الصناعة فى هذه المستعمرات .

ورغبة فى تخفيف الاستيــــاء فى المستعمرات ، الغت حكومة انجلترا جميع الضرائب على البضائع باستثناء الرسوم على الشاى . فامتنع سكان المستعمرات آنذاك عن استهلاك الشاى . وفى عام ١٧٧٣ تسربت فرق من المستعمرين المستوطنين الاميركيين بلباس الهنود الحمر الى سفن شركة اوست انديان كومبانى كانت راسية فى مرفأ بوسطن وعلى متنها شحنة من الشاى ،

ورموا كل الشحنة الى البحر (وهذا ما يسمى بحادثة «شاى بوسطن») .

ردت الحكومة الانجليزية على هذا باعمال القمع والتنكيل . فانشأ المستعمرون المستوطنون فى ماساتشوسيتس لجنة ثورية . وبناء على اقتراح اللجنة ، انعقد فى ٥ ايلول (سبتمبر) ١٧٧٤ مؤتمر قارى فى فيلادلفيا . وقد اشترك فى المؤتمر ٥٥ مندوبا من ١٢ مستعمرة (فان حاكم جورجيا قد حال دون سفر مندوبى جورجيا) . أقر المؤتمر عريضة الى الملك طلب فيها منه عدم فرض ضريبة على المستعمرات دون موافقة ممثليها ، والغاء القيود على التجارة والصناعة ، ووقف اعمال التنكيل . وأقر المؤتمر «اعلان الحقوق» الذى كان يتضمن احتجاجا على عنف السلطات الانجليزية وتعسفها . واتخذ المؤتمر قرارا بمقاطعة التجارة مع انجلترا .

فاعلن الملك الانجليزى جورج الثالث ان المستعمرات قد عصت وتمردت . وصدر امر للاسطول بفرض الحصار على المستعمرات فى اميركا الشمالية .

الحرب الثورية فى سبيل الاستقلال (١٧٧٥-١٧٨٣)

فى عام ١٧٧٥ بدأت حرب الشعب الاميركى الثورية التحريرية فى سبيل استقلاله .

فى ١٠ ايار (مايو) ١٧٧٥ ، انعقد المؤتمر القارى الثانى فى فيلادلفيا . واعلن حالة الحرب مع انجلترا واتخذ قرارا بتنظيم جيش . وعين جورج واشنطن قائدا اعلى . وفى مرحلة ١٧٧٥-١٧٨١ ، قام المؤتمر القارى كذلك بوظائف الحكومة المركزية .

وفى ٤ تموز (يوليو) ١٧٧٦ ، اقر المؤتمر القـــارى «اعلان الاستقلال» الذى دبجه جفرسون . وكانت تلك وثيقة تقدمية بالنسبة لذلك الزمن . فقد نادى الاعلان بفصل المستعمرات عن انجلترا وبتشكيلها دولة مستقلة هى دولة الولايات المتحدة الاميركية . ولكن مسالة تصفية الرق لم تطرح اطلاقا . وبقيت عبودية الزنوج .

ونادى الاعلان بمساواة الجميع امام القانون ، وسيادة الشعب ، وحق الشعب فى الثورة على الحكومة التى تنتهك حقوقه . واشار الاعلان الى انه يحق للشعب ان يقضى على الشكل القديم للحكم وينشئ حكومة جديدة .

فى السنوات الاولى من الحرب ، حالف التوفيق انجلترا ، ولكن القوات الانجليزية فى اميركا الشمالية منيت بالهزيمة فى المرحلة الاخيرة من الحرب . وقد استغلت الولايات المتحدة الاميركية التناقضات الحادة بين انجلترا والدول الاوروبية . وفى عام ١٧٨٣ ، تم التوقيع فى فرساى (فرنسا) ، على معاهدة للصلح اعترفت بموجبها انجلترا باستقلال الولايات المتحدة الاميركية وأحالت لها الاراضى الواقعة بين سلسلة جبال أللغانى ونهر ميسيسيبى .

لقد كانت الحـرب فى سبيل الاستقلال ثورة برجوازيـــة . وفى احراز النصر اضطلعت بالدور الاساسى الجماهير الشعبية اى العمال والمزارعون والبرجوازية الصغيرة فى المدن ، و «الخدم الملزمون» (الاجباريون) والزنوج الارقاء . وكانت البرجوازية قائدة الثورة . وكانت الثورة موجهة ضد العلاقات الاقطاعية التى غرسها المستعمرون الانجليز .

وقد اضطلع الزنوج بدور هام فى حرب الاستقلال . فابان الحرب التحريرية ، فرّ نحـو ١٠٠ الف زنجى من المزارعين

مالكى العبيد . وبحماسة واندفاع قابلت اغلبية الزنوج الكبيرة الحرب التحريرية الثورية . وكان الزنوج يأملون ان تحطم الحرب سلاسل العبودية وتجلب لهم الحرية . ولكن آمالهم خابت . فان البرجوازية الاميركية ، بالتحالف مع اصحاب المزارع فى الجنوب ، حافظت على العبودية .

اهمية حرب الاستقلال

قامت الاهمية التقدمية لحرب الاستقلال فى تحرير الشعب الاميركى من الاضطهاد الاستعمارى ، وفى انشاء دولة وطنية مكان المستعمرات السابقة .

ان ما اتسمت به الحرب الثورية فى سبيل الاستقلال من معاداة للاقطاعيين ومن طابع وطنى تحريرى ، قد أثّر تأثيرا كبيرا على البلدان الاخرى ، وخاصة على حركة التحرر الوطنى فى بلدان اميركا اللاتينية ضد السيطرة الاسبانية والبرتغالية ، وعلى فرنسا التى كانت على عتبة ثورة برجوازية .

وقد خلقت الثورة البرجوازية الاميركية المقدمات لتطور المجتمع الرأسمالى فى الولايات المتحدة الاميركية بمزيد من السرعة . الا ان الثورة لم تحل كثرة من قضايا التحويل البرجوازى الديموقراطى : فان الهنود الحمر لم ينالوا حقوق المواطنية ، ولم تلغ عبودية الزنوج ، وكانت الارض المباعة قطعا كبيرة مستحيلة المنال تقريبا على المستوطنين الفقراء . وبقيت العبودية فى المزارع الكبرى ، وأقرت الثورة البرجوازية انتزاع الارض من الهنود الحمر .

٢ ـ الحرب الاهلية فى الولايات المتحدة الاميركية ١٨٦١ـ١٨٦٥

اسباب الحرب

فى السنوات الستين من القرن التاسع عشر ، تأزمت العلاقات تأزما شديدا وسريعا بين ولايات الشمال الصناعية وولايات الجنوب التي يسودها نظام العبودية . فان تطور الولايات الشمالية الذى سار فى اتجاه الصناعة والمزارع ، كان يستند الى نظام العمل المأجور . وخلافا للشمال ، كان اقتصاد المزارع الكبرى فى الولايات الجنوبية يرتكز على استخدام عمل العبيد الارقاء .

كانت الطرائق المتبعة فى ادارة اقتصاد المزارع الكبرى المرتكز على عمل العبيد طرائق وحشية ضارية . وكان اصحاب المزارع الكبرى لا يستخدمون الاسمدة ، وكانوا كل ثلاث او اربع سنوات تقريبا ينتقلون الى حراثة واستثمار اراض جديدة ، ويهملون الاراضى القديمة . وكان هذا النظام لادارة الاقتصاد يتطلب مساحات شاسعة من الارض . وقد اندفع كبار المزارعين مالكوالعبيد الى غرب الولايات المتحدة ، الى حيث كان ايضا يندفع مزارعو الولايات الشرقية والشمالية الشرقية والمستوطنون القادمون من اوروبا .

وبسرعة وشدة تأزمت التناقضات بين المزارعين وكبار المزارعين مالكى العبيد فى الصراع من اجل ارض الغرب .

كذلك تأزمت التناقضات بين البرجوازية الصناعية فى الشمال والشمال الشرقى وبين كبار المزارعين مالكى العبيد . فقد كانت العبودية تعيق تطور الولايات الجنوبية الاقتصادى ، الامر الذى كان يؤثر على حجم السوق الداخلية من اجل صناعة الشمال والشمال الشرقى . وقد رأى رأسماليو الولايات الشمالية فى الزنوج العبيد عمالا اجراء مقبلين ؛ وكانت هذه الولايات بامس الحاجة الى العمال .

كان كبار مزارعى الولايات الجنوبية يصدرون الى انجلترا القطن والتبغ وغيرهما من المنتوجات الزراعية ، ويستوردون منها البضائع الصناعية الضرورية . وهذا ما استثار استياء رأسماليى الشمال والشمال الشرقى لأن تجارة الجنوب الخارجية هذه كانت تحرم صناعيى الولايات الشمالية سوقا للتصريف ومصدرا للخامات .

وكان نظام المزارع الكبرى المرتكزة على عمل العبيد يعانى ازمة عميقة . فقد كانت طرائق الزراعة الموسعة فى المزارع الكبرى بالجنوب تستنفد التربة . وكان عمل العبيد الذى يرتكز عليه نظام المزارع هذا يعيق تطبيق الاعتدة الزراعية الجديدة . ونشبت مصاعب كبيرة بشأن اقتناء العبيد : فان متوسط سعر العبد ارتفع من ١٥٠ دولارا فى مستهل القرن التاسع عشر حتى الفى دولار فى عام ١٨٦٠ . وكان العبيد يثورون ويغادرون المزارع الكبرى . ولم يكتف اصحاب المزارع الكبرى مالكو العبيد بالسيطرة فى الولايات الجنوبية ، فاندفعوا نحو الغرب بغية توسيع مزارعهم . وكانت حكومة الولايات المتحدة الاميركية تدعم بسياستها الداخلية والخارجية مصالح مالكى العبيد وتشجع تجارة الرقيق . وقد طالب كبار المزارعين مالكو العبيد بانتهاج سياسة خارجية عدوانية توسعية وتقدموا ببرنامج غايته تخليد العبودية . وقد اعتبروا الحرب العدوانية ضد المكسيك فى اعوام ١٨٤٦–١٨٤٨ خطوة اولى لتحويل اميركا الجنوبية والوسطى الى اقليمين فى امبراطورية مالكى العبيد .

غير ان الحزب الجمهورى الذى تأسس فى الشمال عام ١٨٥٤ والذى كان يعبر فى الاساس عن مصالح البرجوازية الكبيرة ، طالب بافتتاح الاراضى فى الغرب من اجل حرية السكن فيها ووقف ضد العبودية .

في عام ١٨٦٠ ، انتخب مرشح الحزب الجمهورى نائب رئيس الحزب ، وعضو مجلس النواب المحامى ابراهم لينكولن ، رئيسا للولايات المتحدة الاميركية .

المرحلة الاولى من الحرب الاهلية

تقدم مالكو العبيد بمطلب الانفصال اى انهم ذادوا عن حق خروج اى ولاية من الولايات المتحدة الاميركية . وفى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٦٠ اتخذ مؤتمر المستعبدين فى تشارلستون قرارا بالانفصال ، وفى كانون الاول (ديسمبر) اعلنت ولاية كارولينا الجنوبية خروجها من الولايات المتحدة الاميركية . وعلى غرار ولاية كارولينا الجنوبية ، سارت ١٠ ولايات استعبادية اخرى .

وباقسى الضراوة ، قمع كبار المزارعين مالكى العبيد انتفاضة «الفقراء البيض» على الانفصال .

وفى شباط (فبراير) ١٨٦١ ، انشئ الاتحاد الجنوبى فى مدينة مونتغومرى (ولاية الاباما) ، اثناء مؤتمر ممثلى ست من الولايات المنفصلة ؛ وانتخب رئيسا له المزارع الكبير الغنى ، والمدافع الضارى عن العبودية جفرسون ديفيس . واعلنت مدينة ريتشموند (المدينة الرئيسية فى ولاية فرجينيا) عاصمة للاتحاد الجنوبى . وقد جاء فى الدستور الموقت «لاتحاد الولايات الاميركية» الذى اقره المؤتمر ان العبودية «حالة طبيعية» و «سند للحضارة » .

وفى نيسان (ابريل) ١٨٦١ ، بدأت قوات الجنوب العمليات الحربية ضد قلعة سامتر (قرب تشارلستون ، ولاية كارولينا الجنوبية) التى احتفظت بولائها لحكومة لينكولن . وهكذا بدأت

الحرب الاهلية فى الولايات المتحدة الاميركية ، وقد استمرت اربعة اعوام (١٨٦١-١٨٦٥) .

استعد كبار المزارعين المستعبدين للحرب بكل دقة وعناية ، بينما لم يستعد الشمال لها . فى البدء ، انتهجت حكومة لينكولن خطة غير حازمة . وكانت هذه الخطة تفصح عن انزوع قسم من البرجوازية الى المصالحة ؛ وكان هذا القسم يتألف بمعظمه من كبـــار الماليين ومن البرجوازية الصناعية التجارية الكبيرة فى الشمال ، غير الراغبين فى القطيعة نهائيا مع كبار المزارعين المستعبدين فى الولايات الجنوبية ، وفى خوض الحرب بطرائق ثورية . وهذا ما افضى الى هزيمة الشمال فى المرحلة الاولى من الحرب (١٨٦١-١٨٦٢) .

الانتقال الى الطرائق الثورية لخوض الحرب

تحت ضغط الجماهير الشعبية قـررت حكومة لينكولن فى آخر المطاف خوض الحرب « بالسبيل الثورى » .

وقد اضطلع اشتراك الطبقة العاملة فى العمليات الحربية بدور هائل فى امر انتقال الشماليين الى الحرب « بالسبيل الثورى » . ففى مدن كثيرة ، ومنها نيويورك وفيلادلفيا ، مضت النقابات بكامل اعضائها الى الجبهة . وقد اورد تقرير لمجلس الشيوخ الاميركى معطيات يتبين منها ان نحو ٧٥٠ الف عامل من المؤسسات الصناعية فى الولايات الشمالية التحقوا بالجيش .

وفى ايلول (سبتمبر) ١٨٦٢ ، اصدر الرئيس لينكولن اعلانـــا بتحرير الزنوج ابتداء من اول كانون الثانى (يناير) ١٨٦٣ . ومع ان الزنوج لم ينالوا لا الحقوق السياسية ولا الارض ،

اتسم هذا القانون باهمية كبيرة سواء على الصعيد الحربى او على الصعيد السياسى .

وفى ايار (مايو) ١٨٦٣ اصدرت حكومة لينكولن قانونا بشأن حصص الاراضى او «هومستيد» . وبموجب هذا القانون ، نال كل من مواطنى الولايات المتحدة الاميركية ، باستثناء الذين حاربوا الى جانب كبار المزارعين المستعبدين ، الحق فى الحصول مجانا على قطعة من الارض فى الغرب مساحتها ٦٥ هكتارا (١٦٠ اكرا) شرط ان يدفع رسما عن نوال الارض قدره ١٠ دولارات . كذلك سمح القانون بشراء الارض بسعر ١,٢٥ دولار للأكر الواحد ، فاستغل ذلك للمضاربات بالارض . ومع ذلك حل القانون مسألة الارض على اساس اكثر ديموقراطية فى مصلحة المزارعين الصغار من القرارات السابقة المتعلقة بشراء الارض نقدا وعدا وقطعا كبيرة . وهكذا توافرت للمزارعين الامكانية الفعلية لشغل الاراضى الحرة فى الغرب .

كان قانون حصص الاراضى ضربة قوية الى العبودية . فقد حرم كبار المزارعين المستعبدين من حق نوال الارض فى الغرب . ولم يكن فى وسع مزارع مستعبدى الجنوب ، المرتكزة على طرائق الاستثمار الضارية الوحشية ان تتطور دون حراثة الاراضى الخصبة الجديدة غير المستنفدة .

فى تموز (يوليو) ١٨٦٢ ، سن كونغرس الولايات المتحدة الاميركية قانونا باستدعاء جميع الرجال ممن تتراوح اعمارهم بين الثامنة عشرة والخامسة والاربعين الى الجيش . وقد مكّن هذا القانون من الاستفادة على نطاق واسع من تفوق الولايات الشمالية على الولايات الجنوبية تفوقا كبيرا من حيث الموارد البشرية . فان عدد سكان الجنوب كان يبلغ ٩ ملايين نسمة (بينهم ٣,٥ ملايين من الزنوج) ، بينما كان عدد سكان الشمال

يبلغ ٢٢ مليونا . ونحو اواخر الحرب ، نفدت الموارد البشرية فى الجنوب الى حد ان مالكى العبيد اضطروا الى قبول الزنوج العبيد ايضا فى الخدمة العسكرية .

وفقط فى تموز (يوليو) ١٨٦٢ ، سمحت الحكومة الفيديرالية للزنوج باداء الخدمة العسكرية فى الجيش . ومنذ عام ١٨٦٣ ، بدأ اشراك الزنوج على نطاق واسع فى الخدمة العسكرية . اما دعوة الزنوج الى الجيش لاداء الخدمة العسكرية العامة الالزامية ، فقد اجازها قانون ٢٤ شباط (فبراير) ١٨٦٤ . وقد سجل الزنوج عددا لا يحصى من صفحات البطولة والشجاعة فى تاريخ الحرب الاهلية . وفى شباط (فبراير) ١٨٦٣ ، صرح الكولونيل هيغنسون انه كان من الجنون لو حاول مع اجرأ الجنود البيض ان يقوم بما افلح بالقيام به مع السود . وتحدث الجنرال بنكو عن اشتراك الجنود الزنوج فى العمليات الحربية واشار الى انهم سلكوا سلوك الابطال وان اى جنود آخرين ما كان فى وسعهم ان يبدوا مزيدا من الحزم او مزيدا من الجسارة . ومع ذلك ، تعرض الزنوج لتمييز عنصرى فى منتهى الخزى . وكان راتب الجنود الزنوج اقل بكثير من راتب الجنود البيض . وفضلا عن الاشتراك فى العمليات الحربية ، كانوا يجبرون الزنوج على اداء جميع الاعمال المرهقة . وفى الخدمة العسكرية ، لم يكن بوسع الزنجى ان يترقى الى اعلى من رتبة رقيب . وفى حالات نادرة فقط ، كان الزنوج يصبحون ضباطا . وفى عام ١٨٦٤ كان يخدم فى الجيش اكثر من ١٨٦ الف زنجى (بينهم ١٣٤ الفا من الولايات الاستعبادية) ، وكان فى الاسطول البحرى الحربى ٣٠ الف زنجى ، وفى وحدات الجيش الاتحادى بالمؤخرة ٢٥٠ الف زنجى .

وكان اشراك الزنوج فى جيش مالكى العبيد مجازفة خارقة بالنسبة لهؤلاء العصاة . فلدن اول فرصة سانحة ، كان الزنوج ينتقلون الى جانب الولايات الشمالية ، ويزيدون بالتالى تفوقها بالموارد البشرية . وابـــان الحرب الاهلية ، فرّ من مزارع المستعبدين بالولايات الجنوبية الى الولايات الشمالية زهاء ٥٠٠ الف زانجى ، مما افضى الى هبوط الانتاج هبوطا شديدا .

كذلك افضت اضطرابات الزنوج وحركاتهم العديدة المتوالية بلا انقطاع فى مؤخرة العصاة كبار المزارعين ، والخوف من انتفاضة عامة يقوم بها الزنوج ، الى تجميد قوى كبيرة من الولايات الجنوبية : قرابة ١٠٠ الف جندى وضابط .

منذ بدء الحرب الاهلية بالذات ، خاض الزنوج نضالا متفانيا من اجل الحرية . وقد نظموا فصائل من الانصار («زنوج الغابات») وهزموا عصابات الاشقياء من العصاة كبار المزارعين .

وكانوا يعهدون الى الوحدات الزنجية باخطر العمليات واشدها مسؤولية . وكانت الخسائر بين الزنوج المحاربين على الجبهة اكبر من الخسائر بين الفصائل المؤلفة من المتطوعين البيض . وقد ضحى حوالى ٧٠ الف زنجى بحياتهم فى النضال ضد العبودية ومن اجل صيانة كيان ووحدة الولايات المتحدة الاميركية .

وقد اضطلع الزانوج* بدور بارز فى الحرب الاهلية . وفى عام ١٨٦٤ صرح ابراهم لينكولن انه لولا مساعدة الزانوج لخسرت الولايات الشمالية الحرب .

وقد كان لتطهير قيادة جيش الولايات الشمالية وتحسين تركيبها اهمية هائلة من اجل النصر . وابان الحرب الاهلية ، ظهر فى جيش الشمال عدد كبير من الضباط الالغائيين ذوى الميول التقدمية الديموقراطية ، المتحدرين من اوساط العمال والزّراع ، وبينهم الكاتب السياسى الاشتراكى فيديماير ، والعضو

السابق للجنة المركزية فى عصبة الشيوعيين ويليخ ، والقائد البارز فى حركة العمال الاميركية سيلفيس ، والضابط الفرنسى كلوزرس (فيما بعد ، عضو فى كومونة باريس) ، والثورى المجرى شنف ، والضابط الروسى السابق تورتشانينوف .

ان الانتقال الى الطرائق الثورية لخوض الحرب فى المرحلة الثانية من الحرب الاهلية (١٨٦٣-١٨٦٥) قد ادى الى انتصار الشمال على المزارعين المستعبدين . واصبح النصر ممكنا نتيجة لنضال الشعب الاميركى من عمال وزراع وزنوج نضالا متفانيا .

اهمية الحرب الاهلية فى الولايات المتحدة الاميركية

ارتدت الحرب الاهلية فى الولايات المتحدة الاميركية ، ولا سيما فى مرحلتها الثانية ، طابع ثورة برجوازية ديموقراطية . فقد خاضت الجماهير الشعبية نضالا ثوريا تحريريا عادلا ضد العبودية ؛ وتغلبت عليها بفضل جهودها البطولية . وكان العمال والزنوج والزراع يؤلفون القوة المحركة الاساسية للثورة فى ظل زعامة البرجوازية التقدمية . وبفضل ما قامت به الجماهير الشعبية من اعمال نشيطة ، قضت الحرب الاهلية على انقسام البلاد السياسي والاقتصادى ، وخلقت الامكانيات لتطور الرأسمالية بسرعة ، وذلك بازالتها العقبات فى طريق تحول الولايات المتحدة الاميركية من بلد زراعى الى بلد صناعى زراعى ، واسهمت فى انتصار السبيل المزرعى (المسمى بالسبيل «الاميركى») فى تطور الرأسمالية فى الزراعة .

وقد وطدت الحرب الاهلية السيادة السياسية للبرجوازية الصناعية الكبيرة ، وقضت على ادعاءات ومطامع مالكى العبيد بالسلطة فى البلاد .

وقد كانت البرجوازية الكبيرة الساعية الى المساومة مع كبار المزارعين ، هى التى استغلت بصورة رئيسية ثمار النصر . وفى عامى ١٨٦٥-١٨٦٦ طبق كبار المزارعين «القوانين السوداء» المعادية للزنوج ، وشكلوا منظمات ارهابية ، منها الكو-كلوكس-كلان وغيرها . اما الزنوج فقد تحرروا من العبودية ، ولكنهم كانوا محرومين من الارض فاذا بهم يجدون انفسهم فى تبعية جائرة ، نصف عبودية حيال كبار المزارعين ويتحولون الى مستأجرين محاصين . وازدادت تبعية الزراع حيال المصارف . وترسخت فى البلاد ديكتاتورية البرجوازية الكبيرة التى اخذت تغتنى بتشديد استثمار العمال .

أثرت الحرب الاهلية تاثيرا هائلا فى تطور الولايات المتحدة الاميركية الاقتصادى . ففى الثلث الاخير من القرن التاسع عشر ، تطورت الرأسمالية فى الولايات المتحدة الاميركية بسرعة خارقة . فى عام ١٨٤٠ ، كانت الولايات المتحدة الاميركية تشغل المرتبة الخامسة فى العالم من حيث الانتاج الصناعى ، وفى عام ١٨٦٠ المرتبة الرابعة . وقبل نهاية الحرب الاهلية ، كانت الولايات المتحدة الاميركية مستعمرات لاوروبا فى الميدان الاقتصادى . وفى عام ١٨٧٠ ، شغلت الولايات المتحدة الاميركية المرتبة الثانية فى العالم من حيث الانتاج الصناعى ، آتية بعد انجلترا فقط ، وفى عام ١٨٩٤ ، شغلت المرتبة الاولى وانتجت نصف عموم الانتاج الصناعى فى البلدان الرأسمالية . وبالقياس الى عام ١٨٦٠ ، ازداد الانتاج الصناعى فى الولايات المتحدة الاميركية فى عام ١٨٩٥ الى سبع مرات .

وفى عداد اسباب نمو الرأسمالية بسرعة فى الولايات المتحدة الاميركية ، تنبغى الاشارة الى الاسباب التالية : وجود الجمهورية البرجوازية الديموقراطية زمنا طويلا ؛ انعدام الاقطاعية ؛ اثراء

الولايات المتحدة الاميركية من جرّاء كثرة الحروب فى اوروبا ؛ امكانية الاستفادة من التكنيك الاوروبى والرساميل الاوروبية ؛ وجود موارد طبيعية غنية ؛ سرعة تطور التكنيك ؛ هجرة الملايين من اوروبا وآسيا واميركا اللاتينية الى الولايات المتحدة الاميركية (من عام ١٨٦٠ الى عام ١٩٠٠ ، جاء الى الولايات المتحدة الاميركية اكثر من ١٤ مليون مهاجر) ؛ استثمار المهاجرين والزنوج والهنود الحمر استثمارا ضاريا ؛ نهب الدول والاراضى المجاورة .

الفصل الخامس

تطور الرأسمالية فى روسيا

تطور روسيا الاقتصادى والاجتماعى فى النصف الاول من القرن التاسع عشر

اخذت العلاقات الرأسمالية فى روسيا تتكون فى اواخر القرن الثامن عشر . ولكن النظم الاقطاعية كانت لا تزال سائدة مع ذلك فى روسيا فى منتصف القرن التاسع عشر . ورغم الازمة التى نشبت فى نظام القنانة ، كان العمل الالزامى الذى يقوم به القن هو السائد فى الفرع الاقتصادى الاساسى فى روسيا ، اى فى الزراعة حيث كان يعمل ٩٠ بالمئة من السكان .

ومنذ العقد الرابع من القرن التاسع عشر ، بدأ الانقلاب الصناعى فى روسيا . وشرعت الآلات تزيح تدريجيا العمل اليدوى . وفى الصناعة والنقليات ، ظهرت اولى المحركات البخارية . وفى الزراعة بدأ تطبيق طرائق زراعية تكنيكية جديدة ، تقدمية بالنسبة لذلك الزمن . وهذا ما استتبع نهوض الانتاج والتجارة ، ونمو العلاقات البضاعية النقدية .

افضى تطور العلاقات البضاعية النقدية الى تغير التركيب الاجتماعى فى روسيا . فقد بدأت عملية «تمايز الفلاحين» فى القرية . فمن جهة ، حدث افتقار جماهير غفيرة جدا من الفلاحين ، ومن جهة اخرى ، حدث اغتناء فئة غير كبيرة من اغنياء القرية . وازداد عدد ملاكى الاراضى . واصبح شراء اراضى النبلاء من

قبل التجار والموظفين واغنياء الفلاحين السمة المميزة لتطور استغلال الارض فى روسيا . وقد قوضت هذه العملية الدعامة الرئيسية للنظام الاقطاعى اى حق النبلاء التام فى امتلاك الارض . وبما ان ملاكى الاراضى الجدد لم يكن لديهم فلاحون اقنان ، فقد لجأوا على نطاق واسع الى العمل المأجور الذى يميز الرأسمالية . وهكذا بدأت تتكـون فى القرية الروسية برجوازيـة ريفية ، واكتسبت لامساواة الفلاحين من حيث الملكية سمـــات التمايز الاجتماعى .

ومع نمو العلاقات البضاعية النقدية ، شرعت استثمارات الفلاحين شأنها شأن استثمارات الاقطاعيين تنجذب اكثر فاكثر نحو علاقات السوق . ففى بعض مناطق روسيا ، جرى من جهة خراب الملاكين العقاريين الصغار ، ومن جهة اخرى تطورت ممتلكات الاقطاعيين الكبرى من الارض التى تستخدم التكنيك الزراعى الجديد والآلات . كذلك سار بعض الاقطاعيين فى طريق ما يسمى بالمشروع الرأسمالى . ولكن اغلبية الاقطاعيين استغلوا حقهم الاحتكارى فى الارض ووسعوا استثماراتهم على اساس اقطاعى ، قنّى ، وخفضوا حصة الارض الممنوحة للفلاحين وزادوا اعمال السخرة . وهذا ما قوض اخذ اسس النظام الاقطاعى اى وجود اقتصاد خاص لدى المنتج الذى هو الفلاح . وبما انه كان فى وسع الاقطاعيين ان يستغلوا عمل الفلاحين الاقنـــان ، فانهم (ولا سيما منهم المتوسطون والصغار) قلما كانوا يهتمون بتطوير الانتاج الزراعى عن طريق استخدام التكنيك الزراعى التقدمى والآلات . وهذا ما آل الى الركود فى تطور الزراعة ، والى هبوط بعض فروعها .

وفى المناطق التى كانت تتميز بصناعة متطورة حرر الاقطاعيون الفلاحين لقاء اتاوات سعيا منهم الى زيادة مداخيلهم . وهذا

ما فصل الفلاحين عن الزراعة واجبرهم على البحث عن مورد رزق فى المدن .

وهكذا عرقلت النظم الاقطاعية القنية تطور القوى المنتجة فى زراعة روسيا .

اما الانقلاب الصناعى الذى شمل أهم فروع الاقتصاد فى روسيـــا ، فقد ادى الى تطور الصناعة باستمرار والى زيادة الانتاج الصناعى زيادة كبيرة . وتوطدت علاقات روسيا الاقتصادية ، الداخلية منهـــا والخارجية . والى جانب القفقاس وكازاخستان المتأخرين ، دخلت فى قوام الامبراطورية الروسية المناطق المتطورة صناعيا فى بولونيا . كل هذا عجل تراكم الرأسمال وكشف مصادر جديدة للخامـات واسواقــا جديدة للتصريف ضرورية للتطور الصناعى .

ولكن النظم الاقطاعية كانت تعيق تطور الصناعة . وكانت اليد العاملة الحرة قليلة . وكان سواد العمال يتألف من فلاحين اقنان صرفهم الاقطاعيون الى المدينة للبحث عن مكسب . ولكنهم كانوا مع ذلك لا يزالون بعد على صلة وثيقة بالزراعة ؛ وكان الملاكون العقاريون يستدعون الفلاحين الى القرية اذا رأوا ان الاتاوة غير مفيدة لهم .

كانت النظم الاقطاعية القنية تعيق اصحاب المشاريع عن اللجوء الى التكنيك الجديد لأنه ينبغى لاستخدامه عمال لهم مصلحة فى العمل ، واحرار بتأجير قوة عملهم . وكان التكنيك الصناعى الجديد يتطلب بالحاح انشاء جمهور كبير من افراد احرار شخصيا من شأنهم ان يشكلوا جيشا احتياطيا من العمال للعمل فى المؤسسات الرأسمالية .

كانت صناعة روسيا متأخرة بالمقارنة مع صناعة البلدان الرأسمالية المتطورة .

وكان ضيق السوق الداخلية يكبح تطور الصناعة فى روسيا لأن الاقتصاد الطبيعى القنى كان السائد فى الزراعة . ولم يكن فى وسع الفلاحين الاقنان الفقراء ان يشتروا منتوجات الصناعة .

وبسرعة هائلة اشتدت فى روسيا التناقضات بين القوى المنتجة المتنامية وعلاقات الانتاج الاقطاعية القنية الشائخة . وكان تطور القوى المنتجة لاحقا يتطلب ازالة النظام الاقطاعى القنى ، وتكييف علاقات الانتاج وفقا للمستوى الجديد الذى بلغه تطور القوى المنتجة .

ظهور وتنامى الحالة الثورية

اثرت ازمة التطور الاقتصادى فى روسيا ، فى المقام الاول ، على الشروط المادية لحياة الفلاحين والعمال . وقد تفاقم نير الاتاوات الاقطاعية . وكانت القرية تكابد الجوع على الدوام بسبب من سوء المحاصيل بصورة دورية ، واوبئة المواشى ، ونقص الارض المحروثة والمراعى . وكان وضع الفلاحين الصعب يفضى الى نشوب الاوبئة ، وتعاظم نسبة الامراض والوفيات وانخفاض نسبة الولادات . وكان النظام القنى يهلك كادحى الريف ، أهم قوة منتجة فى مجتمع ذلك الزمن .

ان تردى وضع الفلاحين عزز نضالهم ضد الاقطاعيين . فامتنع الفلاحون عن دفع الاتاوات واداء اعمال السخرة ، وهربوا من الاقطاعيين ، وشرعوا يحرقون عقارات الاقطاعيين ، ويضربون الاقطاعيين ووكلاءهم ويقتلونهم . ومن عام ١٨٢٦ الى عام ١٨٦١ ، بلغ عدد انتفاضات الاقنان ١١٨٦ انتفاضة . وشملت الحركة جميع مناطق روسيا تقريبا . وفى الاطراف القومية ، اندمجت هذه الحركة مع نضال الشعوب ضد الاضطهاد القومى (القفقاس ،

بولونيا ، وغيرهما) . وحظى نضال الفلاحين بتاييد العمال الذين كانوا يعانون من الاضطهاد والعنف والتعسف ، لا من جانب ارباب العمل ورؤساء المصانع وحسب ، بل ايضا من جانب الاقطاعيين .

كان فلاحو روسيا يناضلون فى سبيل الارض والحرية اى فى سبيل تصفية التبعية الاقطاعية . وكان مطلب الفلاحين هذا يرمى موضوعيا الى انشاء ظروف وشروط ملائمة لأجل تطور الرأسمالية فى روسيا . وكانت القيصرية تقمع بكل قساوة نضالات الفلاحين والعمال . وكانت القوانين والسجون والجيش وكل سياسة الدولة الاقطاعية تحمى مصالح الاقطاعيين وتعيق تطور علاقات الانتاج الجديدة فى روسيا . وكان تطور البلاد الاجتماعى والاقتصادى يقتضى ازالة هذه العقبات بواسطة قوة اجتماعية لها مصلحة فى انشاء علاقات انتاج جديدة .

ولم يكن فى مستطاع الفلاحين ، غير المتجانسين من حيث تركيبهم ، والمبعثرين ، والمحدودين بحكم المصالح المحلية ، ان يوحدوا جهودهم لأجل النضال الثورى فى سبيل مطالبهم .

ولم يكن من الممكن ان يكون قائد الفلاحين الثورى غير الطبقة العاملة . ولكن هذه الطبقة لم تكن بعد آنذاك قد تكونت فى روسيا .

اما برجوازية روسيا ، التى لها مصلحة فى تطور البلاد الرأسمالى ، فقد كانت قوة ضعيفة فى الميدانين الاقتصادى والسياسى . وكانت من حيث اصلها مدينة الى حد كبير لطبقة الاقطاعيين . وكانت برجوازية روسيا ترى امامها تجربة الثورات البرجوازية فى اوروبا الغربية ، وترى نضال البروليتاريا الاوروبية الغربية المتنامى ، ولهذا كانت تخشى الثورة . وخوفا من حريق الحرب الفلاحية ، كان برجوازيو روسيا يكتفون بمحاولة اقناع

الاقطاعيين والقيصر ، على لسان الليبراليين (الاحرار) باجراء تنازل امام التطور الرأسمالى و«تحرير» الفلاحين ، وبالتالى ، تحاشى الثورة وتجنب تدمير الملكية الاقطاعية للارض وتصفية الحكم المطلق .

ان تفاقم ازمة نظام القنانة افضى الى مرحلة جديدة فى الحركة الثورية فى روسيا . وفى اعوام ١٨٤٠–١٨٦٠ ، كان المثقفون الطليعيون الذين تفهموا امانى الفلاحين الكادحين هم المعبرين عن مصالح الفلاحين . وكان المثقفون الطليعيون من ابناء الفئة الدنيا من رجال الدين ، ومن ابناء الموظفين والبرجوازيين الصغار والتجار والفلاحين ، والنبلاء الادنياء النسب (اللانبلاء او النبلاء المتحدرين من العامة) وكانوا ديموقراطيين ثوريين من حيث آرائهم ونظراتهم . وكانوا يرون نظـــام القنانة بكل قساوتـــه ويفضحونه . وقد صاغوا مطالب الفلاحين بشكل برنامج يرمى الى القضاء التام على نظام القنانة والى منح الفلاحين الاراضى دون اى تعويض للاقطاعيين . كذلك شهّر الديموقراطيون الثوريون بطابع القنانة الذى كان يسم «تحرير» الفلاحين الروس الجارى اعداده من فوق . واعتبر الكثيرون منهم ان الشعب لن يتمكن من تحقيق مطالبه الا بالقضاء على الملكية الاقطاعية للارض وبدك سلطة الاقطاعيين عن طريق الثورة الفلاحية .

كان الديموقراطيون الثوريون الروس يعملون فى عهد كانت فيه ثورية الديموقراطية البرجوازية فى اوروبا قد تلاشت . وقد رأوا من مثال الغرب المصائب التى تحملها الرأسمالية للشعب . وتبعا لذلك ، تقدم بعضهم بالنظرية الطوباوية القائلة «بالاشتراكية الفلاحية» لعدم ادراكه السبيل الجديد للتطور الثورى الذى تضطلع فيه البروليتاريا بالدور الرئيسى . وفى هذه النظرية ، كان فضح نظام القنانة ، وانتقاد النظام الرأسمالى وانكاره ورفضه ،

كان كل هذا يلتقى مع مطلب الانتقال من الواقع الروسى المتاخر الى الاشتراكية مباشرة عن طريق تطوير المشاعة الفلاحية القائمة فى روسيا مع ما يلازمها من «حق كل امرئ فى الارض» ، وادارة ذاتية ، الخ .. كانت افكار «الاشتراكيــة الفلاحية» تفصح عن طموح الفلاحين الثورى الى المساواة والى تصفية الملكية الاقطاعية للارض ، والى الاطاحة بالسلطة الاقطاعية . ولكن هذه الافكار كانت بعيدة عن الاشتراكية العلمية ، لأنها كانت تعتمد على رواسب العلاقــات الاجتماعية القديمة ، على المشاعة الفلاحية بسبيل التفسخ . ان طريق روسيا الى الاشتراكية كان يمر عبر مرحلة التطور الرأسمالى .

كان الديموقراطيــون الثوريــون هرتسن وبيلينسكى وتشيرنيشيفسكى ودوبروليوبوف يكرهون شديد الكره نظام القنانة والقيصرية ويدعون جميع الطليعيين فى روسيا الى النضال ضد الحكم المطلق . وقد طالب تشيرنيشيفسكى بالغاء نظام القنانة كليا دون اى تعويض وبالحرية التامة وبتسليم جميع الاراضى للفلاحين مجانا . وبانتقاد الحكم المطلق ونظام القنانة بلا هوادة ، كان الديموقراطيون الثوريون يربون بالروح الراديكالية الشباب اللانبلاء الطليعيين الذين شرعوا ينظمون الحلقات . وقد فضح الديموقراطيون الثوريون فى البيانات التى اصدروها الصفقة التى كانت تهيئها القيصرية مع الاقطاعيين . ودعــا تشيرنيشيفسكى الفلاحين الى الانتفاض على القيصرية ونظام القنانة ، وخاطب الثوريين قائلا : «نادوا روسيا الى الفاس» .

كانت جهود المعسكر الديموقراطى البطولية فى روسيا غير كافية لتنظيم الفلاحين المناضلين وقيادتهم . كان الفلاحون يخوضون نضالا ضاريا فى سبيل الارض والحرية وكان هذا النضال يدل على وجود حالة ثورية فى روسيا ، ولكن الفلاحين كانوا غير

منظمين سياسيا وغير قادرين على دك نظام القنانة . ورغم ذلك ، كان النهوض الثورى أهم سبب اجبر الاقطاعيين على القبول بالغاء نظام القنانة فى روسيا .

سقوط نظام القنانة فى روسيا

رأت الطبقة الحاكمة فى روسيا ، اى طبقة الاقطاعيين ، ان النظام الذى انشأته يقف بكليته على شفير الهلاك . ولكنها لم تفكر فى طريقة لتغييره الا وفقا لمصالحها . وقد اعترف كثيرون من الاقطاعيين بانه من الضرورى اقتصاديا تصفية القنانة . واقنعتهم موجة الحركة الفلاحية المتصاعدة بانه من الضرورى سياسيا الغاء نظام القنانة . وقد تسارعت ازمة نظام القنانة من جرّاء هزيمة روسيا الاقطاعية فى حرب القرم ضد الدول البرجوازية (انجلترا وفرنسا وايطاليا) ، عندمـــا انكشف تاخر البلد فى الميدانين الاقتصادى والعسكرى . وقد عززت الحرب الى الحد الاقصى التناقضات الاجتماعية فى البلد . وخوفا من الغاء نظام القنانة من تحت ، نتيجة لنضال الفلاحين من اجل الارض والحرية ، اضطر القيصر والاقطاعيون الى القبول بالغاء النظم الاقطاعية من فوق بأفيد الشروط للاقطاعيين . فوفقا لاصلاح ١٨٦١ ، اصبح الفلاحون احرارا من الناحية الحقوقية ، ونالوا الحقوق المدنية العامة (حق عقد الصفقات والمتاجرة والصناعة وامتلاك الملكية) . وكان مضمون الاصلاح يتسم ايضا بسمة برجوازية مفادها ان الفلاحين اصبحوا منتجى بضائع مستقلين ، وهذا ما شدد عملية تمايز الفلاحين وافضى الى خراب السواد الاعظم منهم .

وقد سعى الاقطاعيون الى ترسيخ وتوطيد سيادتهم الاقتصادية والسياسية . واعتمادا على بأس جهاز الدولة ، حاولوا بواسطة

الاصلاح ان يكبحوا تطور الرأسمالية فى روسيا وان يصونوا النظم الاقطاعية . فقد ابقى الاصلاح فى حوزة الاقطاعيين جميع الاراضى التى يحرثها الفلاحون . ولم ينل الفلاحون غير الحق فى حصة من الارض محدودة بكل صرامة ، ولقاء تعويض . اما خيرة الاراضى فقد ابقاها الاقطاعيون فى حوزتهم . وقبل دفع التعويض ، كانت حصة الارض هذه تعتبر كالسابق ملكا للاقطاعى ، وليس للفلاح عليها غير حق التمتع بها . وفى ذلك الوقت ، كان الفلاح ملزما ، كما قبل الاصلاح ، بتقديم اتاوات معينة لقاء استغلال الارض . وقد أقـــر مقدار التعويض بحيث يتقاضى الاقطاعى ، فيما اذا وضع النقود فى المصرف ، فائدة مئوية توازى ايراداته السابقة . وعلى هذا النحو لم يخسر الاقطاعيون شيئا بسبب من «تحرير» الفلاحين وقبض التعويض . وفضلا عن ذلك ، كسبوا من الاصلاح لأن مقادير التعويض زادت كثيرا عن قيمة حصة الارض فى السوق . وعمليا لم يدفع الفلاحون تعويضا عن الارض وحسب ، بل عن حريتهم ايضا . وهكذا حولت الدولة الاقطاعية «تحرير» الفلاحين الى نهب سافر للفلاحين .

وبذل الاقطاعيون جهدهم للاحتفاظ كذلك اطول زمن ممكن بتبعية الفلاحين القنية لهم . فقبل التعويض التام عن الارض ، كان الفلاح يبقى فى تبعية بوليسية للاقطاعيين ، وبعد دفع التعويض كان يجد نفسه فى تبعية الادارة القيصرية التى تمثل الاقطاعيين ذاتهم . كذلك انشل استقلال الفلاحين الاقتصادى ببقاء المشاعة ، المالكة القانونية للارض ؛ فبدون موافقة هذه المشاعة ، لم يكن فى وسع الفلاح ان يتصرف بحصته من الارض او ان يغادر القرية .

ان اصلاح ١٨٦١ قد زاد من حدة نضـــال الفلاحين ضد الاقطاعيين . وقد ظن الفلاحون ، لعدم فهمهم طابع القيصرية الاقطاعى القنى ، ان القيصر وهبهم الحرية الحقيقية ، وان الاقطاعيين

غيروا «فرمان» القيصر . وقد استثارت خيبة الفلاحين من الاصلاح والاشاعات عن صفة فرمان القيصر المعادية للاقطاعية والقنانة موجة جديدة من نضالات الفلاحين ضد الاقطاعيين . الا ان قوات القيصر قمعت نضالات الفلاحين بقساوة . وفى تلك السنوات ، اوضح الديموقراطيون الثوريون (اوغاريف ، ميخايلوف ، الخ .) للفلاحين ان الحكومة القيصرية قد اعربت عن مصالح النبلاء الاقطاعيين وارادتهم بتحقيقها الاصلاح . ودعوا الشباب للذهاب «الى الشعب» والقيام فى اوساطه بدعاوة ثورية من اجل الاستعاضة عن الحكم المطلق بسلطة ينتخبها الشعب ، من اجل اقرار الحريات الديموقراطية ، من اجل تأميم الارض ووضعها تحت تصرف المشاعة الفلاحية .

ومن ظاهرات الحالة الثورية كانت انتفاضة عام ١٨٦٣ فى بولونيا التى كانت آنذاك جزءا من الامبراطورية الروسية . والى جانب النضال فى سبيل تحرير بولونيا الوطنى ، تجلى فى هذه الانتفاضة نضال الفلاحين البولونيين والبيلوروس والليتوانيين والاوكرانيين فى سبيل الارض وضد القنانة . وقد قمعت الحكومة القيصرية الانتفاضة بوحشية ، ولكنها اضطرت الى الاقدام على بعض التنازلات : فقد اعادت الى فلاحى بيلوروسيا وليتوانيا الاراضى التى اقتطعها الاقطاعيون ، وخفضت مقادير التعويضات فى هذين القطرين . وهكذا توصل الفلاحون ، عن طريق النضال الثورى الضارى ، الى تحسين اوضاعهم والى استئصال نظام القنانة فى روسيا بصورة أعمق .

ومع ذلك ، ظلت رواسب القنانة فى الريف تعرقل تطور الرأسمالية . كذلك كان نظام الدولة المتاخر ، الاقطاعى والاستبدادى ، يعيق تطور الرأسمالية .

ابقى اصلاح ١٨٦١ اساس التاخر الاقتصادى فى الزراعة ، اى عقارات الاقطاعيين التى كان يسود فيها الاستثمار نصف القنى ، نصف الاقطاعى . وكان نقص الاراضى عند الفلاحين بعد الاصلاح يجبرهم على استئجار الاراضى المحروثة والمروج والمراعى من الاقطاعيين ، مقابل حراثة الفلاحين لاراضى الاقطاعيين . وكانت تلك هى السخرة القنية القديمة بشكل جديد ، بشكل التعويض بالعمل . ومن رواسب النظـام القديم كانت كذلك المحاصة (المؤاكرة) التى يقدم بموجبها الفلاح للاقطاعى نصف الغلة عينا لقاء الارض المستاجرة .

ومن جرّاء الاستغلال الاقطاعى ، حرم السواد الاعظم من الفلاحين امكانية تحسين استثماراتهم . اما الاقطاعيون الذين كانوا يحصلون على ايرادات هائلة من استغلال الفلاحين نصف الاقطاعى ، فقد كانوا يدفعون استثماراتهم ببطء شديد فى طريق التطور الرأسمالى .

ان الغاء نظام القنانة قد اسهم فى تشكيل طبقات جديدة فى القرية الروسية يتميز بها المجتمع البرجوازى . والنمو الاقتصاد الفلاحى البضاعى عجل وازم عملية التمايز الاجتماعى فى القرية . ففى قطب من صفوف الفلاحين الروس ، كان فقراء الريف المالكون حصة من الارض ولكنهم المضطرون الى بيع قوة عملهم . ففى مستهل العقد التاسع من القرن الماضى ، كان زهاء نصف جميع العائلات الفلاحية يتالف من عائلات فقيرة لا تملك اى حصان او تملك الواحدة منها حصانا واحدا . وفى قطب آخر ، كان الكولاك ، اى البرجوازية الريفية التى تؤلف حتى ٢٠ بالمئة من الفلاحين . كان الكولاك ملاكى اراضى اغنياء يشترون الارض من الاقطاعيين والفلاحين ويستخدمون العمل الماجور ، اى عمل بروليتاريى الريف . وكان الفلاحون المتوسطون يشكلون الجمهور الوسطى من

الفلاحين الروس . وقد حل الخراب بالسواد الاعظم من الفلاحين المتوسطين ، فالتحقوا بصفوف البروليتاريا ؛ الا قسم قليل منهم ارتقى الى الفئة العليا الميسورة فى الريف .

وكان تمايز الفلاحين يشتد باستمرار . وقد استولى الكولاك على مساحة تتراوح بين ٣٥ و ٥٠ بالمئة من جميع اراضى الفلاحين المحروثة . واخذ اقتصادهم يتنامى ويزداد غنى . وقد لجا الكولاك فى استثماراتهم الى عمل العمال الزراعيين المأجور والى استخدام التكنيك الزراعى الجديد والآلات الزراعية . وكانت حصص الارض التى يملكها السواد الاعظم من الفلاحين تتقلص باستمرار . وكان الفلاحون يستاجرون الارض من الاقطاعيين فيقعون فى براثن الظلم الرأسمالى .

سارت الراسمالية في زراعة روسيـــا عبر طريق التطور الاقطاعى (المسمى بالطريق «البروسى») . ففى بروسيا انتزع الاقطاعيون الارض من الفلاحين عند الغاء نظام القنانة . فاضطر الفلاحون المحرومون من الارض كليا تقريبا الى العمل عند الاقطاعيين كعمال زراعيين والى بيع ما بقى لهم من قطع ضئيلة من الارض للكولاك . ان هذا السبيل لتطور الرأسمالية فى الزراعة يصون لزمن طويل سيادة الاقطاعيين الاقتصادية والسياسية .

اما الفلاحون فقد ناضلوا من اجل السبيل الثورى ، اى من اجل تقاسم العقارات الاقطاعية الكبيرة وتصفية بقايا الاقطاعية .

ورغم بقايا القنانة التى كانت تعرقل تطور الرأسمالية فى زراعة روسيا ، كانت هذه الزراعة تنجذب اكثر فاكثر الى التداول البضاعى . فقد تحولت استثمارات الكولاك والاقطاعيين الى مؤسسات تنتج المنتوجات البضاعية من اجل السوق الخارجية والداخلية . وكانت بدورها تستهلك اكثر فاكثر بضائع تنتجها

الصناعة . فتكونت سوق داخلية من اجل الصناعة الآلية الرأسمالية .

ان اهمية اصلاح ١٨٦١ قد تلخصت فى كونه عجل دخول روسيا فى عهد الرأسمالية الصناعية .

ان تمايز الفلاحين ، واستمرار انفصال الحرفة عن الزراعة ، ونمو المدن ، وبناء السكك الحديدية ، كل هذا خلق سوقا داخلية من اجل الصناعة الرأسمالية الكبيرة . وقد استعرت حمّى اصحاب المشاريع حول بناء السكك الحديدية : ففى خلال ٢٠ سنة بعد الاصلاح ، بنى اكثر من ٢٠ الف كيلومتر من السكك الحديدية . وتأمنت للرأسمالية فى روسيا سبل مواصلات لا غنى عنها لأجل انشاء سوق لعامة روسيا . وبنيت كثرة من المؤسسات الصناعية . وتطورت صناعة النسيج ، ونمت الصناعة الثقيلة : صناعة التعدين ، صناعة الوقود ، الخ .. ومن حيث وتائر التطور الرأسمالى ، سبقت روسيا كثرة من البلدان الرأسمالية فى اوروبا الغربية .

وقد استتبع تطور الرأسماليـــة فى روسيـــا نمو القوى المنتجة نموا عاصفا سواء أفى وسط البلاد ام فى اطرافها . وادى النموذج الاقتصادى الجديد الى تغيرات جذرية فى التركيب الاجتماعى للمجتمع : فقد اخذت البرجوازية تتطور وتنمو فى روسيا ومعها اخذت البروليتاريا ايضا تتطور وتنمو .

الحركة العمالية فى القرن التاسع عشر وظهور الماركسية

١ ـ بداية الحركة العمالية

تكوّن البروليتاريا فى طبقة

ادى الانقلاب الصناعي الى دخول الرأسمالية فى مرحلة جديدة من تطورها هى مرحلة الانتاج الآلى . وقد اخذت علاقات الانتاج الرأسمالية تصبح تدريجيا هى العلاقات السائدة فى المجتمع ، واخذ النضال بين الطبقة العاملة (البروليتاريا) والبرجوازية يشكل المضمون الرئيسى للعصر التاريخى الجديد .

ولكن انتصار علاقات الانتاج الرأسمالية لم يكن مجرد عملية اوتوماتيكية ، بل استغرق مرحلة طويلة من النضال السياسى والاقتصادى بين الطبقات الجديدة والطبقات السائدة القديمة ، مرحلة شغلت فى البلدان الاوروبية الطليعية قرابة القرنين السابع عشر والثامن عشر وانتهت فى النصف الاول من القرن التاسع عشر . وكان مضمون هذه المرحلة الاساسى هو نضال البرجوازية فى سبيل السلطة . وبعد الاستيلاء على السلطة ، لم تصبح البرجوازية الطبقة السائدة اقتصاديا وحسب ، بل اصبحت كذلك الطبقة السائدة سياسيا .

فى اواخر القرن الثامن عشر ، وخاصة فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، اخذت الطبقة العاملة ايضا تتوطد وترسخ نظرا لنمو الصناعة الآلية : فقد شرعت تؤسس منظماتها السياسية وتخوض النضال بصورة مستقلة من اجل مصالحها

وتضع ايديولوجيتها . فى البدء ، دعمت الطبقة العاملة ، على العموم ، نضال البرجوازية التقدمى ضد الاقطاعية ؛ وبعد ذلك ، ولا سيما بعد انتقال السلطة السياسية الى ايدى البرجوازية ، طفقت تناضل ضد البرجوازية ، من اجل اقامة النظام الاشتراكى . وهذا النضال هو الذى حدد كل تطور التاريخ لاحقا .

ومع انــه حدثت ثورات برجوازية فى جملة من بلدان اوروبا ، ظلت رواسب الاقطاعية قائمة فيها مع ذلك ، معرقلة تطور الصناعة . وقد سارت البرجوازية فى طليعة النضال ضد هذه الرواسب ، بتأييد من سائر فئات السكان ، والطبقة العاملة بالدرجة الاولى . وتدريجيا اخذت الطبقة العاملة تضطلع بالدور المحدد فى الحياة السياسية ، بارزة كمناضل من اجل الديموقراطية لا يضاهيه مناضل فى المثابرة والانسجام . ان الطبقة العاملة هى بحكم طبيعتها الطبقة الاكثر تقدما لأنها مرتبطة بأحدث الصناعة ولأنها لا تملك ملكية خاصة . والبروليتاريا تناضل ضد جميع مظاهر استثمار الانسان للانسان لأنها لا تستثمر احدا ، بل تعانى هى انفسها ، بالعكس ، اشد اشكال الاستثمار ضراوة . وهى تناضل فى سبيل الغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج لأنها ليست بحاجة الى هذه الملكية .

يقينا ان الطبقة العاملة لا تتوصل دفعة واحدة الى ادراك رسالتها التاريخية ومهامها ؛ وهى تخضع فى البدء لنفوذ البرجوازية الروحى ، ولكنها فى سياق النضال السياسي والاقتصادى والايديولوجى ، تتحرر تدريجيا من تاثير البرجوازية ، وتقتنع بتجربتها الخاصة بضرورة خوض النضال بصورة مستقلة من اجل حقوقها ومن اجل مصالح الشعب باسره . وقد جرت هذه العملية فى النصف الاول من القرن التاسع عشر فى مختلف البلدان باشكال مختلفة ، ولكن جوهرها كان واحدا فى كل مكان .

انخرطت انجلترا فى طريق التطور الرأسمـــالى قبل سائر البلدان . ولهذا صفيت فيها قبل غيرها جميع العلاقات الاقطاعية تقريبا فى الميدان الاقتصادى ، وتكون النظام السياسى البرجوازى ، وتطورت الحركة العمالية .

كانت مسالـة اشاعة الديموقراطية فى النظــام الانتخابى المسالة الاساسية فى الحياة السياسية فى ذلك الزمن ، لأن النواب الى البرلمان (مجلس العموم) كانوا ينتخبون بموجب القوانين السارية المفعول آنذاك ، لا حسب عدد معين من السكان ، بل حسب تقسيمات ادارية مختلفة من حيث المساحة وعدد السكان . وبالنتيجة كان يصل الى البرلمان على العموم افراد يملكون الاراضى اى الاريستقراطية الزراعية وطواغيت المال ؛ وبما ان المدن الكبيرة والاماكن القليلة السكان كانت متساوية من حيث التمثيل ، فان نواب المدن فى البرلمان كانوا اقلية . وقد كان هذا النظام التمثيلى بقية معينة عن الاقطاعية فى الميدان السياسى ، تكبح تطور الصناعة . وفى عام ١٨١٥ ، اصدر البرلمان ، المعبر عن مصالح الاقطاعيين ، ما يسمى « بقوانين الحبوب » التى رفعت اسعار الحبوب . وكان ذلك فى فائدة ملاكى الاراضى ويناقض مصالح البرجوازية الصناعية التى اضطرت الى زيادة اجور العمال لكى لا يموتوا جوعا ؛ وقد افضى الى تردى وضع الشغيلة . وفى عام ١٨١٩ ، صدر قانون بفرض ضرائب جمركية على الصوف . وقد صعبت هذه الضرائب تطور الفرع القيادى فى الصناعة الانجليزية ، اى صناعة النسيج .

وفى هذه الاحوال ، اخذت البرجوازيـــة ذات الميــــول الراديكالية ، واشد ممثليها حزما يطالبون بتطبيق الحق الانتخابى

العام ، بينما سعى ممثلو البرجوازية الاكثر احتراسا الى تغيير النظام الانتخابى بحيث ينتخب النواب تبعا لعدد السكان ، على ان لا يتمتع بحق الانتخاب الا الذين يتجاوز دخلهم اجرة العامل ويعيشون فى المكان المعنى فترة معينة من الزمن . وانشأت البرجوازية منظماتها السياسية وزادت عدد الجرائد والمجلات من اجل الترويج لافكارها .

فى ذلك الوقت ، انخرطت الطبقة العاملـــة فى انجلترا فى النضال السياسى بل ان الحركة العمالية فى هذا البلد بدأت فى اواخر القرن الثامن عشر وتجلت فى كون العمال حطموا الآلات فى حالات غير نادرة . وسبب ذلك ان يوم العمل كان يدوم ١٤-١٦ ساعة ، وان عمل النساء والاولاد كان يستغل على نطاق واسع مع العلم ان اجور النساء والاولاد كانت اقل من اجور الرجال . وكانوا يرهقون العمال بالغرامات والتدابير التعسفية . وفى المصانع والمعامل كان يشتغل فلاحو وحرفيو الامس الذين لا يفهمون ضرورة استعمال الآلات ويظنون ان الآلات بالذات هى المسؤولة عن اوضاعهم الرهيبة . ولهذا عطل العمـــال اولا فى انجلترا ثم فى البلدان الاخــرى ، الآلات والتجهيزات ، معبرين بذلك عن احتجاجهم على شروط الحياة الرهيبة . وقد أسميت هذه الحركة فى انجلترا بالحركة «اللودّية» نسبة الى العامل الخرافى «لودّ» الذى كان اول من حطم الآلة وتحرر بالتالى ، حسب الخرافة ، من الاستثمار . واتخذت الحركة طابعا واسعا ، فتدخلت الحكومة دفاعا عن البرجوازية واصدرت فى البدء (عام ١٧٨٢) قانونا يعاقب بالسجن مدة طويلة اولئك الذين يخربون الآلات ، ثم اصدرت قانونا ثانيا (عام ١٨١٣) يعاقب بالموت على ذلك .

فى مستهل القرن التاسع عشر ، اخذ العمـــال يشتركون

بنشاط متزايد ابدا فى النضال من اجل تطبيق الاصلاح الانتخابى ولا سيما منهم اولئك الذين يسكنون فى المراكز الصناعية الكبيرة كلندن ومنشستر وبيرمينغيم وغيرها . وقد اضفى اشتراك العمال فى النضال من اجل الاصلاح الانتخابى على هذه الحملة السياسية نطاقا واسعا . وفى عام ١٨٣٢ ، اصدرت الحكومة ، خوفا من تطور الحركة لاحقا ، قانونا تغير بموجبه نظام الانتخابات الى البرلمان ونال بموجبه حق التصويت جميع الذين يحصلون على ايرادات كبيرة ، اى ان مطالب البرجوازية الكبيرة قد تحققت . وبعد ذلك ، انصرفت البرجوازية الليبيرالية على العموم عن النضال فى سبيل الاصلاح الانتخابى ، وانتقلت المبادرة الى ايدى البروليتاريا والبرجوازية الراديكالية .

لم تنل البروليتاريا شيئا من تغيير نظام الانتخابات ، ولهذا شرع العمال ينفصلون عن البرجوازية ويشكلون منظمات خاصة بهم . ففى عام ١٨٣٦ ، مثلا ، تأسست فى لندن جمعية العمال ، وفى العام التالى ، تقدمت الجمعية ببرنامج للاصلاح الانتخابى اسمه الشارته (الميثاق) ، ومن هذه الكلمة ، اسميت الحركة كلها بالحركة «الشارتية» او الميثاقية وقد انضم الى الى الحركة ممثلو البرجوازية الراديكالية . نشر الميثاق ، وشرعوا يبحثونه فى الاجتماعات الجماهيرية . فمنعت الحكومة عقد الاجتماعات الحاشدة الليلية لكى تحرم العمال من امكانية الاشتراك فيها . ومع ذلك اتسعت الحركة ونمت . وفى ٢٨ ايار (مايو) ١٨٣٨ اشترك فى اجتماع حاشد فىغلاسكو زهاء ٢٠٠ الف شخص ، وفى منشستر قرابة ٤٠٠ الف شخص . وانتخبت الاجتماعات الحاشدة رسلا الى المؤتمر الاول للشارتيين الذى انعقد فى لندن فى ٤ شباط (فبراير) ١٨٣٩ . وانتخب المؤتمر مجلسا (كونفانسيون) كان ينبغى له ان ياخذ على عاتقه قيادة

الحركة الشارتية . ولكن وجود ممثلى البرجوازية فى المجلس عرقل عمله . وقد قام المجلس بحملة لجمع التواقيع على ميثاق يطالب بتطبيق الحق الانتخابى العام والاقتراع السرى ، وتقسيم الدوائر الانتخابية تقسيما متساويا ، والغاء كل نوع من القيود المالية بالنسبة للمرشحين الى البرلمان واعضاء البرلمان ، وتجديد الانتخابات للبرلمان سنويا ودفع مرتب للنواب . وقد جمع بالاجمال ١٢٨٠٠٠٠ توقيع ولكن البرلمان رفض النظر فى عريضة الشارتيين .

بيد ان اخفاق العريضة الاولى لم يخف العمال . ولكن ممثلى البرجوازية ، وقد رأوا ان الحركة تكتسب طابعا جماهيريا ، فضلوا الانصراف عنها ، واظهروا بالتالى جوهرهم الطبقى الحقيقى . بل انهم عدلوا حتى عن النضال من اجل تطبيق الاصلاح البرجوازى الديموقراطى . ومذ ذلك اصبحت الشارتية حركة بروليتارية صرف . واكتسبت الجمعية الشارتية الوطنية التى انشئت فى تموز (يوليو) ١٨٤٠ سمات تتميز بها منظمات العمال . وكان للجمعية نظام داخلى ولجنة تنفيذية دائمة ، وكان اعضاؤها يدفعون اشتراكاتهم بانتظام .

وضعت الجمعية ميثاقا جديدا تضمن ايضا جملة من الموضوعات الاجتماعية . فقد اشار الميثاق مثلا الى شروط حياة العمال الرهيبة والى عبودية العمل ، والى الاستبداد السياسى . ومن جديد ، انظمت حملة من اجل جمع التواقيع ، واحيلت العريضة التى وقعها اكثر من ٣ ملايين شخص الى البرلمان ، ولكن البرلمان رفض من جديد ان ينظر فيها . آنذاك تدفقت فى عموم البلاد موجة من الاضرابات ، وفى عام ١٨٤٧ اضطر البرلمان الى اصدار قانون بتحديد يوم العمل بعشر ساعات .

قضت الثورة البرجوازية فى فرنسا على اسس الاقطاعية ، ولكنها أبقت عددا غير قليل من الرواسب سواء أفى الحياة الاقتصادية ام فى الحياة السياسية . ففى الميدان السياسى ، كانت فرنسا بلدا اكثر تاخرا ؛ فبعد هزيمة نابوليون ، أعيد النظام الملكى . كانت سلطة الملك محدودة بسلطة البرلمان المتالف من مجلسين : مجلس الشيوخ الذى كان الملك يعين اعضاءه ، ومجلس النواب الذى كان ينتخب اعضاؤه من عداد اولئك الذين يبلغ دخلهم السنوى ٣٠٠ فرنك على الاقل ويعيشون فى مكان معين مدة معينة . وكان على النواب انفسهم ان يبلغ دخلهم السنوى ١٠٠٠ فرنك على الاقل . وكان هذا ، بالطبع ، يحدد سلفا تركيب البرلمان الذى كان يعمل بالاتفاق مع الملك لما فيه مصلحة ملاكى الاراضى . وقد شجع الملك والبرلمان ابقاء اسعار الخشب عالية ، اذ كانوا فى ذلك الوقت يصنعون من الخشب الفحم لصناعة التعدين ، الامر الذى ادى الى عرقلة تطور الصناعة الثقيلة .

كذلك قاومت حكومة فرنســا تطبيق الاصلاح الزراعى . كانت الزراعة تضطلع بالدور الاهم فى حياة البلد لأن الصناعة كانت لا تزال غير متطورة كفاية . ولكن الزراعة كانت صغيرة ، مبعثرة ، ولم تكن الطرائق الرأسمالية للانتاج الزراعى معمولا بها الا فى ثلث الاراضى المحروثة . وكان نظام المناصفة الذى يترتب بموجبه على مستاجر الارض ان يقدم لمالكها نصف الغلة يعيق تطور الزراعة لاحقا . ولهذا لم يكن للمستاجرين مصلحة فى زيادة المردود ، فى زيادة بضاعية انتاج المنتوجات الزراعية . ناهيك بان الحكومة فرضت على استثمارات الفلاحين ضرائب كبيرة للغاية اعاقت تطور الانتاج البضاعى .

وقد ارتبط تطور الاقتصاد الفرنسى لاحقا بتغيير النظام السياسى . وهذا ما طالبت به البرجوازية الصناعية والبروليتاريا على السواء . فقد مرت البروليتارية الفرنسية فى مدرسة طيبة من النضال ضد الاستبداد والاضطهاد ولذا انصرفت الى النضال بنشاط ضد النظام القائم . وانضم اوعى البروليتاريين الى النوادى السياسية التى انشأها ممثلو البرجوازية الراديكالية . وفى هذه النوادى كانوا يبحثون الوضع الداخلى فى البلاد ويضعون برنامجا لتأليف حكومة جديدة . ولكن البرجوازية الراديكالية ذاتها رفضت ان تنظر فى مسألة زيادة الاجور ، ومسألة تقصير يوم العمل ومسألة تحسين الشروط السكنية ، الخ . . ولهذا شرع العمال يؤسسون نواد لهم ويطرحون على بساط البحث القضايا التى تهمهم . ولكنهم لم يقتصروا على البحث . وفى جملة من الحالات ، عمد العمال ، وقد بلغوا حد اليأس بسبب من اوضاعهم المادية المرهقة ، الى اشعال لهيب الانتفاضات على النظام القائم وعلى ارباب عملهم . ففى عام ١٨٣١ ، مثلا ، خرج العمال فى مدينة ليون الى الشارع مطالبين بزيادة الاجور . فاستقبلهم الجنود بالرصاص . آنذاك استولى العمال على الاسلحة وحرروا المدينة واقاموا سلطتهم . وبعد فترة وجيزة ، قمعت الانتفاضة ، ولكن فى العام التالى انتفض عمال باريس ، وفى عام ١٨٣٣ انتفضت بروليتاريا ليون من جديد .

بينت انتفاضتا ليون ان قوة سياسية جديدة قد دخلت المسرح السياسى هى الطبقة العاملة . وبدأ العمال يدركون ان مصالح البرجوازية مناقضة لمصالح البروليتاريا .

بعد انتفاضتى ليون ، سنّت الحكومة قانونا يمنع منظمات العمال . آنذاك طفق العمال يشكلون جمعيات سرية . وفى باريس ، نشأت منظمة «فصول السنة» ؛ ونحو عام ١٨٣٩ ،

بلغ عدد اعضائها قرابة اربعة او خمسة آلاف عضو . ولم تكن الجمعية مرتبطة بالجماهير ولهذا ، عندما حاول انصارها فى ١٢ ايار (مايو) ١٨٣٩ الاستيلاء على السلطة ، تمكنوا فقط من الاستيلاء على دار البلدية وعلى مركز بوليسى واحد ، واثر ذلك ، فرقهم رجال الدرك .

وقد عاندت الحكومة الفرنسية ولم تشأ ان تاخذ مطالب الشعب بالحسبان . ويوما بعد يوم ، كان الاستياء من سياسة الحكومة يتفاقم باستمرار . ونضجت الثورة فى فرنسا .

المانيا عشية الثورة

نحو السنوات الاربعين من القرن التاسع عشر ، لم تكن قد قامت بعد ثورة برجوازية فى المانيا . وكانت هذه البلاد مقسمة الى جملة من الدويلات المستقلة . كان الاتحاد الالمانى يضم شكلا ٣٤ دويلة و ٤ مدن حرة . وكانت هيئة الاتحاد العليا هى البوندستاغ الذى لم يكن يملك عمليا اى سلطة : فلم يكن له لا جيش ولا حقوق قضائية ولا ممثلون ديبلوماسيون فى الخارج . ولم تكن قرارات البوندستاغ تصبح سارية المفعول الا بعد المصادقة عليها من قبل جميع رؤساء الدويلات والمدن ، اى انه لم تكن قد تشكلت بعد فى المانيا دولة مركزية بوصفها اساسا لتطور الرأسمالية . ولم تكن ثمة فى البلاد سوق داخلية موحدة ، وكانت الصلات التجارية بين مختلف الدويلات الالمانية تواجه مصاعب الحواجز الجمركية .

فى هذه الاحوال ، كانت الرأسمالية فى المانيا تتطور بصعوبة كبرى . ففى مرحلة ١٨١٨–١٨٣٤ فقط ، تشكل الاتحاد الجمركى الذى ضم ١٨ دويلة المانية يبلغ عدد سكانها ٢٣ مليون نسمة .

وكانت الصناعة والمدن تنمو ببطء . ففى السنوات الاربعين من القرن التاسع عشر ، كان عدد السكان فى اكبر المدن الالمانية ال ١٢ اكثر بقليل من عدد سكان باريس . ونحو منتصف القرن التاسع عشر ، كان الانقلاب الصناعى فى المانيا لم يقطع بعد غير مرحلته الاولية .

وواجهت البرجوازية الالمانية مهمة القيام بالثورة البرجوازية ، وانشـــاء دولة مركزية ، والظفر بالسلطة . ولكن البرجوازية الالمانية الجبانة فضلت الامتناع عن طرح مسالة تغيير النظام السياسى ، والسير فى طريق الاصلاحات .

اما الطبقة العاملة الالمانية التى تطورت بعد الطبقة العاملة فى انجلترا وفرنسا ، فقد بدأت تناضل فى منتصف القرن التاسع عشر ، وحاولت ان تنشئ منظمات لها وتقدمت بمطالبها فى النضال . ونظرا لصرامة النظام البوليسى ، اسس العمال الالمان منظماتهم فى الخارج ، فى سويسرا وانجلترا ، حيث النظام السياسى كان اكثر ديموقراطية ، وحاولوا من الخارج ان يقودوا الحركة العمالية ، ومن امثال هذه المنظمات كانت منظمة «اتحاد الشعب الالمانى» . ولكن هذه المنظمة ، شانها شان غيرها ، كانت ضعيفة الارتباط بعمال الدويلات الالمانية ولهذا لم تستطع فى الواقع ان تقود الحركة العمالية فعلا .

ومع ذلك ، شرع العمال يهبون بصورة سافرة الى الدفاع عن حقوقهم . فان عمال سيليزيا (وكانت اكثر مناطق المانيا تطورا فى المضمار الصناعى) الذين كانوا يعانون احوالا اقتصادية لا تطاق ، قد قاموا بانتفاضة على الرأسماليين فى عام ١٨٤٤ . فاسرعت الحكومة وارسلت الى سيليزيا القوات المسلحة للدفاع عن مصالح المستثمرين .

ونحو منتصف القرن التاسع عشر ، طفقت المانيا تنتقل من طور المانيفاكتوره الى الانتاج الآلى ، واصبح تطورها اللاحق رهنا بسرعة تصفية النظم الاقطاعية فى البلاد . وبما ان حكومة الاتحاد الالمانى لم تكن ترغب فى اجراء الاصلاحات الضرورية ، فقد اخذت الثورة تنضج فى المانيا .

اشكال نضال الطبقة العاملة

فى القرن التاسع عشر ، لجأ العمال دفاعا عن مصالحهم الى مختلف الوسائل والاساليب : المظاهرات ، والاجتماعات الحاشدة ، والاضرابات ، والنضال المسلح . وكانوا فى هذه الاحوال يبتغون مختلف الاهداف ، الاقتصادية منهـــا والسياسية . ولذا تميز شكلان لنضال الطبقة العاملة هما الشكل الاقتصادى اى النضال فى سبيل مصالحهم المباشرة (زيادة الاجور ، تقصير يوم العمل ، شروط سكنية لائقة ، الخ .) والشكل السياسى اى النضال فى سبيل تغيير سياسة الحكومة والنظام القائم . وفى سياق هذا النضال ، اخذ العمال يؤسسون منظمات لهم هى النقابات ومختلف اصناف الرابطات والجمعيات . وكانت اشكال المنظمات وفعالية عملها ، وصلاتها بالجماهير ، رهنا بالظروف التاريخية الملموسة اى بالنظام السياسى فى البلد المعنى ، وتجربة نضال الطبقة العاملة ، والاحوال الاقتصادية لمعيشتها ، الخ . .

ولكن الحركة العمالية فى ذلك الزمن كانت تتسم على العموم بطابع عفوى . ولم تكن لدى العمال بعد نظرات واحدة الى العالم والمجتمع وتطوره والى دورهم الطبقى التاريخى ، ولم تكن لديهم ايديولوجية مشتركة . ولهذا كانت نضالات العمال متفرقة مبعثرة وتمنى بالاخفاق . ومع ذلك كانت اوضاع العمال الاقتصادية فى

مختلف البلدان واحدة . وطفق العمال يصبحون حملة ونقلة اسلوب الانتاج الاجتماعى الجديد الذى يجعل اسلوب الاستملاك الخاص لمنتوجات العمل الاجتماعى امرا ضارا لا حاجة اليه . وهذا ما ادى الى نشوء ضرورة موضوعية تقضى بصياغة ايديولوجية خاصة للطبقة العاملة ، مناقضة بصورة جذرية للايديولوجية البرجوازية التى تسعى الى صيانة الملكية الخاصة لادوات ووسائل الانتاج . ان الايديولوجية البرجوازية ترى فى المجتمع الرأسمالى المرحلة العليا من التطور ولا تعتقد بوجود البشرية دون الملكية الخاصة .

وهذا يعنى انه ينبغى للطبقة العاملة ، لأجل النضال الناجح ضد البرجوازية ، ان تصوغ ايديولوجية لها ، وتدرك رسالتها التاريخية القاضية بتغيير البنيان الاجتماعى . وهذه المهمة لا يمكن ان يؤديها غير ايديولوجيى الطبقة العاملة ، غير مفكرى الطبقة العاملة ، اى اناس لا يقومون بالعمل الجسدى ويدركون الضرورة التاريخية القاضية بالاستعاضة عن النظام الرأسمالى بنظام جديد ، اشتراكى ، يرتكز على الملكية الاجتماعية ، العامة لادوات العمل ولوسائل الانتاج .

٢ ــ ظهور الاشتراكية العلمية

الاشتراكية الطوباوية

حتى منتصف القرن التاسع عشر ، كان العمال على العموم متاثرين بتاثير الافكار البرجوازية الروحى او كانوا يسترشدون بافكار الاشتراكية الطوباوية (الخيالية) . لقد انبثقت الاشتراكية الطوباوية قبل ذاك بوقت طويل ، مع ظهور الرأسمالية والطبقة

العاملة . وكانت تفصح قبل كل شيء عن احتجاج الطبقة العاملة على الاضطهاد والاستثمار ، وعن طموحها وسعيها الى اقامة نظام جديد ، عادل . وقد اخضع اوائل ممثلى الاشتراكية الطوباوية والشيوعية الطوباوية - توماس مور (١٤٧٨-١٥٣٥) ، توماس كامبانيللا (١٥٦٥-١٦٣٩) ، فرانسوا-نويل بابوف (١٧٦٠-١٧٩٨) ، موريللى ، وغيرهم - نواقص المجتمع الاستثمارى لنقد جدى ، وطرحوا جملة من الافكار عن كيفية تنظيم مجتمع جديد ، عادل . وبرأيهم انه لا بدّ للمجتمع الجديد من ان يقيم المساواة بين جميع الناس فى جميع ميادين الحياة ، السياسى والاقتصادى والروحى . ولكن الطوباويين لم يتمكنوا من الاجابة عن السؤال الرئيسى : كيف ينبغى انشاء هذا المجتمع الجديد . وعلى العموم ، صوروا المجتمع الجديد موجودا فى مكان ما بعيدا عن الحياة الواقعية . فان توماس مور ، مثلا ، قد اقام مجتمعه فى جزيرة أوطوبيا البعيدة ، ومذ ذاك غدت كلمة أوطوبيا (طوباوية) مرادفة لكل ما هو غير واقعى ، غير محقق .

فى القرن التاسع عشر ، طور سان سيمون (١٧٦٠-١٨٢٥) وشارل فوريه (١٧٧٢-١٨٣٧) وروبرت اوين (١٧٧١-١٨٥٨) الاشتراكية الطوباوية . وقد رأوا تناقضات المجتمع الرأسمالى واعتبروا عن حق وصواب ان الكادحين لم يحصلوا بعد الثورة البرجوازية لا على الحرية ولا على المساواة ولا على الاخوة ، رغم ان هذه المطالب رسمت على رايـة الثورة البرجوازية . وباستياء وغضب ، وصم الاشتراكيون - الطوباويون الرأسمالية بالخزى والعار ، وفضحوا قروحها وعيوبها وعارضوها بمثال نظام اجتماعى جديد خال من الاستثمار والتناقضات الاجتماعية . واقر الاشتراكيون - الطوباويون فى القرن التاسع عشر باهمية تطوير الانتاج من اجل تحقيق المبدأ الاشتراكى القائل بالتوزيع

حسب العمل ، ومن اجل تلبية حاجات الناس الاساسية . بل انهم حاولوا ان يعرضوا سبيلا معينا للانتقال من المجتمع الرأسمالى الى المجتمع الاشتراكى . فان فوريه ، مثلا ، قد اعتبر انه ينبغى تنظيم المجتمع الجديد حسب نموذج «الفالانجات» («الكتائب») ، على ان تتألف كل «فالانج» من ٣٠٠–٤٠٠ عائلة (قرابة ١٥٠٠–١٦٠٠ شخص) وتبنى حياتها على المبادئ الاشتراكية . وكان لا بدّ لمثال هذه «الفالانجات» ان تقنع بقية الناس بضرورة بناء المجتمع الجديد .

وعندما انشر فوريه كتابه الذى يبسط فيه افكاره الاساسية لبناء المجتمع الجديد ، كان يأمل ان ينوجد رأسمالى «طيب» يقدم رساميله طوعا واختيارا ، ان ينوجد متحمسون يريدون ان يعملوا من اجل بناء المجتمع الجديد ، وان «الفالانج» سيبنى . واعلن انه يمكن لكل راغب ان يأتى اليه فى وقت معين من كل يوم ، ولكن احدا لم يأت اليه طيلة حياته كلها . وقد مات فوريه ولم يدرك لماذا لم تلق افكاره التأييد . بل ان سان سيمون صرف ماله على إنشاء مجتمع غير كبير وحاول ان ينظم فيه الحياة على مبادئ جديدة ، ولكن سرعان ما تحول هذا المجتمع الى مؤسسة رأسمالية عادية بجميع تناقضاتها .

لماذا اصيب الاشتراكيون – الطوباويون بالاخفاق ؟ القضية انهم لم يضعوا بعد علما حقيقيا عن المجتمع . وفى نظرياتهم ، اعتمدوا كثيرا على الافكار البرجوازية القائلة بثبات وعدم تغير الطبيعة البشرية ، وبتشابه ووحدة القوانين الاجتماعية بالنسبة لجميع الازمنة . وظنوا ان القوانين الاجتماعية اشبه بالقوانين الفيزيائية ، ولم يميزوا بين الرأسمالى والعامل معتبرين ان جميع الناس ينقسمون الى اخيار واشرار . وكما ان الشحنات المتماثلة فى الطبيعة تتنافر والشحنات المختلفة تتجاذب ، كذلك ، برأى

الاشتراكيين – الطوباويين ، يتنافر الناس ذوى الميول الواحدة فى المجتمع ولا يتعايشون ، بينا ذوو الميول المختلفة يتعايشون جيدا . ان نقل القوانين الفيزيائية على هذا النحو الخاطئ من اجل دراسة المجتمع لم ينجم فقط عن تأثير الافكار البرجوازية ، بل نجم ايضا عن المستوى غير الكافى الذى بلغه تطور العلوم الاجتماعية والطبيعية فى ذلك الزمن ، وكذلك عن المستوى المنخفض الذى بلغه تطور الرأسمالية والحركة العمالية ، والذى لم يتح انشاء نظرية علمية عن التطور الاجتماعى .

ولم يكن فى وسع الاشتراكيين – الطوباويين ان يكشفوا قوانين تطور المجتمع الرأسمالى ويجدوا القوة الاجتماعية القادرة على ان تصبح صانعة المجتمع الجديد .

الفلسفة الالمانية الكلاسيكية

نحو منتصف القرن التاسع عشر ، بلغت العلوم الطبيعية والاجتماعية مستوى من التطور اتاح انشاء فلسفة علمية حقا ، اى مذهب عن أعم قوانين تطور المجتمع والطبيعة . فقد بينت العلوم الطبيعية ان العالم لم يخلقه احد ، بل يتطور وفق قوانينه الخاصة . ففى الفيزياء ، مثلا ، اكتشف قانون الجاذبية العامة الذى تخضع له جميع ظاهرات الطبيعة ، وفى الكيمياء ، اكتشف قانون بقاء المادة الذى يقول ان لا شيء يخلق فى العالم ولا شيء يزول دون اثر ، انما يتغير فقط شكل وجود الشيء . وبفضل تقدم العلوم الطبيعية ، سارت المادية والدياليكتيك شوطا ابعد فى تطورهما .

وقد أسهم الفيلسوف الالمانى لوذفيغ فورباخ (١٨٠٤ – ١٨٧٢) بقسط كبير جدا فى الفلسفة المادية . وأستخلص فيلسوف

المانى آخر ، هو جيورج ولهلم فردريك هيغل (١٧٧٠-١٨٣١) طريقة تلجأ اليها العلوم الحديثة فى تحليل ظاهرات الطبيعة والمجتمع ، ورفع الدياليكتيك الى درجة جديدة تقول بانه يجب النظر الى كل شيء من وجهة نظر التغير الدائم والتطور الدائم .

ولكن لا فورباخ ولا هيغل استطاعا ابتكار فلسفة علمية حقا . فان فورباخ ، مثلا ، لم يعترف بالدياليكتيك ، وانكر بالتالى طريقة المعرفة ، التى يلجأ اليها العلم ، بينا وقف هيغل مواقف مثالية وذاد عن الرأى القائل ان ما تسمى بالفكرة المطلقة هى التى تتطور بموجب قوانين الدياليكتيك ، وليس الطبيعة والمجتمع . وفضلا عن ذلك ، حصر تطوّر هذه الفكرة فى تأسيس الملكية الدستورية البروسية معتبرا اياها اسمى تعبير عن الفكرة المطلقة وذروة تطور المجتمع .

الاقتصاد السياسى البرجوازى

مع تطور اسلوب الانتاج الرأسمالى تطور ايضا فرع جديد من العلوم هو الاقتصاد السياسى . وقد كان بيد البرجوازية سلاحا فكريا فى النضال ضد الاقطاعية .

فعندما برزت البرجوازية على مسرح التاريخ كقوة تقدمية ، كانت لها مصلحة فى معرفة قوانين تطور الانتاج الرأسمالى معرفة علمية وفى القضاء على العلاقات الاقطاعية التى كانت تعيق توطيد سلطة الرأسمال . وفى تلك المرحلة ، تكوّن الاقتصاد السياسى البرجوازى الذى نعت بالكلاسيكى . اما مؤسسوه فكانوا العلماء الانجليز وليم بيتى (١٦٢٣-١٦٨٧) وآدم سميث (١٧٢٣-١٧٩٠) ودافيد ريكاردو (١٧٧٢-١٨٢٣) .

لقد اكتشف الاقتصاد السياسي البرجوازي الكلاسيكي قانونا هاما كما هو عليه قانون الصلة بين كمية العمل المنفق على انتاج بضاعة معينة وبين قيمة البضاعة ، وارسى بداية الدراسة العلمية لأهم ميادين العلاقات بين الناس ، هو ميدان علاقات الانتاج . كذلك سارت العلوم الاجتماعية الاخرى اى التاريخ والحقوق وعلم الجمال ، الخ .، شوطا جديدا فى طريق التطور .

ولكن العلوم الاجتماعية كانت مفعمة بنظرات فلسفية مثالية ، ولم تاخذ بالحسبان ان اعمال الناس فى المجتمع تحددها قبل كل شيء العوامل المادية ، اى موقفهم من نظام الانتاج المتكوّن بصورة مستقلة عن ارادتهم ، اى انتسابهم الى طبقة معينة . ولقد وقف العلماء ، سواء اشاؤوا ام لا ، فى مواقف البرجوازية ولم يتصوروا المجتمع بلا طبقات ، بلا ملكية خاصة .

لأجل انشاء فلسفة علمية ، كان ينبغى امتلاك المعارف التى كدستها البشرية فى سياق تاريخها كله وكشف قوانين المجتمع الرأسمالى وتناقضاته ، وفهم المهمة التاريخية الملقاة على عاتق الطبقة العاملة والقائلة ببناء المجتمع الجديد فهما صحيحا . وقد كان ماركس وانجلس مبدعى هذه الفلسفة ، مبدعى ايديولوجية الطبقة العاملة .

كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣) وفريدريك انجلس (١٨٢٠-١٨٩٥)

ولد كارل ماركس فى ٥ ايار (مايو) ١٨١٨ فى مدينة ترير الواقعة فى اقليم الراين ، الذى كان من اكثر الاقاليم الالمانية تطورا . وكان والده محاميا معروفا فى ذلك الوقت وشخصية اجتماعية تقدمية . فى عام ١٨٤٢ ، تخرج ماركس من جامعة برلين بنجاح ، وبدأ يكتب فى جريدة برجوازية تقدمية ، وسرعان

ما عيّن رئيسا لتحريرها . وقد كتب فى «الجريدة الرينانية» ضد النظم الاقطاعية فى المانيا ، وضد سياسة الحكومة الاستبدادية . وفى الوقت انفسـه ، واصل ماركس الانصراف بكل جهد الى دراسة الفلسفة والحقوق والاقتصاد السياسى وتوصل تدريجيا الى الاقتناع بان النضال فى سبيل الاصلاحات الديموقراطية لا يكفى لتغيير الوضع القائم ، انما ينبغى تغيير كل النظام البرجوازى من جذوره واقامة نظام جديد ، شيوعى هو وحده الجدير بالانسان . كذلك فهم ماركس ضرورة التعليل العلمى لبناء النظام الجديد ، ضرورة صياغة فلسفة جديدة .

ولد فريدريك انجلس فى عام ١٨٢٠ ، فى اقليم الراين ايضا ، فى اسرة صاحب مصنع . وبعد تخرجه من الجامعة ، سافر عام ١٨٤٢ الى انجلترا لأجل التدرب فى شركة تخص والده . وفى انجلترا تعرف على الحركة الشارتية (الميثاقية) ، فكانت تلك لحظة انعطاف فى حياته : فقد بدأ يبحث عن جواب على السؤال التالى : لماذا يعيش العمال فى ظروف مرهقة حتى فى بلد طليعى كانجلترا . وشرع انجلس يدرس بكل جدّ الاقتصاد السياسى والفلسفة وغيرهما من العلوم ويتوصل الى نفس الاستنتاجات التى توصل اليها ماركس .

فى عام ١٨٤٤ ، تلاقى ماركس وانجلس واكتشفا الوحدة التامة فى آرائهما . ومذ ذاك حتى وفاة ماركس ، تعاونا فى وضع اسس الفلسفة العلمية . وقد كتبا ابحاثا مثل «مساهمة فى نقد فلسفة الحق الهيغلية» و«حالة الطبقة العاملة فى انجلترا» و«العائلة المقدسة» ، و«الايديولوجية الالمانية» وغيرها ، وفيها رسما الافكار الرئيسية لفلسفتهما المقبلة . ونحو عام ١٨٤٦ ، كان مذهبهما ، الذى اسمى فيما بعد بالماركسية ، قد نضج ، وقد كتبا «بيان الحزب الشيوعى» (١٨٤٧) ، حيث عرضا نظراتهما

الى تطور المجتمع والى دور البروليتاريا ، والخ .، من وجهة نظر فلسفة جديدة هى الفلسفة الشيوعية .

وفيما بعد تطورت الماركسية وارتقت بفضل مؤسسيهـا وكذلك بفضل اتباعهما الذين كان ابرزهم زعيم الثورة البروليتارية فى روسيا فلاديمير ايليتش لينين . وقد تحولت الماركسية الى نظام متناسق متجانس من الآراء . وكانت مصادرها الفكرية هى الاقتصـاد السياسى الانجليزى والفلسفة الالمانية والاشتراكية الطوباوية الفرنسية . وقد أخذ ماركس وانجلس اثمن ما فى هذه المصادر الثلاثة ، وعدلاه وابتكرا على هذا الاساس الفلسفة العلمية ، اى ايديولوجية الطبقة العاملة .

ان مصادر الماركسية الثلاثة تناسبها اقسامهـا المكَونة الثلاثة .

المادية الدياليكتيكية والتاريخية

ان العلم الفلسفى اى المادية الدياليكتيكية هى اساس الماركسية النظرى . فان المادية الدياليكتيكية تكشف أعم قوانين الطبيعة والوعى . وهى تعليم يؤكد ان الطبيعة لم يخلقها احد ، بل توجد من الازل وستوجد الى الابد ، وان الوعى هو نتاج تطور الطبيعة ، نتاج المادة المنظمة تنظيما عاليا . وعلى هذا النحو ، تقف المادية الدياليكتيكية مواقف مادية حقا وفعلا . وهى فى الوقت نفسه تبحث بصورة دياليكتيكية فى تطور المادة والوعى ، اى من حيث تطورهما الدائم وتغيرهما الدائم . وللمرة الاولى ، جمعت المادية الدياليكتيكية بين الدياليكتيك والمادية ، فكشفت القوانين الموجودة فعلا والملازمة للمادة بكليتها .

وقد ربطت الماركسية القوانين العامة لتطور المادة بالقوانين الخاصة الملازمة للمجتمع البشرى .-وهذه القوانين صاغتها المادية

التاريخية . فبما ان المجتمع جزء من الطبيعة ، فهو يخضع لأعم قوانينها التى صاغتهــا المادية الديالكتيكية . وهذا يعنى ان المجتمع يتطور ويتغير بلا انقطاع وفقا لقوانينه . ويتميز المجتمع عن سائر الطبيعة بكونه ملزما بانتاج الخيرات المادية لأجل وجوده وبقائه . ان قوانين تطور الانتاج هى اساس تطور المجتمع . وهذا الاستنتاج يطابق الموقف المادى من الطبيعة على العموم لأنه يقول ان الانتاج المادى بالذات ، لا الوعى ، هو الذى يحدد تطور المجتمع ، وان الوعى ، على العكس ، يتطور بجميع اشكاله تبعا لمستوى تطور الانتاج . ان جميع الافكار الحقوقية والدينية والاخلاقية والجمالية والفلسفية وخلافها وما يناسبها من مؤسسات — الدولة ، الدين ، الخ . ، — رهن بمستوى الانتاج من حيث تطورها . كذلك يحدد مستوى تطور الانتاج العلاقات المتكوّنة فى المجتمع ، وتركيب المجتمع وتنظيمه .

الاقتصاد السياسى الماركسى

تشكل الماديـــة الديالكتيكية والتاريخية القسم الاول من الماركسية . اما قسمها الثانى المكوّن فهو الاقتصاد السياسى اى علم قوانين تطور الانتاج الاجتماعى وتوزيع المنتوجات ، علم اساس حياة المجتمع . فانطلاقا من قوانين تطور المجتمع الاساسية التى اكتشفتها المادية التاريخية ، يبين الاقتصاد السياسى باى نحو يحدد مستوى تطور القوى المنتجة وطابعها علاقات الانتاج فى المجتمع ، وبـــاى نحو يحددان على الاخص اشكال ملكية ادوات ووسائل الانتاج ، والموقف الذى تقفه من هذه الادوات والوسائل مختلف فئات الناس المشتركين فى عملية الانتاج ، واسلوب امتلاك هذه الفئات للمنتوجات وحصتها منها .

ان الانتاج البدائى فى المجتمع البدائى يناسبه الشكل المشاعى البدائى للملكية الذى يوزع بموجبه المنتوج بالتساوى بين جميع اعضاء المجتمع . ومع ظهور ادوات العمل المعدنية ، تظهر الملكية الخاصة لادوات ووسائل الانتاج ، وهذه الملكية مشروطة بضرورة اقتطاع قسم من المنتوج لأجل اعالة ذوى العمل الفكرى . وتقسم الملكية الخاصة المجتمع الى طبقتين متناحرتين ، همـا طبقة المالكين وطبقة غير المالكين ، مع العلم ان المالكين يستأثرون بنتائج عمل غير المالكين ويظهر استثمار الانسان للانسان . ومع نمو الانتاج ، تتغير اشكال الملكية الخاصة : فى البدء ، تظهر الملكية القائمة على الرق ، ثم الملكية الاقطاعية واخيرا الملكية الرأسمالية . وتبعا لذلك تتغير اشكال الاستثمار . وقد اعار ماركس انتباها خاصا لتحليل المجتمع الرأسمالى وبين طابعه الاستثمارى ، الامر الذى لم يكن من الممكن ان يفعلـه الاقتصاديون البرجوازيون الذين سبقوه والذين مجدوا النظام الرأسمالى .

نظرية الشيوعية العلمية

يرتبط القسم المكوّن الثالث من الماركسية ، اى مذهب الشيوعية ارتباطا وثيقا بالاقتصاد السياسى . فقد بيّن الاقتصاد السياسى ان الرأسمالية تطور الانتاج الاجتماعى فى المرحلة الآلية من تاريخها بحيث لا يبقى متناسبا ومتطابقا مع اسلوب الامتلاك الخاص للمنتوجات . وتستنفد الرأسمالية قواها بنفسها وتتحول تدريجيا الى كابح للتطور الاجتماعى كما تحول نظام الرق والنظام الاقطاعى الى كابح فى زمنهما . ولا بد ان يحل محل الرأسمالية النظام الشيوعى الذى يناسب صفة الانتاج الاجتماعية .

وانطلاقا من تحليل المجتمع الرأسمالى ، اكتشف ماركس وانجلس ان للبروليتاريا فى المقام الاول مصلحة فى بناء المجتمع الجديد ، وانه يجب عليها ، بهذا السبيل او ذاك ، وفقا للظروف التاريخية الملموسة ، ان تدك سلطة البرجوازية وتقيم ديكتاتورية البروليتاريا . وبواسطة ديكتاتورية البروليتاريا ، تستعيض الطبقة العاملة عن الشكل الخاص لملكية وسائل الانتاج بالشكل الاجتماعى لهذه الملكية ، وتبنى تدريجيا المجتمع الشيوعى بتأييد جماهير الكادحين الواسعة . ومع بناء المجتمع الشيوعى على وجه الضبط ، يبدأ تاريخ البشرية الحقيقى لأن الانسان سيتمكن آنذاك فقط من تلبية حاجاته المادية والروحية كليا . وفى المجتمع الشيوعى سيكون جميع الناس متطورين تطورا متناسقا ، وسيتم تذليل التناقض بين العمل الفكرى والعمل اليدوى ، بين المدينة والقرية ، الخ ..

٣ ـ ثورات ١٨٤٨ـ١٨٤٩ فى اوروبا

ظهر « بيان الحزب الشيوعى » فى وقت نضج فيه وضع ثورى فى اوروبا وخرجت فيه الطبقة العاملة الى حلبة النضال السياسى .

كانت مهمة الثورة بالنسبة لكثرة من بلدان اوروبا واحدة وهى القضاء على النظم الاقطاعية والاستبدادية التى تكبح تطور الرأسمالية . وفى الوقت نفسه ، كان للحركة الثورية فى عامى ١٨٤٨ و١٨٤٩ اهدافها الخاصة فى مختلف البلدان . ففى فرنسا حيث قضى على الاقطاعية والاستبداد ابان ثورة ١٧٨٩ـ١٧٩٤ ، كانت مهمة ثورة ١٨٤٨ـ١٨٤٩ من الناحية الموضوعية هى الاطاحة بسيطرة الاريستقراطية المالية واقامة سيطرة طبقة

البرجوازية باكملها . وفى المانيا وايطاليا ، كانت المهمة الرئيسية امام ثورة ١٨٤٨-١٨٤٩ هى تصفية تجزؤ البلاد وانشاء دولة وطنية . كذلك واجهت ايطاليا مهمة تحرير شمال البلاد من النير النمساوى . وفى النمسا كان هدف ثورة ١٨٤٨-١٨٤٩ تصفية ملكية آل هابسبورغ وتحرير الشعوب المظلومة من الاستعباد القومى .

فى فرنسا ، كانت قد بقيد قضية بلا حل ، هى قضية السلطة السياسية ومنح الحريات الديموقراطية وازالة رواسب الاقطاعية . الا ان الحكومة برئاسة جيزو رفضت قطعا اجراء الاصلاحات البرجوازية الديموقراطية . آنذاك نشبت الثورة . ففى شباط (فبراير) ١٨٤٨ ، كانت قد عينت مأدبة سياسية دورية ، ولكن الحكومة منعتها . فاثار ذلك استياء الجماهير . وظهرت المتاريس فى شوارع باريس . وهذه المرة ، منيت قوات الحكومة بهزيمة تامة لأن ممثلى البرجوازية الخادمين فى هذه القوات كانوا الى جانب الشعب . فى البدء ، اضطر الملك لويس فيليب الى عزل جيزو ، ثم الى التخلى عن العرش .

وبنتيجة الثورة ، انشئت حكومة برجوازية موقتة . وفضلا عن ممثلى البرجوازية ، ضمت هذه الحكومة ممثلى العمال الذين ظفروا فعلا بالسلطة بنضالهم على المتاريس . وآنذاك لم تطالب الجماهير الشعبية بالحقوق الانتخابية وحسب بل طالبت كذلك باقامة «الجمهورية الاجتماعية» . وانشئ ما أسمى بلجنة لوكسمبورغ لأجل الاهتمام بقضايا العمل . وقد تقدم رئيس اللجنة لويس بلان بجملة من المشاريع لتحسين شروط حياة العمال والفلاحين بما فيها مشروع انشاء ما اسماه بالمستعمرات الزراعية والروابط الانتاجية حيث يشتغل الناس على اساس المبادئ التعاونية ، ومشروع بناء بيوت للعمال تحتوى على دور

حضانة ، ومغاسل ومصابغ عامة ، الخ .. واهتمت اللجنة ذاتها بتسوية النزاعات بين العمال والرأسماليين .

كان انشاء لجنة لوكسمبورغ تنازلا للبروليتاريا الباريسية الثائرة من جانب الاغلبية البرجوازية فى الحكومة الموقتة . وتحت ضغط الجماهير المتواصل ، اصدرت الحكومة فى ٢٨ شباط (فبراير) مرسوما بتنظيم المشاغل الوطنية لأجل العاطلين عن العمل ، وفى ٢ آذار (مارس) مرسوما بتخفيض يوم العمل ساعة واحدة . صحيح ان الحكومة الموقتة انتهجت سياسة فى صالح البرجوازية (فقد ابقيت تقريبا جميع الضرائب التى كانت من نصيب الجماهير الكادحة ، بينما أعفى كبار البرجوازيين من الضرائب ؛ وفى ١٦ آذار (مارس) زيدت الضريبة على الفلاحين ٤٥ بالمئة) ، الا ان وجود ممثلى العمال فيها أقلق البرجوازية شديد القلق . ولهذا حاول ممثلو البرجوازية جهدهم اجراء الانتخابات الى الجمعية التاسيسية باسرع وقت ممكن ، آملين بانها ستكون اكثر رجعية ، خصوصا وان الحكومة الموقتة لم تمس الجهاز القديم باى تعديل بل عهدت اليه باجراء الانتخابات . ويقينا ان هذا الجهاز فعل كل شيء لكى يحول دون العمال وانتخاب ممثليهم الى البرلمان .

ادرك العمـــال الطليعيـون فى باريس جيدا جدا ضرورة تاجيل الانتخابات (بغية الاستعداد لها على نحو افضل) وضرورة اعادة النظر فى تركيب الحكومة الموقتة . فشرع ممثلو البرجوازية يهولون على الفئات المتوسطة وعلى الفلاحين بخطر موهوم هو خطر «مؤامرة شيوعية» . وشوهوا افكار الشيوعية زاعمين ان الشيوعيين يريدون جعل جميع الاشياء ملكا اجتماعيا، عاما ، — لا ادوات ووسائل الانتاج وحسب ، بل الاشياء الشخصية ايضا — وانهم ينادون بالأكل من الطنجرة العامة ، وبشيوعية النساء ،

الخ . . وقد آلت هذه الحملة المعادية للشيوعية ، والمرفقة بضغط مباشر على الشغيلة الى ان العمال احرزوا فى الجمعية التأسيسية ١٨ مقعدا من اصل ٨٨٠ مقعدا .

وطبيعى ان الجمعية التأسيسية لم تعمد الى تلبيـة مطالب العمال بصدد فرض ضريبة على كبار الرأسماليين ، وانشاء لجنة للرقابة على اعمال الحكومة ، وسحب القوات المسلحة من باريس ، ومساعدة العاطلين عن العمل والمعوزين . وقد حلّت لجنة لوكسمبورغ ، واغلقت نوادى العمال ، وزالت المشاغل الوطنية . وحاولت البرجوازية جهدها لكى تتخلص من المشاغل الوطنية لأنها كانت تضم انشط قسم من العمال . وتبعا لذلك ، أعلنت الحكومة فى ٢٢ حزيران (يونيو) ، بعد حل المشاغل الوطنية ، انه ينبغى على جميع من لم يبلغوا بعد الخامسة والعشرين من العمر ان يلتحقوا بالجيش ، وعلى من تجاوزوا هذه السن ان يسافروا الى الاقاليم للقيام باعمال الحفر الردم . وقد كشف هذا القرار الاخير حقيقة نوايا الحكومة ، فقرر العمال ان يدافعوا عن حقوقهم بالسلاح . وقد دامت انتفاضتهم ٤ ايام ، وقمعت بقساوة . وتم اعتقال ٢٥ الف شخص . لقد منيت الانتفاضة بالهزيمة لأنه لم يكن لدى المنتفضين مركز واحد للقيادة ، ولأن صلاتهم بالفلاحين وبعمال المدن الاخرى كانت ضعيفة ولأن الجيش المشكل من انصار البرجوازية كان بكليته الى جانب الحكومة . وكان عدد المنتفضين يتراوح بين ٤٠ و ٤٥ الفا فقط ، بينا بلغ افراد القوات الموالية للحكومة نحو ٣٠٠ الف . ولكن اهمية الانتفاضة عظيمة لأنها كانت اول حرب اهلية بين البروليتاريا والبرجوازية .

بعد هزيمة عمال باريس فى حزيران (يونيو) ، بدأت مرحلة رجعية : فقد زيدت الضريبـــة النقدية على اصدار الصحف ،

الامر الذى حرم العناصر الديموقراطية من امكانية اصدار الجرائد ؛ وفرضت السلطات رقابة صارمة على نشاط النوادى التى كان يجتمع فيها انصار الديموقراطية ؛ والغى المرسوم بتخفيض يوم العمل ؛ وفرضت عقوبة السجن على الذين لا يسددون ديونهم .

وفى ١٢ تشرين الثانى (نوفمبر) ، اعلن دستور جديد نادى شكلا بالحريات الديموقراطية الاساسية : حرية الصحافة والكلام والاجتماع ، الخ . ، ولكنه وضع قيودا كثيرة على تطبيقها فى الواقع ؛ وأسست وظيفة رئيس الجمهورية ؛ وكان رئيس الجمهورية يتمتع بحقوق واسعة جدا بما فيها تعيين الوزراء وكبار ضباط الجيش ، ولم يكن مسؤولا امام البرلمان عن تصرفاته . وبشخص الرئيس ، ملكت البرجوازية سلطة قوية على الشعب .

فى ٢٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٨ ، انتخب لويس بونابرت اول رئيس للجمهورية . وما ان تسلم منصبه حتى صرف من جهاز الدولة الديموقراطيين الذين تسربوا اليه ابان الثورة . وبعد جملة من الاضطرابات فى عام ١٨٤٩ ، هبت فيها العناصر ذات المزاج الديموقراطى ضد السياسة الرجعية التى انتهجتها الحكومة ، سنت الجمعية التشريعية قانونا يفرض شرط الاقامة ثلاث سنوات وجملة من القيود الاخرى ، مما حرم زهاء ٣ ملايين عامل من الحق الانتخابى . وفى الجمعية التشريعية لم تكن تمة وحدة ؛ وبعد الهزيمة الفادحة ، لم يبق فى وسع البروليتاريا ان تشترك بنشاط فى الحركةالاجتماعية . اما الكتل البرجوازية المتعادية فيما بينها ، فقد اتحدت ضد الديموقراطيين الذين شكلوا بدورهم رابطة لهم .

وفى هذه الاحوال ، اعلن لويس بونابرت نفسه ، فى ليلة

الثاني من كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ ، الحاكم الوحيد فى فرنسا ، وحل الجمعية التشريعية ، وفرض حالة الطوارى فى باريس . وسعيا لتأمين سلامته دون انتفاضات الطبقة العاملة ، جاء لويس بونابرت يوم الانقلاب بقوات عسكرية شغلت أهم النقاط فى المدينة . ولهذا تم القضاء بسهولة على المحاولات المنفردة للانتفاض على بونابرت . اما الجمعية التشريعية فقد اعلنت خلع بونابرت واحالته الى المحكمة ، ولكنها لم تستطع ان تفعل اكثر من ذلك .

وهكذا انتهت ثورة منحت البرجوازية الكبيرة السلطة وابقت مسألة تحويل البلاد البرجوازى الديموقراطى معلقة .

وفى عامى ١٨٤٨ و ١٨٤٩ ، نشبت كذلك ثورات فى بلدان اوروبية اخرى : المانيا ، النمسا ، ايطاليا ، بولونيا ، المجر . وجميعها منيت بالهزيمة ، ولم تحل تماما فى اى بلد المهام الموضوعية التى كانت آنذاك تجابه هذه البلدان . ومع ذلك ، لم تذهب المعارك الثورية فى عام ١٨٤٨ عبثا . فقد زعزعت العلاقات والرواسب الاقطاعية فى عدد من البلدان ، وأسهمت فى توطيد الرأسمالية واستمرار تطورها ، وفى انماء وعى البروليتاريا وتنظيمها .

وفى جميع ثورات عامى ١٨٤٨ و ١٨٤٩ ، اضطلعت الجماهير الشعبية بالدور الحاسم . كذلك اشتركت الطبقة العاملة فى الثورات اشتراكا نشيطا . ففى عام ١٨٤٨ ، تقدمت الطبقة العاملة للمرة الاولى فى تاريخ الثورات بمطالبها الاقتصادية والسياسية وللمرة الاولى أظهرت نفسها كطبقة متميزة ، معادية مبدئيا للنظم الاقطاعية وكذلك للنظم البرجوازية .

ان أهم سبب لهزيمة ثورات عامى ١٨٤٨ و ١٨٤٩ كان خيانة البرجوازية الليبرالية (الحارة) التى لم تلتحق بالثورة

الا من اجل استغلال الحركة الشعبية فى غاياتها الطبقية الضيقة . وفى سياق الثورة ، خافت البرجوازية من نشاط الطبقة العاملة ، فاقدمت على الاتفاق مع الملكية ومع الطغمة العسكرية الرجعية ، وخانت الشعب .

٤ ـ منظمات العمال العالمية الاولى . الاممية

بعد هزيمة الثورة فى فرنسا والمانيا وايطاليا ، حلت مرحلة من الرجعية . ولكن الطبقة العاملة لم تبق ما كانت عليه من قبل ، اى طبقة غير واعية وغير منظمة ، ولم تشأ ان تنساق بزمام البرجوازية التى خانتها كلما سنحت لها الفرصة . وقد استخلص زعيما البروليتاريا ماركس وانجلس وانصارهما استنتاجات جدية من الهزائم فى ثورات ١٨٤٨ . واكدت تجربة نضال البروليتاريا صحة الاستنتاج النظرى الوارد فى « بيان الحزب الشيوعى » حول ضرورة اتحاد العمال من جميع البلدان .

ولهذا الغرض ، انشأ ماركس وانجلس ، استنادا الى اتحاد الشيوعيين الذى اسساه فى عام ١٨٤٧ ،جمعية الشغيلة العالمية او الاممية (٢٨ ايلول ـ سبتمبر ١٨٦٤) . وقد دبج ماركس البيان التأسيسى والنظام الداخلى لجمعية الشغيلة العالمية التى اسميت فى البدء باسم الاممية ، فصاغ فيهما الموضوعات الاساسية للماركسية بصدد الطبقة العاملة ورسالتها الاساسية : الظفر بالسلطة السياسية بتضافر الجهود ، وبناء مجتمع جديد . وقد انتظمت الاممية على مبادئ المركزية الديموقراطية ، اى على مبادئ انتخاب جميع الهيئات من القمة الى القاعدة وخضوع الهيئات الدنيا للهيئات العليا . وقسّمت

الاممية الى فروع وطنية ، قومية ، كان ينبغى عليها ان تطبق خط الاممية الواحد .

ومنذ الخطوات الاولى ، بينت الاممية للعمال فائدتها : فاذا نشب اضراب فى مكان ما ، فى بلد ما ، دعمت البلدان الاخرى العمال المضربين ، وحالت دون ذهاب كاسرى الاضراب الى هناك ، الخ . . ويوما بعد يوم ، اخذت شعبية الاممية تتنامى .

كذلك جابهت الاممية كثرة من المصاعب فى نشاطها ؛ فان كثيرين من المشتركين فى الحركة العمالية لم يفهموا الشيوعية العلمية ، وكانوا خاضعين لتاثير مختلف النظريات البرجوازية الصغيرة . فكان لنظريات برودون ولاسال اللذين كانا يقولان بخوض النضال الاقتصادى وحده ضد البرجوازيــة تاثير ملحوظ فى صفوف العمال . وقد بيّن ماركس وانجلس ان نضال الطبقة العاملة الاقتصادى الصرف لا يمكنه ان يؤدى الا الى نجاحات موقتة ، ولا يمكنه ان يغير وضع العمال ، ولا يمكنه ان يقضى على الاستثمار . ان انتقال السلطة الى ايدى الطبقة العاملة والغاء الملكية الخاصة هما وحدهما السبيل الى تحرير العمال وجميع الكادحين من نير الرأسمال . هذا مع العلم ان ماركس لم ينكر اطلاقا اهمية نضال العمال الاقتصادى ، بل بالعكس ؛ فقد قال ان هذا النضال هو عنصر مكوّن من عناصر نضال البروليتاريا الطبقى ؛ ولم يكن نصير الثورات العنيفة وحدها كما يقولون عنه خطأ وتضليلا فى الغرب ، بل اعتبر ان الطبقة العاملة تستطيع ان تاخذ السلطة فى يدها بالسبيل السلمى ايضا اذا توافرت الحريات الديموقراطية . ولهذا حاول انصار ماركس فى الاممية على الدوام ان يقيموا صلات وثيقة مع النقابات وسائر منظمات الطبقة العاملة .

ان اهمية الاممية هائلة . وقد اضلطعت بدور كبير فى قضية الجمع بين الاشتراكية والحركة العمالية ، وفى رسم تاكتيك موحد للبروليتاريا فى نضالها من اجل التحرر .

ان مبدأ الاممية البروليتارية هو واحد من اسس الحركة العمالية فى العصر الراهن .

وقد انتصرت الماركسية فى نطاق الاممية (جمعية الشغيلة العالمية) على جميع التيارات البرجوازية الصغيرة فى الاشتراكية . وهيأت الاممية انشاء احزاب اشتراكية عمالية جماهيرية على اساس الدول الوطنية (القومية) .

٥ ـ كومونة باريس

الحرب الفرنسية ـ البروسية

لم يستطع النظام الملكى الرجعى ان يصمد فى فرنسا ، لأنه كان يحول دون حل القضايا الاساسية فى ميدان التحويلات البرجوازية الديموقراطية التى سبق وطرحتها ثورة ١٨٤٨ . وقد بيّن الامبراطور الجديد لويس نابوليون عجزه التام عن قيادة البلاد . وكان عدد انصاره يقل باستمرار ، وفقد تدريجيا كل سند فى البلاد . ففى الانتخابات البرلمانية عام ١٨٦٩ نال انصاره ٤,٥ ملايين صوت ، ونال اخصامه مليون صوت فقط اقل منه . وقد احس نابوليون بتفاقم الاستياء وتملكه الخوف من الثورة ، فقرر ان يندفع فى مغامرة ، ان يخوض غمار الحرب ضد بروسيا ، وان يصرف بالتالى انتباه الجماهير عن الوضع الداخلى فى البلاد .

في ١٩ حزيران (يونيو) ١٨٧٠ ، اعلن الامبراطور الفرنسي الحرب على بروسيا ، ولكن الجيش كان سيئ الاستعداد للعمليات الحربية ، وكان الجنود وقسم من الضباط لا يريدون ان يحاربوا ، ولهذا منى الفرنسيون بالهزيمة تلو الهزيمة . وفي ٢ ايلول (سبتمبر) ، وقع الجيش الفرنسي كله وعلى رأسه الامبراطور ، في الأسر في سيدان . وعندما وصل نبأ هزيمة الجيش الى باريس ، خرجت الجماهير الغاضبة الى الشارع ، واقتحمت الجمعية التشريعية واطاحت بالحكومة القديمة . ولكن البرجوازية هي التي استغلت نتائج هذا الانقلاب اذ شكلت حكومة موقتة جديدة باسم طنان هو «حكومة الدفاع الوطني» برئاسة الجنرال تروشو . كذلك شرع العمال يؤلفون منظماتهم . واجتمع ممثلو مختلف المنظمات العمالية في مبنى الفروع الباريسية للاممية وقرروا انشاء لجان يقظة في ٢٠ دائرة برئاسة لجنة مركزية . وقد وعدت اللجنة المركزية بمساعدة الحكومة في قضية تنظيم الدفاع عن باريس وتقدمت في الوقت نفسه ببرنامجها للعمل وقوامه تسليح الشعب على نطاق جماهيري وحل البوليس واجراء انتخابات فورية الى الكومونة .

ولكنه كانت هناك في الوقت نفسه مفاهيم مختلفة عن الكومونة ؛ فان بعضهم كان يعتبر انها ستكون مجرد هيئة محلية للادارة الذاتية في باريس ؛ واضفى بعض آخر اهمية كبرى على الكومونة واعتبرها هيئة جديدة للسلطة من اجل عموم البلاد . اما الحكومة فقد ادركت جيدا جدا انه لا يجوز لها ان تسمح لعمال باريس الثائرين بان تكون لهم هيئة منتخبة للسلطة ، وعارضت بشتى الوسائل اجراء الانتخابات الى الكومونة . ولكنها سمحت مع ذلك بتنظيم الحرس الوطني حسب الدوائر . وسرعان ما استجاب الشعب لشعار «الدفاع

عن الوطن» واخذ يتنظم فى كتائب الحرس الوطنى التى تشكلت فى جميع دوائر بارس العشرين . وعلى هذا النحو ، حصل عمال باريس على السلاح ، مع العلم ان عدد كتائب العمال كان اكبر بكثير مما توقعت الحكومة البرجوازية .

فى ١٨ ايلول (سبتمبر) ، وصل الجيش البروسى الى ابواب باريس وبدأ يحاصرها . فحارب العمال بشجاعة على الاستحكامات . وفى الوقت نفسه ، رأى العمال ان الحكومة لا ترغب فى تلبية مطالبهم بصدد زيادة انتاج الاسلحة ، وتخفيض بدلات الايجار ، وتخفيض الاسعار ، وتحسين التموين ، الخ . . وادرك العمال ان الحكومة تقبل عن غير رغبة على اعداد الانتخابات الى الكومونة وانها تخون البلاد . وقد اتضح ذلك فى ٣٠–٣١ تشرين الاول (اكتوبر) ، عندما استسلمت قلعة ميتز الممتازة مع جيش لجب للالمان . فاتجه الشغيلة فى مظاهرة بمطالبهم الى مكان انعقاد الحكومة . ولكن هذه المظاهرة كانت عفوية ولهذا قمعتها الحكومة بسرعة واعتقلت عددا كبيرا من المشتركين فيها .

لم تغير مظاهرة البروليتاريا من سياسة الحكومة ، بل ان تروشو حاول ان يتفاهم بأسرع ما يمكن مع الالمان لكى يصبح طليق اليدين من أجل النضال ضد البروليتاريا الثائرة . فنظم هجوما استفزازيا على الجبهة كان محكوما عليه بالاخفاق ، ثم سافر على عجلة الى فرساى فى كانون الثانى (يناير) ١٨٧١ لكى يلتقى بممثلى القيادة الالمانية . فطالب الالمان بغرامة كبيرة وبتسليم الالزاس واللورين لالمانيا، واجراء الانتخابات الى الجمعية الوطنية بأسرع وقت .

جرت الانتخابات الى الجمعية الوطنية فى ظروف حملة منظمة من التشنيع شنتها الصحافة الفرنسية كلها على عمال باريس ،

ناهيك بان الجهاز الادارى الامبراطورى القديم هو الذى استعمل لأجل اجراء الانتخابات . ولهذا جاءت الجمعية الوطنية رجعية من حيث تركيبها . وفى ١٧ شباط (فبراير) ، صار تيير رئيس الحكومة . وفى ٢٦ شباط (فبراير) ، وقع تيير الصلح مع بروسيا . وبموجب شروط الصلح التى عرضها الالمان ، كان ينبغى ان تحتل القوات الالمانية بعض دوائر باريس وان تبقى فيها حتى دفع قسم معين من الغرامة .

انتقال السلطة فى باريس الى ايدى العمال

وعندما عرف العمال ولا سيما الحرس الوطنى بذلك ، قرروا ان ينقلوا المدافع من الدوائر التى كان ينبغى تسليمها للالمان ، الى احياء العمال . وفى ذلك الحين ، كان الحرس الوطنى منظما تنظيما حسنا ، وكانت له لجنته المركزية ؛ وكان انشئ اتحاد الحرس الوطنى . وعندما حاول تيير فى ١٨ آذار (مارس) ، بمساعدة القوات المخلصة له ان ينتزع المدافع من الحرس ، خرج الشغيلة الى الشوارع وحالوا دون ذلك ، فوجدت اللجنة المركزية للحرس الوطنى نفسها عمليا فى دست الحكم . وفى ليلة ١٨-١٩ آذار (مارس) ، قررت اللجنة المركزية للحرس الوطنى ، رغم مقاومة الحكومة ، ان تجرى الانتخابات الى الكومونة . وهكذا بدأ تاريخ كومونة باريس المجيد . وقد كانت الكومونة سلطة جديدة ، سلطة البروليتاريا .

ورسمت اللجنة المركزية للحرس الوطنى برنامجا قوامه الانتخابات الى الكومونة ، والارتباط بالكومونات فى سائر المدن ، ومبدأ انتخاب جميع الموظفين ، والغاء البوليس والجيش النظامى - سندى البرجوازية ، والتعليم المهنى ، والغاء نظام العمل

المأجور ، والقضاء على الاملاق ، وهذا البرنامج شرعت تطبقه الكومونة المنتخبة فى ٢٨ آذار (مارس) .

اشترك فى الانتخابات الى الكومونة قرابة نصف الناخبين . وقد دل هذا على طابع السلطة الجديدة الطبقى : فان الاحياء البرجوازية قد قاطعت الانتخابات ، بينا اشتد النشاط كثيرا ، على العكس ، فى الاحياء البروليتارية . تم انتخاب ٨٦ شخصا، ولكن قسمـــا منهم رفض العمل . وتألفت الكومونة من حيث تركيبها الطبقى من ٢٨ عاملا و٨ مستخدمين و٢٩ ممثلا لمختلف المهن (عن الصحفيين ، الخ.) ؛ ومن حيث الانتساب الحزبى ، كانت الكومونة تضم ٢١ بلانكيا (انصار الاستيلاء على السلطة السياسية من قبل اوعى العمال دون اجتذاب جماهير الكادحين الواسعة) و ٢٠ من انصار الاقتصادى البرجوازى الصغير برودون .

اجراءات كومونة باريس

ما ان اخذت الكومونة السلطة فى يدها حتى حطمت كليا آلة الدولة البرجوازية واستعاضت عنها بهيئاتها للسلطة . وحلت البوليس وبدلا عن الوزارات انظمت لجانا ، وبدلا عن الجيش الدائم نظمت الحرس الوطنى الذى يمثل الشعب المسلح . كذلك طبقت الكومونة جملة من الاجراءات الاجتماعية : فقد سلمت العمال المؤسسات التى تخلى عنها اصحابها ، ومنعت عمل عمال الافران فى الليل ، وجعلت رواتب الموظفين لا تزيد على اجور العمال الاكفاء ، وأسكنت فى الشقات الفارغة اكثر العائلات حاجة الى المساكن ، الخ ..

وعندما رأى تيير ان سلطة جديدة تنشأ فى باريس ، بدأ يتخذ تدابير حازمة استعدادا للاطاحة بها . فقد استدعى الى فرساى من باريس جميع العساكر وجميع الموظفين المخلصين

للحكومة ، ونال من المستشار الالمانى بيسمارك الاذن بزيادة عدد العساكر فى فرساى .

وعندما عرفت الكومونة بالاستعدادات فى فرساى ، قررت ان تجابه خونة فرنسا . ولكن وقت العمل كان قد فات : فمن جراء تعزيز قوات فرساى ، صد هجوم الحرس الوطنى من ٢ الى ٤ نيسان (ابريل) . وفى ٦ نيسان ، انتهت اعادة تنظيم جيش فرساى . وقد وصل الى فرساى الاسرى سابقا فى يد الجيش البروسى ، الذين لم يكونوا يعرفون شيئا عن كومونة باريس ، وكذلك بعض الكتائب الاقليمية من الجيش النظامى . وجئ بقوات كبيرة من المدفعية والخيالة . وانتقل تيير الى الهجوم .

استمر الدفاع البطولى عن باريس حتى ٢٨ ايار (مايو) ١٨٧١ ، اى حتى سقوط الكومونة .

اسباب هزيمة كومونة باريس

ان اسباب هزيمة الكومونة تكمن بالدرجة الاولى فى كون الظروف والشروط من اجل الثورة البروليتارية لم تكن قد نضجت بعد فى المرحلة المعنية : فان الرأسمالية كانت لا تزال تتطور ، ولم تكن الطبقة العاملة مستعدة بعد كفاية لأجل الاستيلاء على السلطة . بل ان كومونة باريس لم ترفع شعار بناء الاشتراكية . وكان على رأس كومونة باريس ممثلو احزاب مختلفة لم تكن متفقة فيما بينها على جملة من أهم القضايا المتعلقة بتنظيم السلطة الجديدة . فان البرودونيين ، مثلا ، كانوا يهتمون اساسا بالمسائل الاقتصادية ويعتبرون من غير الضرورى انشاء دولة بروليتارية مركزية قوية . اما البلانكيون فلم يعيروا انتباها جديا الى تنظيم الجماهير والى حاجاتها الاقتصادية . وكان انعدام حزب بروليتارى موحد من أهم اسباب هزيمة الكومونة . فان

احدا من زعماء الكومونة البارزين لم يدرك تماما تعاليم ماركس وانجلس ولم يتفهم قوانين تطور المجتمع والنضال الطبقى ، وكثيرون منهم دافعوا عن شعار «التعاون» مع الطبقات المعادية .

ولم تستطع الكومونة ان تتحالف مع الفلاحين . وقد عجلت اخطاء الكومونة فى سقوطها . فان اللجنة المركزية للحرس الوطنى اسرعت فى اجراء الانتخابات ، ولم تنكل بخصومها ، واجازت خروج القوات المسلحة من باريس بلا عائق ، ولم تنظم زحفا على فرساى عندما كان الارتباك التام سائدا فيها . ولم تؤمم الكومونة المصرف الوطنى فرأت نفسها بالنتيجة فى وضع مادى صعب ، ولم تقم علاقات ثابتة مع الاقاليم ولم تضع برنامجا لحل قضية الفلاحين . وكانت الكومونة وحدها فى مناضلة البرجوازية .

الاهمية التاريخية لكومونة باريس

ان كومونة باريس ستبقى الى الابد فى ذاكرة البشر كاول محاولة قامت بها البروليتاريا فى التاريخ لأجل الاستيلاء على السلطة السياسية ، كأول تجربة لديكتاتورية البروليتاريا . ومن تجربة كومونة باريس ، تعلم خيرة ثوريى زمننا فى سعيهم الى تحرير البشرية من استثمار الانسان للانسان . وان ماركس الذى حاول قدر طاقته ان يساعد الكومونيين بنصائحه ، قال فى تحليله نتائج كومونة باريس ان كومونة باريس قد بينت حتمية تحطيم آلة الدولة البرجوازية فى سياق الثورة البروليتارية وحتمية الاستعاضة عنها بديكتاتورية البروليتاريا برئاسة الحزب الشيوعى ، وان حسبان الحساب لتجربتها سيتيح فيما بعد اجراء الثورة البروليتارية بنجاح .

ان كومونة باريس قد كانت ذروة تطور نضال الطبقة العاملة فى القرن التاسع عشر .

الفصل السابع

نظام الحكم الاستعماري

١ ـ تشكل الامبراطوريات الاستعمارية

سياسة الاستيلاء على المستعمرات في مرحلة التراكم الاولى للراسمال

صحيح ان المستعمرات كانت موجودة فى الازمنة الغابرة ، الا ان نظام الحكم الاستعمارى (الكولونيالية) قد ازدهر فى عصر الرأسمالية، ولا سيما فى العهد الذى انتقل فيه هذا النظام الاقتصادى الاجتماعى الى المرحلة الاخيرة من تطوره ، الى الامبريالية . ان الكولونيالية محدودة تاريخيا ومحكوم عليها تاريخيا بالهلاك مع تصفية زعامة الرأسمالية فى العالم .

ان تاريخ الكولونيالية ينقسم الى ثلاث مراحل . المرحلة الاولى تعود الى زمن التراكم البدائى للرأسمال . والمرحلة الثانية تطابق عهد الرأسمالية ما قبل الاحتكار ، والمرحلة الثالثة تطابق عهد الامبريالية . فى مرحلة التراكم البدائى للرأسمال ، تجسدت السياسة الكولونيالية (سياسة الاستيلاء على المستعمرات) التى انتهجتها الدول الاوروبية فى الاستيلاء على كثرة من البلدان وفى نهبها وسلبها ، وفى استثمار السكان المحليين بصورة عديمة الانسانية ، وفى فرض احتكار التجار الاوروبيين على التجارة بين اوروبا من جهة وبلدان آسيا وافريقيا واميركا من جهة اخرى . وقد آلت هذه السياسة الى انصباب ثروات هائلة فى اوروبا بشكل

الذهب والفضة والاحجار الكريمة ، مما أسهم فى تطوير العلاقات البضاعية النقدية وفى تراكم مبالغ نقدية ضخمة فى ايدى بضعة افراد ، الامر الذى كان مقدمة هامة للانتاج الرأسمالى .

الفتوحات الاسبانية والبرتغالية

كانت البرتغال واسبانيا امبراطوريتين استعماريتين كبيرتين فى فجر التطور الرأسمالى . وحتى فى زمن النضال ضد العرب ، تغلغل البرتغاليون الى الساحل الشمالى من افريقيا واستولوا على سبتة فى عام ١٤١٥ . وفيما بعد اصبحت سبتة قاعدة انطلاق لهم فى التجارة البحرية والفتوحات الاستعمارية . وفى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، اكتشف الملاحون البرتغاليون فى افريقيا الرأس الاخضر ، وسواحل غينيا (ساحل الذهب) ، ورأس الرجاء الصالح ، وكذلك الطريق البحرى الى الهند حول افريقيا . ولكن هذه لم تكن مجرد اسفار ، بل ابتغت اهدافا غير بريئة على الاطلاق . وفى الاراضى المفتتحة حديثا ، اقام البرتغاليون مكاتب تجارية غدت مراكز للتجارة مع السكان المحليين وسندا حربيا للمستعمرين . وفى الربع الاول من القرن السادس عشر ، بسط البرتغاليون نهائيا رقابتهم على السواحل الغربية من الهند وجزئيا على سواحلها الشرقية ، وكذلك على مالاكا . وعندما استولوا على مدينة عدن (عند المخرج من البحر الاحمر الى المحيط الهندى) وعلى مدينة هرمز (فى الخليج الفارسى) ، اغلقوا الطرق التجارية القديمة الى الاسكندرية عبر البحر الاحمر ومن الهند الى سوريا عبر بلاد ما بين النهرين . كذلك استولى البرتغاليون على قسم كبير من ارخبيل الزوند واندونيسيا والبرازيل ، وشكلوا امبراطورية استعمارية شاسعة الارجاء .

وفى الوقت نفسه ، تكوّنت الامبراطورية الاستعمارية الاسبانية . بدأ تشكيلها نحو عام ١٤٩٢ ، عندما اكتشف كولومبوس جزر باهاما ، وهايتى ، وكوبا وسواحل اميركا الجنوبية . وسرعان ما شن الاسبان حروب فتوحات دامية فى الاراضى المكتشفة حديثا . وقد استغل الاسبان ذريعة «نشر المسيحية» بين الهنود الحمر ، وتغلغلوا الى اراض جديدة وجديدة ، لاجئين الى شتى اساليب العنف والخداع والكذب . وفى عام ١٥١٩ ، استولى فرناندو كورتيس ، بقوات قليلة نسبيا ، على المكسيك الشاسعة والغنية التى كانت تحت سلطة الاستيك . وبعد ذلك ، قضى الاسبان على دولة المايا ، وحطموا مقاومة الاقوام والقبائل الاخرى فى السهل المكسيكى المرتفع وفى اميركا الوسطى .

ومن عام ١٥٣٢ الى عام ١٥٣٥ ، اقتحمت فصيلة اسبانية اخرى بقيادة فرانسيسكو بيسارو القاسى والفظ ، توانتينسيو (دولة الاينك) . وهنا ايضا ساعد وجود السلاح النارى والحصان الاسبان فى احراز النصر . وكما فى المكسيك ، لجا الغرباء الى الكذب والنفاق لأجل بلوغ اغراضهم . وقد استمرت العمليات الحربية بين الاسبان والاينك بضعة عقود من السنين . وبعد فترة وجيزة ، وقعت فى قبضة الغزاة الاسبان بقية الاراضى فى اميركا الجنوبية واميركا الوسطى وجزئيا فى اميركا الشمالية ، باستثناء البرازيل التى استولى عليها البرتغاليون ، وقسم من التشيلى حيث قوبل الغزاة بمقاومة عنيدة وطويلة من جانب اتحاد قبائل الارواكان .

وقد رافق فتوحات الاسبان الاستعمارية نهب سافر للشعوب المحلية . فقد حصلوا على كنوز هائلة من حاكم الاينك اتاوالب ومن حاكم الاستيك مونتيسوما . وقلب الاسبان المدافن القديمة ،

ودمروا الهياكل والمعابد ، وابادوا الروائع الفنية ، واستولوا على الذهب والاحجار الكريمة والفضة . ولجا الفاتحون اما الى ابادة السكان المحليين واما الى استعبادهم ، واكرهوهم على العمل فى عقاراتهم ومزارعهم ومناجمهم . وقد افضت اشكال الاستثمار لضارية بشكل لا يصدق الى انخفاض عدد السكان الهنود الحمر انخفاضا شديدا . ففى مناجم الفضة فى بوليفيا وحدها ، هلك ابان سيطرة الاسبان زهاء ثمانية ملايين هندى احمر . ولهذا سرعان ما شرع المستعمرون يستقدمون من افريقيا الزنوج الذين كانت ينتظرهم فى الاراضى الغربية عبودية قاسية .

كذلك لجا البرتغاليون الى طرائق للاستيلاء على المستعمرات لا تقل قساوة عن طرائق الاسبان . فقد اغرقوا ونهبوا السفن العربية والهندية والصينية . ومن مكاتبهم التجارية فى الهند وفى الجزر ، شنوا هجومات على القبائل المحلية وفرضوا عليهـا جزية من التوابل والابازير وغيرها من المنتوجات الاستوائية القيمة التى كان التجار البرتغاليون يبيعونها فى الاسواق الاوروبية باسعار اغلى ثلاث مرات . وكانت «التجارة» التى تعاطاهـا البرتغاليون مع السكان المحليين ترتكز على الخداع الفظ السافر . فمقابل توافه وسلع زهيدة القيمة ، كان المستعمرون يحصلون على قيم فعلية هائلة ، ويبتزون مئة بالمئة من الارباح واحيانا الف بالمئة .

ان جميع عناصر الاستعمار الاسبانى والبرتغالى هذه (اكتشاف مناجم الذهب والفضة ؛ نهب الثروات المادية التى كدستها شعوب آسيا وافريقيا واميركا ؛ ابادة واستعبـاد سكان هذه القارات ، استعباد الزنوج ؛ التبادل غير المتكافى) هى التى تشكل جوهر التراكم البدائى للرأسمال . هكذا كان فجر عهد الانتاج الرأسمالى .

المنافسة الاستعمارية بين الدول الاوروبية

كانت اسبانيا والبرتغال اولى الامبراطوريات الاستعمارية . وقد احتدمت المنافسة الاستعمارية (منافسة الاستيلاء على المستعمرات) والتجارية والبحرية بين البلدين . وتحاشيا للاصطدام السافر ، عقد البلدان فى عام ١٥٢٩ معاهدة قسما بموجبها العالم من طرف الى آخر الى قسمين : فى احدهما ، يستطيع الاسبان الاستيلاء على المستعمرات ، وفى الآخر البرتغاليون . هكذا جرى اول تقاسم استعمارى للعالم . ولكن التناقضات بين الاسبان والبرتغاليين لم تنقض . وفى الحلبة العالمية شرعت تظهر بلدان فاتحة جديدة هى هولنده وبريطانيا وفرنسا .

فى القرن السابع عشر ، اخذت هولندا تشغل مركزا لها فى عداد الدول المستعمرة الكبرى ، مزحزحة اسبانيا والبرتغال . بل ان التجار الفاتحين الهولنديين تسربوا الى الهند فى اواخر القرن السادس عشر . وفى عام ١٦٠٢ انشئت الشركة العامة للهند الشرقية (وقد دامت حتى عام ١٧٩٨) التى كانت تتمتع بحق احتكار التجارة فى المحيطين الهندى والهادى . واستعبد التجار الهولنديون ومأجوريهم سكان اندونيسيا واستثمروا ثروات هذا البلد الاستوائى بوحشية . وابادوا سكان الجزر «الفائضين» (من وجهة نظر الهولنديين) ، واحرقوا مقادير ضخمة من المنتوجات القيمة لكى يحافظوا على الاسعار العالية المفيدة لهم .

فى عام ١٦٢١ ، أسس الهولنديون شركة الهند الغربية التى اخذت تقوم بعملياتها فى القارة الاميركية .

فى منتصف القرن السابع عشر ، زحزح الهولنديون البرتغاليين من القسم الجنوبى من افريقيا واسسوا هناك مستعمرة لهم اسموها

«ارض الرأس» . وفى عام ١٦٥٦ ، زحزح الهولنديون البرتغاليين من سيلان . ولكن هولندا كانت اساسا بلدا تجاريا صناعته اقل تطورا ، ولهذا كانت الغلبة لانجلترا فى المنافسة الحادة بين انجلترا الصناعية وهولندا . مثلا ، بنتيجة الحروب الانجلو - الهولندية ، احتل الانجليز مكان الهولنديين فى اميركا الشمالية . وفى طريق تشييد الامبراطورية الاستعمارية الانجليزية ، وقفت فى المقام الاول الدولتان الاستعماريتان القديمتان البرتغال واسبانيا . وشرعت السفن الانجليزية ، بعلم وتحبيذ حكومتها ، تهاجم بلا اعلان حرب القوافل البحرية الاسبانية المسافرة من اميركا الى اوروبا وتنهبها . وكان اخفاق الاسطول الشهير «الارمادا القهّارة» الذى هزمه وحطمه الاسطول الانجليزى (عام ١٥٨٨) نقطة الذروة فى المنافسة الاستعمارية البحرية بين اسبانيا وانجلترا . وسرعان ما اصبحت انجلترا «سيدة البحار» . ولكن البرجوازية الانجليزية الفتية لم تكن قط بحاجة الى هذا اللقب الطنان ، بل الى امر آخر . فان السيادة فى البحر كانت الوسيلة لبسط السيادة فى البر . ونحو مستهل القرن السابع عشر ، انتهت انجلترا من فتح ارلنده الذى بدأته فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر . وابتداء من السنوات الثلاثين من القرن الثامن عشر ، اخذت انجلترا تنتهج سياسة استعمارية ذات صفة عدوانية شديدة . واتسمت الحروب الاستعمارية بطابع النهب السافر . وكان الغرض من هذه الحروب ازاحة الخصوم فى ميدان اضطهاد الشعوب الاخرى . وقد رأى الانجليز عدوهم الاساسى فى شخص فرنسا حيث تطورت ايضا العلاقات الرأسمالية بسرعة .

ففى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، انشأت فرنسا امبراطورية استعمارية ، واستولت على كندا والهند الصينية وقسم من الاراضى الهندية . كذلك انشأت فرنسا شركة الهند الشرقية

وشركة السنغال وغيرهما من الشركات ، وبواسطة هذه الشركات ، تحققت الفتوحات الاستعمارية .

وسعيا الى تحويل البلدان المفتوحة الى مجرد ذيول زراعية للمتروبول (للبلد الفاتح) ، حمل المستعمرون الانجليز الى شعوب هذه البلدان الاضطهاد والفقر ، والى اقتصادها التدهور والركود . وبنتيجة الحرب ضد اسبانيا ، وسع الانجليز ممتلكاتهم فى الهند الغربية وتسربوا الى فلوريدا . وفيمـــا بعد ، عادت حروب منتصف القرن الثامن عشر (الحرب من اجل وراثة العرش النمساوى فى سنوات ١٧٤٠–١٧٤٨ وحرب السبع سنوات فى ١٧٥٦–١٧٦٣) على انجلترا بمكتسبات استعمارية جديدة : فقد استولت على المستعمرة الفرنسية كندا وعلى اراض جديدة فى الهند . ان الفتوحات فى الهند وزحزحة الفرنسيين وغيرهم من الخصوم من هناك قد قامت بها شركة الهند الشرقية الانجليزية التى تأسست عام ١٦٠٠ . ولم تختلف شركة الهند الشرقية الانجليزية فى شىء عن الغزاة الاسبان من حيث الغدر والقساوة والجشع المنفلت الذى لا تنطفئ ناره . فان فتح البنغال ، مثلا ، قد رافقه نهب الخزينة البنغالية ، وابتزاز غرامة هائلة وفرض ضريبة مرهقة على جميع سكان البلد . ولجأت الشركة على نطاق واسع الى العمل الاستعبادى ، مجبرة الحاكة الهنود على العمل مجانا فى صالح الانجليز . واكرهت الشركة الفلاحين الهنود على العمل فى مزارع الافيون التى تملكها . ومن جرّاء تعسف الانجليز ، نشبت عام ١٧٧٠ مجاعة رهيبة فى البنغال اودت بحياة سبعة ملايين هندى . وبمثل هذا القدر الهائل من القساوة ، تصرف ممثلو الرأسمالية الانجليزية الفتية فى مقاطعات الهند الاخرى .

وقد تميزت شركات الهند الشرقية والهند الغربية من الدول الاوروبية بكونها قد تمتعت بتأييد كبير من دولها مع انهـا

مؤسسات خاصة . فان الاساطيل البحرية الحربية والجيوش قد أمنت بقوة السلاح نشاط هذه الشركات . وفيما بعد ، تحولت هذه الشركات الى هيئات حكومية تحمى كالسابق مصالح الرأسمال الخاص .

وكانت تجارة الرقيق من «اشغال» المستعمرين الاوروبيين الاساسية . وقد كان للهولنديين فى اندونيسيا سجون سرية خاصة يزجون فيها بالاولاد المسروقين من اهلهم ؛ وعندما كان الصغار يكبرون كانوا يبيعونهم ارقاء . وقد امست افريقيا حقلا رحبا لاصطياد الارقاء . وكان الافريقيون المستعبدون يباعون فى اميركا بصورة رئيسية .

التراكم البدائى للرأسمال فى المستعمرات

كانت الفتوحات الاستعمارية فى المرحلة موضوع دراستنا عنصرا هاما فى عملية التراكم البدائى . ولكن التراكم البدائى فى المستعمرات يتميز مبدئيا عنه فى اوروبا .

اولا ، كانت القيم التى ينهبها المستعمرون تساق الى المتروبول ، وهناك فقط كانت تتحول الى رأسمال . وهكذا يسّر انشاء الامبراطوريات الاستعمارية تدفق رساميل ضخمة الى اوروبا تتمركز فى ايدى الشركات التجارية وتوظفها هذه الشركات على العموم فى الانتاج الصناعى .

ثانيا ، لم يؤد استيلاء الانجليز بصورة شاسعة على اراضى الفلاحين الهنود ، واستيلاء الهولنديين على اراضى الفلاحين الاندونيسيين ، والاسبان على اراضى الهنود الحمر وغيرهم من الشعوب ، الى ظهور وتطور العلاقات الرأسمالية فى البلدان المستعبَدة . فقد حافظ المستعمرون على طرائق الاستثمار القبلية والعشيرية ، وطرائق الاستثمار العبودية والاقطاعية ،

اضفوا عليها طابعا وحشيا ضاريا . ولم يفض الاستثمار الوحشى الى نهب المستعمرات وحسب ، بل أفضى كذلك الى هلاك ملايين الناس . فان المجاعة التى نشبت فى البنغال عام ١٧٧٠ والتى كانت نتيجة لتعسف الانجليز ، قد فتكت بثلث سكان البلاد . ويستفاد من شهادة القس السياسى الاسبانى لاس كاساس ان عدد الهنود الحمر فى جزيرتى بورتوريكو وجامايكا كان قرابة ٦٠٠ الف عند ظهور الاسبان فيهما . وبعد ٣٣ سنة ، هبط عددهم الى قرابة ٤٠٠ فقط . كذلك هبط عدد السكان من الهنود الحمر هبوطا فاجعا فى المقاطعات الاخرى التى استولى عليها الاسبان فى مختلف اقسام اميركا .

ثالثا ، فى مرحلة التراكم البدائى ، لم يحل عمل العمال الاجراء فى اغلبية المستعمرات محل عمل المشاعيين والارقاء والاقنان ، وهذا ما رافقه تقهقر اقتصادى كبير .

نتائج السياسة الاستعمارية فى مرحلة التراكم البدائى للراسمال

ان أهم نتائج السياسة الاستعمارية (سياسة الاستيلاء على المستعمرات) فى مرحلة التراكم البدائى للرأسمال تتقوم فى كون النهب والسلب ، وتجارة الرقيق ، وابادة اقوام وقبائل عن بكرة ابيها ، والحروب ، والعمل القسرى المفروض على الاقنان والارقاء من السكان المحليين ، فى كون كل هذا قد أسهم فى تشديد تراكم الرأسمال فى ايدى المستعمرين الاوروبيين . وقد افضى نظام الحكم الاستعمارى الى تطور التجارة بتامينه الاسواق للمانيفاكتورات المبثقة حديثا .

ومن أهم نتائج مرحلة التراكم البدائى ، ان سوقا عالمية اخذت تتكون منذ الاكتشافات الجغرافية الكبرى . وهذه السوق

لم تكن بعد قد تشكلت نهائيا ، ولكن وجود الامبراطوريات الاستعمارية ساعد فى تكوينها . وأسهم استثمار المستعمرات فى نمو بأس الدول الرأسمالية الصناعى ، بينما تطور القوى المنتجة والعلاقات الاجتماعية توقف فى المستعمرات ذاتها ، بل عاد الى الوراء فى جملة من الحالات .

وفى مرحلة التراكم البدائى ، كانت بعض كبريات الدول فى آسيا ، كالصين وايران والامبراطورية العثمانية ، مثلا ، لا تزال بعد تحتفظ شكلا باستقلالها ، ولكنها طفقت تصبح موضع انهب واستثمار .

ونحو اواخر القرن الثامن عشر ، تكشف تفوق انجلترا بكل وضوح على الدولتين الاستعماريتين الاخريين فرنسا وهولندا وبالاحرى على اسبانيا والبرتغال اللتين اخذتا تتأخران اكثر فاكثر فى مجال التطور الاقتصادى والاجتماعى بسبب من وجود النظم الاقطاعية الاستبدادية فى هذين البلدين .

عشية الثورة البرجوازية الفرنسيـة الكبرى ، كانت اشكال الاستثمار الاستعمارى القديمة قد شاخت وولى زمانها . فان الكذب السافر ، والعنف الصريح ، وسيادة الشركات التجارية سيادة احتكارية ، والتبادل غير المتكافئ ، بلـه جميع اشكال الاستثمار الملازمة للرأسمالية غير المتطورة ، لم تعد تحمل الثروات المنشودة . ونحو اواخر مرحلة التراكم البدائى ، اكتشفت الشركات التجارية الاحتكارية العديدة وهن اوضاعها اذ اخذت تعانى العجز الدائم وتمنى بالافلاس . وهذا مـــا تجلى بخاصة فى الشركات الفرنسية ، ولكنه اصبح محسوسا ايضا فى الشركات الهولندية والانجليزية . كذلك أملت انتفاضات الشعوب المستعبدة والارقاء بلا انقطـاع ضرورة الانتقـــال الى طرائق جديدة لاستثمـــار المستعمرات .

٢ ـ نظام المستعمرات فى مرحلة الراسمالية ما قبل الاحتكار

الثورة الفرنسية والمستعمرات

لم تجلب الثورات البرجوازية اطلاقا التحرر لشعوب المستعمرات وانصاف المستعمرات . بل ان تلك الحريات البرجوازية المحدودة التى ظفر بها شغيلة المتروبولات (البلدان الفاتحة المستعمرة) لم تشمل المستعمرات والبلدان التابعة . فان «الحرية والمساواة والاخوة» و«حقوق الانسان والمواطن» التى ولدتها الثورة البرجوازية الفرانسية الكبرى ، لم تمت باى صلة الى زنوج السنغال ولا الى فلاحى الهند الغربية ، ولا الى الهنود الحمر . ناهيك بان البرجوازية ، بعد اطاحتها بطبقة الاقطاعيين ، استغلت السلطة السياسية ، لا لقمع شغيلة المتروبولات وحسب ، بل ايضا للاستيلاء على مستعمرات جديدة ولاستعبادها . فان نابوليون الذى كان يعبر عن مصالح البرجوازية ، قد اخذ على عاتقه بمطلق الوضوح مهمة بسط الزعامة الاستعمارية لفرنسا على الكرة الارضية فى غمرة النضال ضد المزاحمة الرئيسية ، انجلترا . وقد شملت مشاريعه الاستيلاء على مصر والهند وايران وافغانستان وتركيا واميركا اللاتينية .

ان زوال الامبراطورية النابوليونية قد عنى افلاس آمال البرجوازية الفرنسية فى بسط سيطرتها الاستعمارية على العالم ، ولكنه لم يدل اطلاقا على زوال المنافسة الاستعمارية بين الانجليز والفرنسيين . وعلى المسرح الاستعمارى ، ظهر خصم جدى آخر لانجلترا هو روسيا التى بدأت تهدد من الشمال درة التاج البريطانى ، الهند . كذلك اخذت مصالح روسيا وانجلترا تتصادم فى الشرق الاقصى .

من جرّاء المزاحمة الضارية بين دول العالم الرئيسية ، قل بسرعة عدد الاراضى «الحرة» اى غير المفتوحة . وانساق العالم كله الى مدار العلاقات الرأسمالية . واخذ الناس فى لندن وباريس وواشنطن يهتمـون بالاحداث فى افريقيا والارجنتين وجزر هاوايى . واصبح تاريخ كل بلد مربوطا بمئات الخيوط بتاريخ البلدان الاخرى .

وقد كان نشوء السوق العالمية فى اواخر السنوات الخمسين من القرن التاسع عشر الاساس الاقتصادى لظهور التطور التاريخى العالمى الموحد ، لانبثاق العملية التاريخية العالمية الموحدة . وقد عنى هذا ان المجتمع البرجوازى قد ادى المهام التى كانت تواجهه بصورة موضوعية ، رغم ان الرأسمالية ظلت تتطور فى خط صاعد قرابة عقد ونصف عقد آخرين .

فى السنوات الخمسين من القرن التاسع عشر ، انتهى اساسا الانقلاب الصناعى . وظهرت معضلة تصريف كمية كبيرة من البضائع الصناعية ومعضلة الحصول على الخامات من اجل انتاجها . وقد آل الانقلاب الصناعى الى ولادة وسائل للمواصلات والنقل لا سابق لها . ان نشوء السوق العالمية ، ونمو التجارة ، وظهور واسطة النقل الجديدة اى السكة الحديدية ، كل هذا ، بالاضافة الى نضال الشعوب المظلومة غير المنقطع ، حدّد الانتقال الى اشكال جديدة لاستثمار المستعمرات وانصاف المستعمـرات . واخذت بلدان افريقيا وآسيا واميركا اللاتينية تتحول الى سوق لتصريف البضائع الصناعية من انتاج البلدان الصناعية ، والى مصدر للخامات والاغذية . واستمـر نهب الشعوب المستعمَرة والضعيفة ، ولكن بشكل جديد ، بشكل «التجارة الحرة» ، مع

العلم ان طرائق السلب الوحشى لم تنقرض كليا . وطبيعى ان «التجارة الحرة» كانت تعنى افلاس وضع الشركات التجارية الاحتكارى الذى كان يميز مرحلة التراكم البدائى ، افلاس سياسة الحماية .

تأثير «التجارة الحرة» فى اقتصاد المستعمرات

ان تسرب كمية كبيرة من البضائع الى البلدان المظلومة قد انعش فيها العلاقات البضاعية النقدية . وشرع الاقطاعيون وزعماء القبائل المحليون يلجأون اكثر فاكثر الى السوق ، الامر الذى افضى الى اشتداد استثمار الفلاحين ، واملاقهم ، والحاق الخراب بهم فى حالات كثيرة . وقد اضطر الفلاحون ، تحت ضغط مباشر من جانب الرأسماليين الاجانب والادارة الاستعمارية ، وكذلك من جانب اقطاعييهم وتجارهم الوسطاء ومرابيهم ، الى انتاج الخامات والاغذية من اجل السوق الرأسمالية وبيعها باسعار زهيدة للغاية . وكان اقل تدهور فى احوال السوق الرأسمالية يؤثر على اوضاع الفلاحين فى المستعمرات وانصاف المستعمرات .

وقد افضى اغراق المستعمرات وانصاف المستعمرات بكميات كبيرة من البضائع الصناعية من انتاج المتروبولات الى تدهور الاستثمارات الحرفية والمانيفاكتورية المحلية التى لم يكن فى وسعها طبعا ان تخوض صراع المزاحمة ضد صناعة البلدان الطليعية . وهكذا كبح تصريف البضائع الصناعية من انتاج المتروبولات التطور الصناعى فى آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية . ومع الحرفة ، تدهورت ايضا التجارة المحلية . والى جانب الفلاحين ، افتقر الحرفيون وحتى البرجوازية المحلية ، باستثناء قسمها الذى بدأ يضطلع بدور الوساطة فى التجارة بين المستعمرين

والشعوب المستعبَدة (المسمى بـ«البرجوازية الكومبرادورية») .

كانت التجارة «الحرة» الطريقة الرئيسية لاستثمار المستعمرات ، ولكنها لم تكن الطريقة الوحيدة . فان الرأسمالية قد طورت كذلك نظام الاقتصاد المزرعى (نظام المزارع الكبيرة) (فى الهند الغربية واندونيسيا والهند وغيرها) ، ونظمت نهب اراضى المستعمرات واسكانها بموجب نظام الاستعمار «الحر» (فى الجزائر ، افريقيا الجنوبية ، وغيرهما) .

فى بلدان استثمار المزارع ، اضطر المستعمرون الانجليز والفرنسيون الى الغاء الرق الذى نفدت طاقاته كليا وكان قليل الانتاجية ولم ينتج زيادة ريعية المزارع . ولكن الارقاء السابقين ، والعمال المستأجرين حديثا من الصين والهند كانوا ، حتى بعد الغاء الرق ، يتعرضون لاستثمار فظيع ، ويعيشون فى احوال غير انسانية ، ويهلكون جماعات كبيرة من الجوع والامراض . ولئن كان اصحاب المزارع الانجليز والفرنسيين قد لجأوا بعد الغاء الرق الى نظام استئجار الايدى العاملة ، فان المستعمرين الهولنديين قد طبقوا نظام فريضة العمل الالزامى فى اندونيسيا حيث استغلوا السكان المحليين كايد عاملة . وعادة كانوا يتبّعون ٥ـ١٠ قرى الى مؤسسة لتكييف الخامات . وكان السكان ملزمين بان يقدموا للمؤسسة الخامات والايدى العاملة .

فى مرحلة الرأسمالية ما قبل الاحتكار ، اى عندما كانت التجارة «الحرة» الشكل الاساسى للعلاقات الاقتصادية بين المتروبولات والمستعمرات ، لم تكن العلاقات الرأسمالية قد تطورت بعد فى المستعمرات . ومع ذلك أصبحت المستعمرات ، وقد انساقت الى فلك التجارة العالمية ، الجزء المستثمَر من النظام الرأسمالى العالمى بسبيل التكوين .

الفصل الثامن

الامبريالية

١ ـ الامبريالية ، اعلى مراحل الراسمالية

تحول الراسمالية ما قبل الاحتكار الى امبريالية

فى الثلث الاخير من القرن التاسع عشر ، تحقق الانتقال من الرأسمالية ما قبل الاحتكار الى الامبريالية . ان الرأسمالية الاحتكارية او الامبريالية هى اعلى وآخر مراحل الرأسمالية . وقد تكونت الامبريالية نهائيا عند تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين .

فى اواخر القرن التاسع عشر ، سارت صناعة التعدين والكيمياء والانشاءات الميكانيكية خطوات تكنيكية كبيرة الى امام ، وازداد الانتاج الصناعى وتمركزه . ومع ظهور طرائق جديدة فى صناعة التعدين لسكب المعادن (طريقة بيسيمير ، طريقة مارتان ، طريقة توماس) ، نشأت مصانع كبيرة لصهر الفولاذ (الصلب) ولتكييف المعادن . وقد كشفت زيادة انتاج الفولاذ امكانيات لتطوير صناعة الانشاءات الميكانيكية وبناء السكك الحديدية لاحقا . ثم ان اكتشاف واختراف انواع جديدة من المحركات والآليات المتحركة كالمحركات الكهربائية ومحركات الاحتراق الداخلى والتوربينات (العنفات) البخارية

والمحركات الديزلية والتراموى والسيارة والقاطرة الديزلية والطائرة يسرا نمو الانتاج الصناعى وتطور النقل .

فى منتصف القرن التاسع عشر كانت فروع الصناعة الخفيفة ، ولا سيما صناعة النسيج ، هى المهيمنة فى الانتاج الصناعى ؛ اما فى اواخر القرن التاسع عشر ، فان المركز القيادى قد شغلته الصناعة الثقيلة ولا سيما منها صناعة التعدين وصناعة الانشاءات الميكانيكية (صناعة الآلات والآليات) والصناعة المنجمية ، والكيمياء ، وصناعة توليد الطاقة الكهربائية ، مع العلم ان الصناعة الثقيلة تتطلب تجهيزات ومنشآت وعمارات كبيرة غالية يقتضى صنعها وبناؤها رساميل ضخمة . فى عام ١٨٧٠ ، بلغ المنتوج العالمى من الفولاذ ٥٠٠ الف طن ؛ اما فى عام ١٩٠٠ ، فقد بلغ ٢٨ مليون طن اى انه ازداد الى ٥٦ مرة . وفى الحقبة نفسها من الزمن ، ازداد استخراج البترول من ٠,٨ مليون طن الى ٢٠ مليون طن اى الى ٢٥ مرة .

ان تطور القوى المنتجة وعلاقات الانتاج فى مرحلة الرأسمالية ما قبل الاحتكار قد هيأ الانتقال الى الامبريالية . فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، كان اسلوب الانتاج الرأسمالى لا يسود الا فى اكثر بلدان اوروبا الغربية تطورا اى انجلترا وفرنسا وهولنده . ومنذ سنوات العقدين السابع والثامن ، اخذت الرأسمالية تتطور بسرعة فى الولايات المتحدة الاميركية والمانيا وروسيا واليابان . ان تطور الرأسمالية فى هذه البلدان قد يسره الغاء الرق فى الولايات المتحدة الاميركية عام ١٨٦٣ ، والغاء حق القنانة فى روسيا عام ١٨٦١ ، والثورة البرجوازية (١٨٦٧-١٨٧٠) فى اليابان ، وتوحيد المانيا عام ١٨٧١ .

العلائم الاساسية للامبريالية

تتميز الامبريالية بالعلائم الاقتصادية التالية :

١ ــ تمركز الانتاج والرأسمال تمركزا ادى الى نشوء الاحتكارات التى تضطلع بالدور الحاسم فى الحياة الاقتصادية .

٢ ــ اندماج الرأسمال المصرفى بالرأسمال الصناعى ، ونشوء «الرأسمال المالى» ، الطغمة المالية ، على هذا الاساس .

٣ ــ خلافا لتصدير البضائع ، يكتسب تصدير الرساميل اهمية كبيرة جدا .

٤ ــ تشكل اتحادات احتكارية عالمية بين الرأسماليين تتقاسم العالم .

٥ ــ انجاز تقاسم العالم بين الدول الرأسمالية الكبرى .

تمركز الانتاج والاحتكارات

كانت الرأسمالية ما قبل الاحتكار تتميز بالمزاحمة الحرة . وكانت سيادة المزاحمة الحرة تشترط سرعة عملية تمركز الانتاج فى مؤسسات تكبر يوما بعد يوم . وبانزال الخراب بالبعض واغناء البعض الآخر ، آلت المزاحمة الحرة الى تمركز الانتاج اى الى نمو الوزن النسبى للمؤسسات الكبيرة في مجمل عدد المؤسسات ، والى ازدياد نصيبها فى مجمل الانتاج ، والى تمركز عدد اكبر فاكبر من الايدى العاملة والطاقات المنتجة فى المؤسسات الكبيرة .

فى عام ١٩٠٩ ، كانت كبريات المؤسسات التى يبلغ منتوجها فى الولايات المتحدة الاميركية ما تزيد قيمته على مليون دولار تشكل ١,١ بالمئة من مجمل عدد المؤسسات . وفى هذه المؤسسات كان يشتغل ٣٠,٥ بالمئة من مجمل عدد

العمال ، وكانت تنتج ٤٣,٨ بالمئة من عموم انتاج الصناعة . وهكذا كان اكثر من خمسي مجمل انتاج البلاد متمركزا فى واحد بالمئة من مجمل عدد المؤسسات .

وفيما بعد ، اشتد تمركز الانتاج . وفى عام ١٩٣٩ ، كان عدد كبريات المؤسسات التي يبلغ انتاجها ما قيمته مليون دولار واكثر تشكل ٥,٢ بالمئة من مجمل عدد المؤسسات . وكان يشتغل فيها ٥٥ بالمئة من مجمل عدد العمال وكانت تنتج ٦٧,٥ بالمئة من عموم انتاج الصناعة .

ان تمركز الانتاج يهيء الانتقال الى سيادة الاحتكارات . فان عشرات من المؤسسات العملاقة لا تجابهها مصاعب كبيرة من اجل التفاهم وعقد الاتفاقات فيما بينها .

وفى حلول سيادة الاحتكارات محل المزاحمة الرأسمالية الحرة ، يكمن جوهر الامبريالية الاقتصادى . ان الاحتكارات انما هى مؤسسات رأسمالية كبيرة للغاية ، او اتحادات بين مؤسسات رأسمالية تحصر فى ايديها انتاج او تصريف القسم الاكبر من منتوج الفرع المعنى . وتتميز الاحتكارات بالطاقة الاقتصادية وبوزن نسبى هائل فى الفرع الانتاجى المعنى ، فتفرض اسعارا احتكارية وتبتز ارباحا عالية بفضل الاحتكار .

اشكال الاحتكار الاساسية

الكارتلات والسنديكات والتروستات والكونسورسيومات هى الاشكال الاساسية للاتحادات الاحتكارية .

الكارتل هو اتحاد او تحالف مؤسسات رأسمالية كبيرة ، يتفق المشتركون فيه على شروط بيع البضائع وشراء الخامات وآجال الدفع ، ويوزعون فيما بينهم اسواق التصريف ويفرضون

اسعار البضائع المنتوجة والخامات والموادّ المشتراة ويحددون كمية البضائع التى ينتجها كل مشترك ، اى ما يسمى الكوتا . ولكن المؤسسات التى تدخل فى الكارتل ، تحتفظ باستقلالها .

السنديكا هو اتحاد احتكارى بين عدد من المؤسسات يفقد المشتركون فيه استقلالهم فى تصريف البضائع . وفى هذه الحال يجرى الانتاج بصورة مجزأة ، مستقلة ، بينا تصريف البضائع واحيانا شراء الخامات والمواد يجريان بواسطة جهاز تجارى مشترك ، بواسطة مكتب مشترك .

التروست هو اتحاد احتكارى تفقد جميع المؤسسات الداخلة فيه استقلالها الانتاجى والتجارى ، وتندمج فى مؤسسة وحدة بينا يصبح مالكوها اصحاب اسهم يتقاضون الارباح حسب كمية الاسهم التى يملكون . اما قيادة نشاط التروست الانتاجى والمالى والتجارى ، فتقوم بها هيئة ادارية تنتخبها الجمعية العمومية للمساهمين . وعادة ينتخب لادارة التروست اشخاص يملكون حزمات كبيرة من الاسهم . وبعد صدور القانون المعارض للتروستات عام ١٩١١ فى الولايات المتحدة الاميركية ، شرعت التروستات تتسمى باسماء الشركات . فان التروست البترولى الهائل التابع لآل روكفلر «ستاندارد اويل» ، مثلا ، قد انقسم الى عدة شركات : «ستاندارد اويل اوف نيوجرسى» ، «ستاندارد اويل اوف كاليفورنيا» ، الخ . . وجميع هذه الشركات يراقبها آل روكفلر .

الكونسورسيوم هو اتحاد احتكارى بين مؤسسات من مختلف فروع الصناعة ومصارف وشركات تجارية وشركات نقل وشركات تأمين على اساس المصالح المالية المشتركة وعلى اساس التبعية المالية المشتركة حيال فريق من كبار الرأسماليين الذين يبسطون رقابتهم على المؤسسات الداخلة فى الكونسورسيوم .

ففى الولايات المتحدة الاميركية يراقب كونسورسيوم «جنرال الكتريك» صناعة الكهرباء ، وكونسورسيوم «دوغلاس ايركرافت كومبانى» صناعة الطيران ، وكونسورسيوم ميلّون صناعة الالومينيوم ، وكونسورسيوم «دوبون دى نيمور اند كومبانى» الصناعة الكيماوية . وفى عام ١٩٥٦ انتج احتكاران فقط فى صناعة السيارات هما «جنرال موتورس كوربوريشن» و «فورد موتور كومبانى» وباعا ٨٠ بألمئة من سيارات الركاب . وفى كل من ٤٣ فرعا من فروع صناعة التكييف ، تحصر اربع شركات فى يديها اكثر من ٧٥ بالمئة من الانتاج ، وفى مائة وفرعين ، تتراوح حصة اربعة احتكارات كبيرة بين ٥٠ و٧٥ بالمئة من عموم الانتاج . ان الاحتكارات لا تقضى على صراع المزاحمة ، وليس هذا وحسب ، بل تجعله بالعكس اشد ضراوة وتدميرا . فان صراع المزاحمة يدور بين الاتحادات الاحتكارية ، وفى داخلها ، وبين الاحتكارات والمؤسسات غير الاحتكارية . وتطبق ضد الذين لا يخضعون للاحتكارات مختلف طرائق الضغط ، بما فيها الحاق الخراب بهم بالدسائس التجارية . وتلجأ الاحتكارات فى غمرة الصراع الضارى فيما بينها الى جميع الوسائل والاساليب السافلة ، الخسيسة : الرشوة ، العنف ، التهويل (الشانتاج) ، اعمال التخريب ، وغير ذلك من الافعال المعاقب عليها جزائيا ، بما فيها ابادة الاخصام جسديا .

الراسمال المالى والطغمة المالية

فى مرحلة الامبريالية ، تضطلع المصارف (البنوك) بدور كبير وتقتحم ميدان الانتاج بنشاط . ان المصارف هى مؤسسات رأسمالية خاصة وظيفتها الاساسية والاولية الوساطة فى عمليات

الدفع . وهى تجمع الرساميل والمداخيل النقدية الحرة بشكل ودائع ، وتمنح اصحاب المؤسسات رأسمالا نقديا بشكل قروض . ولقاء الودائع ، تدفع المصارف فائدة مئوية اقل من الفائدة التى تأخذها لقاء منح القروض . والفرق بين الفائدة التى يأخذها المصرف لقاء منح القرض والفائدة التى يدفعها لقاء الودائع يشكل الربح المصرفى .

ان صراع المزاحمة بين المصارف يفضى الى خراب المصارف الصغيرة والى ابتلاعها من قبل المصارف الكبيرة . وهناك قسم من المصارف الصغيرة ، مع احتفاظه باستقلاله الشكلى ، يتحول الى فروع للمصارف الكبيرة .

مع ازدياد العمليات المالية ، انخفض مجمل عدد المصارف فى الولايات المتحدة الاميركية من ٣٠٤١٩ فى عام ١٩٢١ الى ١٤٢٤٣ فى عام ١٩٥٥ . وازداد الوزن النسبى لاكبر المصارف الـ ١٠ فى العمليات المالية فى عموم البلاد من ١٠ بالمئة فى عام ١٩٢٣ الى ٢١ بالمئة فى عام ١٩٥٥ . وفى نيويورك ازداد الوزن النسبى لودائع اكبر المصارف الاربعة من ٢١ بالمئة فى عام ١٩٠٠ الى ٦٠ بالمئة فى عام ١٩٥٥ ، وفى ١٠ من اصل ١٦ مركزا ماليا قياديا فى الولايات المتحدة الاميركية ، تحصر اربعة مصارف فى ايديها اكثر من ٥٠ بالمئة من الداخل فى جميع المصارف التجارية . وفى ٩ من هذه المراكز المالية فى البلاد ، يملك مصرفان ٦٠ بالمئة من الداخل . فان كلا من «بنك اوف اميركا نايشنال تراست اند سيفينغس اسوشييشن» فى سان فرنسيسكو ، و «فرست نايشنال بنك» فى بوسطن ، و «ميلّون نايشنال بنك اند تراست كومبانى» فى بيتسبورغ - يراقب اكثر من نصف الداخل فى المدينة التى يقوم فيها .

وفى بريطانيا كانت اكبر المصارف الخمسة تحصر عام ١٩٣٦ فى حساباتها ٧٤,٦ بالمئة من مجمل مبلغ ودائع جميع مساهمى المصارف فى البلاد ، و ٧٧,٣ بالمئة فى عام ١٩٥٧ .

ان حصر وتمركز العمليات المصرفية يفضيان الى تشكل الاحتكارات المصرفية . فان المصارف تتحول من وسطاء متواضعين الى احتكاريين كلى الجبروت ، وتتصرف المصارف بقرابة جميع ما لدى السكان من رساميل ومدخرات نقدية . وهى تقيم اوثق الصلة مع المؤسسات الصناعية ، وتراقب عملها عن طريق القروض ، وتمنحها قروضا طويلة الأجل . وتشترى المصارف اسهم المؤسسات الصناعية ، وتصبح من حملة الاسهم . كذلك يصبح اصحاب المؤسسات الصناعية مساهمين فى المصارف ويملكون قسما من اسهمها . ان اندماج رأسمال الاحتكارات المصرفية والصناعية يؤدى الى نشوء الرأسمال المالى . ان تشابك الرأسمال الاحتكارى المصرفى والصناعى يتجلى فى الاتحاد الشخصى ، والعلاقة الشخصية ، فى الاتحاد بين اسياد الاحتكارات الصناعية والمصرفية . فان الاشخاص انفسهم يترأسون ادارة الاحتكارات الصناعية والمصرفية . مثلا ، ريتشارد ميللون ؛ فهو من اعضاء كتلة آل ميللون المالية ، ورئيس مصرف «ميللون نايشنال بنك اند تراست كومبانى» ، ومدير اربع شركات اخرى هى «غولف اويل كوربوريشن» و«ألومينيوم كومبانى اوف اميركا» و«جنرال موتورس» و «بنسيلفانيا ريلرود» .

فى عام ١٩٥٥ ، كان لاكبر المصارف فى الولايات المتحدة الاميركية ممثلين عنها فى الهيئات القيادية للشركات الاخرى : مصرف «ج . ب . مورغان اند كومبانى» ، فى ٩٢ شركة ؛ مصرف «تشيز مانهاتان بنك» فى ١٠٤ شركات ؛ «فرست

نايشنال سيتى بنك» فى ١١٥ شركة ؛ مصرف «غارانتى تراست» فى ٩١ شركة ؛ «بنكراس تراست» فى ٨٤ شركة . وفى عام ١٩٥١ كان مدراء ٥ مصارف هى اكبر المصارف البريطانية يشغلون ١٠٠٨ من مناصب المدراء فى الشركات الاخرى .

فى عهد الامبريالية ، يشغل فريق صغير من كبار طواغيت المال مركز السيادة فى جميع الفروع ، ويبسط رقابته سواء أعلى اقتصاد البلد ام على سياسته . وهذا الفريق الصغير من اصحاب المصارف والصناعيين الاحتكاريين يشكل «الاوليغارشيا» (من الكلمة اليونانية «اوليغارشيا» وتعنى حكم القلة) او الطغمة المالية الكلية القدرة .

ان نظام المشاركة هو احد الاشكال الاساسية لسيادة الطغمة المالية فى الاقتصاد . وهو يظهر على النحو التالى : يملك طاغوت مالى او فريق من طواغيت المال حزمة الرقابة من الاسهم فى الشركة المساهمة الاساسية ، الشركة «الام» ، فيستغلون رأسمال هذه الشركة لشراء حزمة الرقابة من الاسهم فى شركات مساهمة اخرى هى الشركات — «البنات» . وبالطريق نفسه ، تمتلك الشركات «البنات» هذه حزمة الرقابة من الاسهم فى شركات «حفيدات» وشركات «حفيدات البنات» ، وهكذا دواليك .

وبواسطة التبعية المالية المتعددة الدرجات ، يراقب الماليون الكبار رأسمالا يزيد على رأسمالهم مرات عديدة . ففى ١٩٥٥–١٩٥٦ ، كانت كبريات الكتل المالية فى الولايات المتحدة الاميركية تراقب الرساميل التالية : كان مورغان برأسماله الخاص البالغ ٧ مليارات دولار يراقب رأسمالا قدره ٦٥,٣ مليار دولار ؛ وكان روكفلر برأسماله الخاص البالغ ٣,٥ مليارات يراقب رأسمالا قدره ٦١,٤ مليار دولار ؛

وكان دوبون برأسماله الخاص البالغ ٤,٧ مليارات دولار يراقب رأسمالا قدره ١٦ مليار دولار ؛ وكان ميللون برأسماله الخاص البالغ ٣,٨ مليارات دولار يراقب رأسمالا قدره ١٠,٥ مليارات دولار .

ان نظام المشاركة الواسع التشعب يسهم فى زيادة سلطان الطواغيت الماليين زيادة هائلة . وهو يؤمن للاحتكاريين امكانية القيام بشتى المناورات والدسائس ونتف ريش المساهمين الصغار . وتفسير ذلك ان الشركة «الام» المساهمة لا تتحمل بموجب القانون اى مسؤولية عن الشركة «البنت» التى تعتبر مستقلة . وفى اقتصاد الولايات المتحدة الاميركية ، تسود ثمانى كتل من طغمات المال هى كتلة مورغان وكتلة روكفلر وكتلة «فرست نايشنال سيتى بنك» وكتلة دوبون وكتلة ميللون وكتلة «بنك اوف اميركا» وكتلة شيكاغو وكتلة كليفلند . وفى عام ١٩٥٥ بلغ مجمل الاموال التى كانت تراقبها هذه الكتل ٢١٨,٥ مليار دولار .

ان آل مورغان وآل روكفلر هم زعماء الطغمة المالية . فان منطقة نفوذ آل مورغان تشمل خمسة من اكبر المصارف و ١٤ شركة للسكك الحديدية وشركة «يونايتد ستيت ستيل كوربوريشن» (للفولاذ) و «جنرال الكتريك» و «اميركان تلفون اند تلغراف كومبانى» و «اميركان غاز اند الكتريك كومبانى» ، وغيرها .

وتشمل منطقة نفوذ آل روكفلر «تشيز مانهاتان بنك» و «متروبوليتن لايف انشورنس كومبانى» والاحتكارات البترولية «ستاندارد اويل كومبانى اوف نيوجرسى» و «سوكونى موبيل اويل كومبانى» و «ستاندارد اويل كومبانى اوف انديانا» و «ستاندارد اويل كومبانى اوف كاليفورنيا» و «ستاندارد اويل كومبانى اوف اوهايو» ، وغيرها من الشركات .

ان القسم الساحق من الثروات متمركــز فى ايدى قلـة من طواغيت المال ـ الملوك غير المتوجين للفولاذ والبترول والسكك الحديدية ، والصحافة البرجوازية والسينما والسلالات المصرفية ، الخ .. وفى الولايات المتحدة الاميركية يملك واحد بالمئة من السكان ٥٩ بالمئة من جميع ثروات البلد . وفى بريطانيا يملك اقل من ٢ بالمئة من الملاكين ٦٧,٥ بالمئة من ثروات البلاد .

وتخضع الطغمة المالية لنفسها الدولة البرجوازية . والمواقع الاساسية الفاصلة فى سياسة البلدان البرجوازية هى فى ايدى كبار الاحتكاريين .

وتتصرف الطغمة المالية بسلطة الدولة . وتحدد تركيب الحكومة ، وسياسة البلد الداخلية والخارجية .

وتستغل الطغمة المالية سلطة الدولة من اجل قمع الحركة العمالية فى المتروبولات وحركة التحرر الوطنى فى المستعمرات . وتخدم الصحافة البرجوازية والراديــو والتلفزيون البرجــوازى والسينما البرجوازية مصالح الطغمة المالية . وبواسطة الآلة الدعائية الطيعة ، تشوه الطغمة المالية الرأى العام ، وتغرس الشوفينية والتمييز العرقى والقومى ، وتشترى وترشى الفئة العليا القليلة من الطبقة العاملة وتضعها فى خدمة مصالحها .

تصدير الرساميل

ان تصدير الرساميل هو احدى العلائم الاقتصادية الاساسية للامبريالية . ان تصدير البضائع كان من مميزات الرأسمالية ما قبل الإحتكار ، عندما كانت تسود المزاحمة الحرة . وفى ظل الرأسمالية الاحتكارية ، تزداد التجارة الخارجية اتساعا ، ولكن تصدير الرساميل هو الذى يكتسب الدور السائد .

في مرحلة الرأسمالية الاحتكارية ، يصبح تصدير الرساميل الاداة الرئيسية لاستثمار القسم الاكبر من العالم استثمارا دائبا منتظما من قبل حفنة من البلدان الرأسمالية المتطورة فى المضمار الاقتصادى . وفى جملة من البلدان الرأسمالية يظهر «فيض» هائل «من الرساميل» .

فى ظل الامبريالية ، تفضى سيادة الاحتكارات مع تركيزها الهائل جدا للرساميل ، وكذلك تطور الشركات المساهمة والمصارف التى تحصر فى ايديها كميات طائلة من اموال السكان الحرة ، الى انبثاق «فيض من الرساميل» فى جملة من البلدان الرأسمالية . ان «فيض الرساميل» هذا مشروط ونسبى . فان مستوى حياة جماهير السكان فى ظل الرأسمالية يظل منخفضا نسبيا ، بينما الزراعة التى تتأخر كثيرا عن الصناعة تحتاج أمسّ الحاجة الى الاموال من اجل تطورها . ولكن الرأسمالية الاحتكارية لا تستطيع ان توجه «فيض الرساميل» نحو رفع مستوى حياة السكان لأن هذا من شأنه ان يؤدى الى انخفاض ارباح الاحتكاريين .

وفى الركض وراء اعلى الارباح ، تصدر الاحتكارات الرساميل الى الخارج . ففى مستهل القرن العشرين ، كانت الرساميل تصدر بصورة رئيسية الى البلدان المتأخرة والمستعمَرة والتابعة حيث كان نقص الرساميل ، وانخفاض اسعار الاراضى وانخفاض الاجور ورخص الخامات تؤمن ارباحا عالية خيالية .

وفى الوقت الحاضر ايضا ، تصدر الرساميل الى البلدان الضعيفة التطور . فان الارباح التى ابتزتها الولايات المتحدة الاميركية من اميركا اللاتينية فى اعوام ١٩٤٦-١٩٦٠ بلغت ٨,٨ مليارات دولار . وفى هذه الحقبة من الزمن لم تبلغ توظيفات الرساميل المباشرة الخاصة الاميركية فى بلدان اميركا اللاتينية سوى ٤,٥ مليارات دولار .

في السنوات الاخيرة ، يتطور تصدير الرساميل بسرعة من بلد رأسمالى عالى التطور الى آخر . وسبب ذلك ، اشتداد المزاحمة والفرق فى مستويات الاجور .

تصدر الرساميل بشكلين اساسيين : ١ - بشكل رساميل منتجة عن طريق التوظيفات فى المؤسسات الصناعية والمصانع والمعامل والزراعة والنقليات ، الخ ،. ٢ - بشكل قروض من الرساميل ، ومنح القروض للدول والبلديات ، او بشكل قروض خاصة . ورغم الفرق بين شكلى تصدير الرساميل ، يبتغى المصدرون الهدف نفسه وهو الحصول على ربح احتكارى عال .

والرساميل المصدرة نوعان ، خاصة وحكومية (للدولة) . ففى مستهل القرن العشرين ، كان تصدير الرساميل بكليته تقريبا من شأن الافراد . امـا فى الوقت الحاضر ، فان نصيب الرساميل الحكومية (رساميل الدولة) فى مجمل الرساميل المصدرة يبلغ حوالى النصف ولا يزال فى ازدياد ، لأن الرساميل الخاصة تفضل الامتناع عن المجازفة نظرا لاشتداد خطر التأميم فى البلدان المتحررة .

ان الدول الامبريالية (الاستعمارية) تستغل تصدير الرساميل بغية توسيع القديم والاستيلاء على الجديد من مصادر الخامات واسواق التصريف ومناطق توظيف الرساميل ، بغية تحقيق التوسع الاقتصادى والسياسى والستراتيجى العسكرى .

تقاسم العالم اقتصاديا بين اتحادات الرأسماليين

تفـرض الاحتكارات ، اى التروستـات والسنديكـات والكارتلات ، سيادتها فى السوق الداخلية ، وتتقاسم هذه السوق فيما بينها . وتوظيفات الرساميل فى الخارج توسع الى حد كبير

مناطق نفوذ كبريات الاحتكارات كما توسع الصلات الخارجية بين هذه الاحتكارات . واتحادات الرأسماليين الاحتكارية فى بعض البلدان تتحول الى اتحادات احتكارية تفرض سيادتها على اسواق كثرة من البلدان . والاتحادات الاحتكارية لبعض البلدان تتحـول الى احتكارات عالمية . ان الاحتكارات العالمية هى احتكارات فى بعض البلدان تخطت اطار الحدود الوطنية ، او هى اتفاقات بين الاحتكارات الوطنية من مختلف البلدان .

فى عام ١٨٩٧ كان ثمة ٤٠ كارتلا عالميا ، وفى عام ١٩١٠ كان ثمة ١٠٠ كارتل عالمى ، وقبل الحرب العالمية الثانية كان ثمة زهاء ١٢٠٠ كارتل عالمى كانت تراقب اكثر من ٤٠ بالمئة من تجارة العالم الرأسمالى الخارجية . واضخم الاحتكارات العالمية هى كارتلات الفولاذ وقضبـان السكك الحديديـة والبترول ، والالومينيوم ، واصبغة الانيلين ، والآزوت ، والنحاس ، والقصدير ، والكاوتشوك ، الخ .. وبعد الحرب العالميـة الثانية ، انشئت احتكارات عالمية كبيرة بمشاركة نشيطة من الدول البرجوازية . ومن هذه الاحتكارات ، «الاتحاد الاوروبى للفحم والفولاذ» الذى يضم جمهورية المانيا الاتحادية وفرنسا وايطاليا وبلجيكا وهولنده واللوكسمبورغ .

يزعم مداحو الامبريالية ان الاتحادات الاحتكارية هى اداة سلام ، وان المشتركين فيها يستطيعون ان يتغلبوا بطريقة سلمية على التناقضات التى تنشب بين الكتل والبلدان الامبريالية . ان هذه المزاعم لا تمت باى صلة الى الواقع . بل ان الواقع يدحض هذه المزاعم . ففى ظل الرأسمالية ، تقتسم السوق الداخلية والخارجية على السواء حسب القوة ، حسب الرأسمـال . ان التفاوت فى تطور البلدان الرأسمالية ومختلف الاحتكارات يؤدى الى تغير نسبة القوى داخل الاحتكارات العالمية باستمرار . وابدا

ودائما يناضل كل طرف من اجل زيادة حصته ، من اجل توسيع منطقة الاستثمار الاحتكارى . «ان الكارتل او الاتحاد ليس فى الواقع الا بمثابة هدنة فى الحرب الصناعية» ، كما قال ألفرد موند ، رئيس التروست الكيماوى البريطانى (الشركة الكيماوية الامبراطورية) فى عام ١٩٢٧ .

ان تشكيل الاحتكارات العالمية لا يعنى توقف الصراع من اجل تقاسم العالم ولا يعنى الانتقال الى التعاون السلمى بين الدول الامبريالية (الاستعمارية) ، بل يعنى تازم الصراع بينها من اجل اسواق التصريف ومصادر الخامات ومناطق توظيف الرساميل .

انجاز تقاسم العالم اقليميا بين الدول الكبرى
والصراع من اجل اعادة تقاسمه

فضلا عن تقاسم العالم اقتصاديا بين اتحادات الرأسماليين ، يجرى تقاسم العالم اقليميا بين الدول الامبريالية . وعند تخوم القرنين التاسع عشر والعشرين ، كان قد انتهى تقاسم العالم بين عدد قليل من الدول الكبرى .

فى المرحلة الممتدة من عام ١٨٧٦ الى عام ١٩١٤ ، ازدادت الممتلكات الاستعمارية لست دول كبرى (بريطانيا ، روسيا ، فرنسا ، المانيا ، الولايات المتحدة الاميركية ، اليابان) من ٤٠ الى ٦٥ مليون كيلومتر مربع ، اى اكثر من ٥٠ بالمئة . وفى عام ١٨٧٦ لم تكن المانيا والولايات المتحدة الاميركية واليابان تملك اى مستعمرة ، بينا فرنسا لم تكن تملك او تكاد اى مستعمرة . ونحو عام ١٩١٤ ، كانت هذه الدول الاربع قد امتلكت مستعمرات تبلغ مساحتها ١٤ مليون كيلومتر مربع ، اى ما يربو على مساحة اوروبا كلها زهاء ٥٠ بالمئة .

وقد ازدادت اهمية المستعمرات بالنسبة للدول الامبريالية (الاستعمارية) بسرعة وشدة . فان سيادة الاحتكارات تكون أمتن وارسخ ما يكون عندما تقع جميع مصادر الخامات فى أيد واحدة . ثم ان ما يهم الرأسمال المالى ليست مصادر الخامات المكتشفة وحسب ، بل ايضا مصادرها المحتملة . وتطور العلم والتكنيك بسرعة يحول الاراضى غير النافعة فى الوقت الحاضر الى اراض نافعة فى المستقبل . ففى الصحراء الكبرى ، مثلا ، التى اعتبرت زمنا طويلا غير مثمرة على الاطلاق ، اكتشف الآن البترول الذى يعود استثماره على الاحتكارات الفرنسية بارباح كبيرة . ولهذا السبب بالذات ، لا تريد فرنسا ، التى اضطرت الى الاعتراف باستقلال الجزائر ، ان تتخلى عن بترول الصحراء الكبرى . ان الدول الامبريالية تسعى الى توسيع رقعة الاراضى الخاضعة لها اقتصاديا والى الاستيلاء على الاراضى بوجه عام .

ان امتلاك المستعمرات يؤمن للامبرياليين (الاستعماريين) منطقة لتوظيف الرساميل وسوقا لتصريف البضائع الصناعية من الاسهل فيها زحزحة المنافس . كذلك تتسم المستعمرات باهمية كبيرة بالنسبة للدول الامبريالية بوصفها قواعد حربية . والقواعد الحربية للدول الامبريالية في اراضى المستعمرات تسهل بدورها مراقبة هذه الاراضى .

ان انجاز تقاسم العالم اقليميا قد افضى الى حلول عهد الصراع من اجل اعادة تقاسمه . فلم يبق من الممكن الحصول على مستعمرات جديدة او على مناطق نفوذ جديدة الا بانتزاعها من دولة مستعمِرة اخرى .

ان الامبريالية لا تتميز فقط بالفئتين الاساسيتين من البلدان : فئة مالكة المستعمرات وفئة المستعمرات ، بل تتميز ايضا

بالبلدان التابعة المستقلة شكلا فى المضمار السياسى ، والمشبوكة فعلا بشباك التبعية المالية والاقتصادية . ففى مطلع القرن العشرين ، كان يمكن تصنيف الصين وايران وتركيا واغلبية دول اميركا اللاتينية فى عداد البلدان التابعة .

نظام الامبريالية الاستعمارى

لقد استعبد الامبرياليون سكان دول شاسعة وقارات برمتها بقساوة لم يسبق لها مثيل ، مستخدمين فى كثير من الاحيان احدث الاسلحة الفتاكة ضد الشعوب العزلاء فى بلدان عديدة . ونحو مستهل القرن العشرين ، كان القسم الاكبر من آسيا واميركا اللاتينية ، وافريقيا كلها واوستراليا كلها قد حوّلت الى مستعمرات واشباه مستعمرات وبلدان تابعة للامبرياليين ، وكان نشأ نظام الامبريالية الاستعمارى .

تستغل الامبريالية البلدان المستعمَرة والتابعة كذيل زراعى خامى (يقدم المنتوجات الزراعية والخامات) للمتروبولات ، ومنطقة لتوظيف الرساميل وسوق للتصريف . وقبل الحرب العالمية الثانية ، كانت المستعمرات وانصاف المستعمرات تنتج ٩٧ بالمئة من الكاوتشوك فى العالم الرأسمالى ، واكثر من ٩٦ بالمئة من القصدير ، و٩٥ بالمئة من النيكل ، و٨٢ بالمئة من الذهب ، و ٧٠ بالمئة من الفضة ، و٦٤ بالمئة من النحاس ، و٩٩ بالمئة من الجوت ، و٩٧ بالمئة من الفستق ، و٦٧ بالمئة من الصوف . وعموما ، كانت البلدان الامبريالية هى التى تحصل على هذه الخامات عن طريق التبادل غير المتكافئ مع البلدان المستعمَرة والتابعة ، وتشتريها باسعار ادنى من القيمة وتبيع البضائع الصناعية باسعار اعلى من القيمة . وكان استثمار الدول الامبريالية لشغيلة

البلدان المستعمَرة والتابعة يتحقق عن طريق تصدير الرساميل والتبـادل غير المتكافىء ، اى بتوريد البضائع الصناعيـة الى المستعمرات باسعار عالية وتصدير الخامات منها باسعار زهيدة .

ويستفاد من معطيات الاقتصادى الاميركى فيكتور برلو إن احتكارات الولايات المتحدة الاميركية حصلت عام ١٩٤٨ على دخل مباشر من البلدان التابعة قدره ٧,٥ مليارات دولار ، منها ١,٩ مليار دولار كايرادات معترف بها من توظيفات الرساميل ، و١,٩ مليار دولار من النقليات والضمان ، الخ .، و٢,٥ مليار دولار من البيع باسعار اعلى من القيمة ، و١,٢ مليار دولار من الشراء باسعار ادنى من القيمة .

ورغبة فى الحصول على ربح عال احتكارى ، يجمع الرأسمال الاحتكارى النهب الامبريالى مع الاشكال الاقطاعية لاستثمـار الشغيلة . وتحافظ الامبريالية فى البلدان المستعمَرة والتابعة على بقايا الاقطاعية ونظام الرق ، وتستغل وتغرس العمل الاكراهى . والبلدان المستعمَرة والتابعة هى منطقة لتوظيف رساميل الدول الامبريالية .

ان معدل الارباح التى ابتزتها شركات البترول فى عام ١٩٥٨ بلغ فى الولايـات المتحدة الاميركية ١٠ بالمئة ، وفى اميركا الجنوبية ٢٥ بالمئة ، وفى الشرقين الادنى والاوسط ٧٥ بالمئة . وفى عام ١٩٤٨ يلغ معدل ارباح احتكار السيارات الاميركى «جنرال موتورس» داخل الولايات المتحدة ٢٥ بالمئة ومن توظيفات الرساميل فى الخارج ٥٠ بالمئة .

ونحو فروع صناعة الاستخراج والزراعة تتجه بصورة رئيسية توظيفات الرساميل الاجنبية من الدول الامبريالية فى البلدان المستعمَرة والتابعة . ويتجه قسم كبير من توظيفات رساميل الدول الرأسماليـة فى البلدان الضعيفة التطور نحو صناعـة

الاستخراج ، وخاصة نحو استخراج البترول والفلزات الحديدية والقصدير والنيكل والالومينيوم والنحاس والاورانيوم والكوبالت وغيرها من المعادن النادرة وغير الحديدية .

لقد عرض الاقتصاديون البرجوازيون نظرية ما يسمى «محو الطابع الاستعماري» . ان هذه النظرية تزعم انه فى مستطاع المستعمرات والبلدان التابعة ، بدون حركة التحرر الوطنى ضد الامبريالية والكولونيالية ، وبمساعدة توظيفات الرساميل الاجنبية من الدول الامبرياليــة ، ان تحقق التصنيع وتبلغ الاستقلال الاقتصادى والسياسى . ولكن هذا الزعم لا ينطبق مع الواقع . فان تجربة التطور التاريخى فى بلدان آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية تبين ان النضال التحررى الوطنى وحده هو الذى يمكن من نيل الاستقلال السياسى الذى يشكل المقدمة الاولى والأهم للاستقلال الكامل . فان توظيفات الرساميل الاجنبية من الدول الامبريالية لا تسهم على العموم فى تصفية التأخر الاقتصادى فى البلدان المستعمرة والتابعة . الا ان قسما ضئيلا من توظيفات الرساميل الاجنبية يتجه نحو تطوير صناعة الانشاءات الميكانيكية والى الصناعة الثقيلة على العموم ، وذلك نتيجة لضغط البلدان التى نالت الاستقلال السياسى .

ان توظيفات الرساميل الاجنبية من الدول الامبريالية فى البلدان المستعمرة والتابعة تشوه اقتصاد هذه البلدان باضفائها عليه طابعا وحيدا واحدا . فان البلدان المستعمرة والتابعة سابقا تتميز بالتخصص الوحيد الطرف . فان اساس الاقتصاد فى العربية السعودية والكويت وايران وفينيزويلا ، مثلا ، هو البترول ، وفى الملايو الكاوتشوك والقصدير ، وفى بوليفيــا القصدير وفى البرازيل البن وفى السودان القطن وفى السنغال الفستق وفى غابون المانغانيز والاخشاب من الاصناف القيّمة ، الخ ..

ان تصدير الرساميل الى البلدان الضعيفة التطور فى المضمار الاقتصادى يعجل تطور الرأسمالية فى هذه البلدان ويفضى فى الوقت انفسه الى تحكم البلدان المتطورة اقتصاديا باقتصادها واخضاعها لها . وان نضال التحرر الوطنى الذى تخوضه شعوب البلدان المستعمرة والتابعة ضد الامبريالية هو وحده الذى يمكن هذه البلدان من الظفر بالاستقلال السياسى ويمكنها بعد الظفر به من تطوير الصناعة وسائر فروع الاقتصاد وتطوير التعليم واعداد المثقفين التكنيكيين من ابنائها ، ورفع مستوى حياة الشعب .

٢ ـ مكان الامبريالية فى التاريخ

الامبريالية هى مرحلة تاريخية خاصة من مراحل الرأسمالية . وخصائصها ثلاث : فالامبريالية هى الرأسمالية الاحتكارية ، والطفيلية او المتعفنة ، والمحتضرة .

الامبريالية هى الراسمالية الاحتكارية

ان الامبريالية ، من حيث جوهرها الاقتصادى ، هى الرأسمالية الاحتكارية . ان الامبريالية هى استمرار وتطور الخصائص الاساسية للرأسمالية ، ولهذا تحتفظ القوانين الاقتصادية للرأسمالية على العموم بمفعولهـا فى ظل الرأسمالية الاحتكارية . وفى مرحلـة الامبريالية ، يؤدى فعل القوانين الاقتصادية للرأسمالية الى تازم جميع تناقضاتها ولا سيما الى تازم تناقض الرأسمالية الاساسى ، اى التناقض بين الطابع الاجتماعى للانتاج والشكل الرأسمالى الخاص لامتلاك ثمار الانتاج . وتدفع الاتحادات الاحتكارية اضفاء الصفة

الاجتماعية على الانتاج حتى الحد الاقصى الممكن فى ظل الراسمالية ، ولكن وسائل الانتاج تبقى ، كما فى السابق ، ملكا خاصا للبرجوازية . وبغية الحصول على الربح العالى الاحتكارى ، يرفع الاحتكاريون درجة استثمار البروليتاريا ، مما يؤدى الى انخفاض قدرة السكان الشرائية . وليس يمكن عن غير طريق الثورة الاشتراكية حل التناقضات بين القوى المنتجة المتنامية والاطارات الضيقة لعلاقات الانتاج الرأسمالية .

فى عهد الامبريالية ، تتطور رأسمالية الدولة الاحتكارية على نطاق واسع . وتتدخل الدولة الرأسمالية مباشرة فى الحياة الاقتصادية لمصلحة الطغمة المالية . ولمصلحة الطغمة المالية ، تطبق الدولة البرجوازية مختلف اجراءات التنظيم والضبط ، وتلجأ الى استدالة بعض فروع الاقتصاد . ولئن كانت الدولة فى ظل الراسمالية ما قبل الاحتكار لجنة لتصريف شؤون البرجوازية كلها ، فهى تتحول عمليا فى عهد الامبريالية الى لجنة لتصريف شؤون البرجوازية الاحتكارية . وهذا ما يؤول الى تفاقم التناقضات بين البرجوازية الاحتكارية وجميع فئات الشعب ، بما فيها البرجوازية الصغيرة والمتوسطة .

الامبريالية هى الرأسمالية الطفيلية او المتعفنة

ان تعفن الرأسمالية وطفيليتها فى مرحلتها الامبريالية يتجليان فى التباطؤ العام لوتائر تطور الانتاج ، فى الميل الى الركود والى التعفن رغم نمو الانتاج فى الوقت نفسه فى بعض فروع الصناعة فى بعض البلدان الرأسمالية ، فى عرقلة تطور التكنيك وفى تطوره بصورة متفاوتة ووحيدة الشكل ، فى العجز عن استخدام الامكانيات الهائلة التى يكشفها العلم والتكنيك المعاصرين .

وفى عهد الامبريالية يتجلى تعفن الرأسمالية وطفيليتها فى

وجود فئة كبيرة من اصحاب الدخل ومن الدول صاحبة الدخل ، فى العجز المزمن عن استخدام الجهاز المنتج ، فى وجود بطالة جماهيرية دائمة ، فى انفلات العسكرية ، فى نمو استهلاك البرجوازية الطفيلى ، فى السياسة الرجعية التى تنتهجها الدول الامبريالية فى الميدانين الداخلى والخارجى ، فى رشوة برجوازية البلدان الامبريالية للفئة العليا القليلة العدد من الطبقة العاملة .

ان الاتحادات الاحتكارية تخلق بحكم وجودها الميل الى التعفن والركود . وفى ظل الامبريالية ، تتوافر للاحتكارات ، بفضل وضعها السائد ، امكانية فرض الاسعار الاحتكارية والاحتفاظ بها على مستوى عال بصورة اصطناعية . ومن جّراء ذلك ، لا تكون دائما لدى الصناعيين مصلحة فى استخدام الاختراعات وفى الاستعاضة عن التجهيزات الشائخة بتجهيزات احدث .

وفى ظل الرأسمالية الاحتكارية ، يتعاظم كثيرا الفرق بين امكانيات العلم والتكنيك بوصفهما مصدرين لاكثار ثروات المجتمع البشرى ودرجة استغلال هذه الامكانيات . فان عددا عديدا من الاحتكارات الرأسمالية تشترى براءات الاختراع لكى لا ترى اختراعات النور . فان الاحتكار الاميركى «جنرال موتورس»، مثلا ، لا يستغل سوى واحد بالمئة من براءات الاختراع التى يملكها .

ولكن الميل الى الركود والجمود لا يعنى انه لا يوجد اى تطور فى ظل الامبريالية . فان الاحتكار يولد الركود والجمود ، ولكن المزاحمة القائمة فى ظل الامبريالية ايضا تدفع الرأسماليين على الدوام الى استخدام احدث منجزات العلم والتكنيك فى الانتاج من اجل بيع البضائع باسعار ارخص من اسعار مزاحميهم ، من اجل الحصول على المزيد من الارباح . ولهذا يتطور التكنيك بسرعة فى ظل الامبريالية فى جملة من الفروع ولا سيما فى الفروع الجديدة .

ان الميل الى التعفن والميل الى التقدم التكنيكى يتصادمان باستمرار . فتارة ينتصر احدهما وطورا الميل الآخر ، وهذا ما يشدد تفاوت التطور الذى تتميز به الرأسمالية .

ومن علائم تعفن الرأسمالية ، هبوط وتاثر نمو الانتاج الصناعى . ففى الولايات المتحدة الاميركية ، مثلا ، بالكاد يسبق نمو الانتاج الصناعى نمو عدد السكان . ففى اعوام ١٩٥٣-١٩٦٠ ، مثلا ، بلغ نمو عدد السكان فى السنة زهاء ٢ بالمئة ، بينا نما الانتاج بصورة وسطية فى السنة ٢,٤ بالمئة فقط . وفى عام ١٩٦١ كان نمو الانتاج (اقل من واحد بالمئة) ادنى من نمو عدد السكان (١,٥ بالمئة) .

وتتجلى طفيلية الرأسمالية فى نمو العسكرية . فان قسما جسيما جدا من الدخل الوطنى (القومى) ومن دخل الشغيلة ينفق بصورة رئيسية على الاغراض العسكرية والحربية . والارقام التالية تدل على نمو النفقات العسكرية والحربية الهائل : فى عام ١٩٢٩ ، بلغت النفقات العسكرية المباشرة فى جميع البلدان الرأسمالية ٤,٢ مليارات دولار ؛ وفى عام ١٩٥٨ ، بلغت النفقات العسكرية فى دول الناتو (حلف الاطلسى الشمالى) وحدها اكثر من ٦٠ مليار دولار . وفى شهر واحد فقط ، تبلغ النفقات العسكرية لهذه الدول قدرا من الاموال يكفى لرى الصحراء الكبرى كلها .

ان الاموال التى انفقت على خوض غمار الحرب العالمية الثانية كان من شأنها ان تكفى لبناء شقة من خمس غرف لكل من العائلات فى العالم اجمع ، ولتأمين التحصيل الثانوى لجميع الاولاد فى العالم اجمع ، ولتجهيز مستشفى لكل خمسة آلاف نسمة من سكان الارض .

ويتجلى تعفن الرأسمالية فى كون البرجوازية الامبريالية تستغل

ارباحها من استثمار البلدان المستعمرة والتابعة وترشى الفئة العليا من الطبقة العاملة ، او ما يسمى باريستقراطية العمال ، وتجبرها على خدمة مصالحها .

الامبريالية هى الرأسمالية المحتضرة

تؤزم الامبريالية تناقضات الرأسمالية الى الحد الاقصى . وتناقضات الامبريالية الرئيسية هى : ١ - التناقض بين العمل والرأسمال ؛ ٢ - التناقض بين الدول الامبريالية ؛ ٣ - التناقض بين المتروبولات والمستعمرات . وهذه التناقضات لم يبق من الممكن حلها فى اطار الرأسمالية .

وهكذا يفضى تطور الرأسمالية ، ولا سيما فى مرحلتها العليا ، الى ضرورة الثورة الاشتراكية المدعوة الى القضاء على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وعلى استثمار الانسان للانسان .

ان تطور البلدان الرأسمالية فى مرحلة الامبريالية يجرى بصورة متفاوتة وبشكل قفزات . وهذا ما يدل عليه تغير الوزن النسبى لبعض البلدان فى الانتاج الصناعى بالعالم الرأسمالى كله (راجع الجدول . المعطيات بالنسبة المئوية) :

البلد	١٨٧٠	١٩١٣*	١٩٣٨	١٩٤٦	١٩٥٨
الولايات المتحدة الاميركية	٢٣,٣	٣٧,٩	٤١,٤	٥٩,١	٤٦,٩
بريطانيا	٣١,٨	١٤,٨	١٢,٥	١٢,١	١٠,٥
جمهورية المانيا الاتحادية	١٣,٢**	١٦,٦**	٩,٠**	٣,٨	٨,٣
فرنسا	١٠,٣	٦,٨	٦,٠	٥,١	٥,٤

* بدون روسيا .

** المانيا كلها .

يتبين من الجدول ان بريطانيا كانت في عام ١٨٧٠ تشغل المرتبة الاولى في ميدان الانتاج الصناعي بين البلدان الرأسمالية ، والولايات المتحدة الاميركية المرتبة الثانية ، والمانيا المرتبة الثالثة ، وفرنسا المرتبة الرابعة . وفي عام ١٩١٣ ، لم تشغل الولايات المتحدة الاميركية المرتبة الاولى في ميدان الانتاج الصناعي وحسب ، بل بلغ منتوجها الصناعي قرابة منتوج المانيا وبريطانيا وفرنسا معا . وشغلت المانيا المرتبة الثانية ، وبريطانيا الثالثة وفرنسا الرابعة . وفي عام ١٩٣٧ ، ازداد الانتاج الصناعي في الولايات المتحدة الاميركية ٥٠ بالمئة عنه في بريطانيا والمانيا وفرنسا معا .

وبعد الحرب العالمية الثانية ، في عام ١٩٤٦ ، ازداد نصيب الولايات المتحدة الاميركية في الانتاج الصناعي بالعالم الرأسمالي حتى ٥٩,١ بالمئة ، ولكنه هبط في عام ١٩٥٨ الى ٤٦,٩ بالمئة .

ان تفاوت التطور الاقتصادي يؤدي الى الحد الاقصى من تأزم التناقضات بين البلدان الامبريالية .

ان تفاوت التطور الاقتصادي في البلدان الرأسمالية في عهد الامبريالية يؤدي الى تفاوت تطورها السياسي . فان الحركة العمالية ، مثلا ، قد تطورت بصورة متفاوتة منذ ولادتها . ففي غضون القرن التاسع عشر ، انتقل مركز الحركة الثورية من بريطانيا (العقدان الرابع والخامس) الى المانيا (اعوام ١٨٤٤-١٨٤٩) ، وفرنسا (عام ١٨٧١) وعاد من جديد الى المانيا (الثلث الاخير من القرن التاسع عشر) . وفي مطلع القرن العشرين انتقل مركز الحركة الثورية العالمية الى روسيا .

ان تفاوت التطور الاقتصادي والسياسي في البلدان الرأسمالية يفضي الى اختلاف اوقات نضوج المقدمات لأجل انتصار الثورة الاشتراكية في مختلف البلدان . وبفعل قانون تفاوت التطور

الاقتصادى والسياسى فى البلدان الرأسمالية فى عهد الامبريالية ، تضعف جبهة الامبريالية العالمية . واختلاف اوقات نضوج الثورة ينفى امكانية انتصار الثورة فى آن واحد فى جميع البلدان او فى اغلبية البلدان . وتنشا امكانية تحطيم للسلسلة الامبريالية فى حلقتها الضعيفة وامكانية انتصار الثورة الاشتراكية اولا فى عدة بلدان وحتى فى بلد واحد بمفرده .

ان النظرية القائلة ان الامبريالية هى اعلى وآخر مراحل الراسمالية ، نظرية انتصار الثورة الاشتراكية فى بلد واحد هى من وضع لينين .

٣ ـ السياسة الامبريالية للدول الكبرى فى اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين

تأزم التناقضات الامبريالية

فى اواخر القرن التاسع عشر ، تازمت التناقضات الاقتصادية والسياسية بين الدول الامبريالية الكبرى . ونشات تدريجيا كتلتان متعاديتان ، احداهما برئاسة بريطانيا ، والثانية برئاسة المانيا . واصبحت مسالة اسواق التصريف والمستعمرات مسالة حادة . ولكنه لم تكن قد بقيت فى الكرة الارضية اراض «حرة» . وقد اعتبرت الدول الرأسمالية الكبيرة التى شرعت فى وقت متأخر بالفتوحات الاستعمارية ، وبالدرجة الاولى المانيا والولايات المتحدة الاميركية واليابان ، انها مغبونة من حيث مصادر الخامات واسواق التصريف ، وطرحت قضية اقتسام المستعمرات ومناطق النفوذ من جديد . ولم يكن الاستيلاء على المستعمرات يبتغى الحصول على الارباح الطائلة وحسب ، بل كان يبتغى ايضا حل

التناقضات الداخلية على حساب شعوب البلدان المستعمرة ، لأن جزءا من الارباح الاستعمارية كان يستغل لرشوة الفئة العليا من الطبقة العاملة .

استعباد شعوب افريقيا الشرقية. ثورة المهدى فى السودان

فى اواخر السبعينيات من القرن التاسع عشر ، بسط اصحاب المصارف الانجليز والفرنسيون مراقبتهم على مصر . وفى عام ١٨٨٢ ، نشبت ثورة شعبية فى مصر بقيادة عرابى باشا ، الضابط فى الجيش المصرى . وقد طالب الثوار بطرد الاجانب واجراء اصلاحات برجوازية . وجوابا على ذلك ، شنت بريطانيا الحرب على مصر ، واحتلتها كليا واقامت فيهـــا نظام الحكم الاستعمارى .

وفى عام ١٨٨١ نشبت فى السودان ثورة ضد الاستعمار ، بقيادة المهدى محمد احمد . وكانت ثورة الفلاحين والرحل والارقاء السودانيين على المستعمرين الانجليز والدواوينية (البيروقراطية) الاقطاعية المصرية . وفى عام ١٨٨٥ ، حرر الثوار جميع اراضى البلاد واحتلوا المدينة الرئيسية ، الخرطوم . وانشئت الدولة المهدية المستقلة ؛ وقد دامت ١٣ سنة .

ابان الحرب التى امتدت من عام ١٨٩٦ الى عام ١٨٩٨ استولى المستعمرون البريطانيون على السودان وقضوا على الدولة المهدية ، ودمروا مدينة ام درمان بصورة وحشية ، وعلقوا على جدران الخرطوم وام درمان رؤوس الاسرى المقطوعة ، وهدموا ضريح المهدى واحرقوا رفاته فى موقد

احدى السفن . الا ان ثورة المهدى ألهمت شعوب مصر والهند وغيرهما من البلدان المستعبدة فى افريقية وآسيا على مقاومة المستعمرين .

المانيا وفتوحاتها الاستعمارية

بعد عقد الحلف الثلاثى (المانيا ، النمسا-المجر ، ايطاليا) فى عام ١٨٨٢ ، تعاظم دور المانيا العالمى . فطالب الامبرياليون (الاستعماريون) الالمان على المكشوف بمنحهم نصيبا من المستعمرات يتناسب مع قدرتهم العسكرية والاقتصادية .

فى سنوات العقد التاسع من القرن التاسع عشر ، اخذت المانيا تشدد سياستها التوسيعية . وفى نيسان (ابريل) ١٨٨٤ ، اعلنت المانيا حمايتها لمكاتب التاجر الالمانى لوديريتس (من مدينة بريمن) فى جنوب غرب افريقيا عند خليج انغرا-بيكينيا وللساحل الممتد من انغولا (المستعمرة البرتغالية) حتى مستعمرة الرأس . وهكذا استولت المانيا على مساحة شاسعة من الاراضى أسميت بافريقيا الجنوبية الغربية الالمانية .

وفى منتصف عام ١٨٨٤ استولت المانيا على التوغو والكاميرون ، وفى عام ١٨٨٥ على اراض فى الجزء الشرقى من افريقيا وعلى زنجبار ، واسمتها بافريقيا الشرقية الالمانية .

الحرب الاسبانية الاميركية

كذلك ابدت الولايات المتحدة الاميركية نشاطا كبيرا فى مضمار الفتوحات الاستعمارية . وقد استثارت فى عام ١٨٩٨ الحرب الاسبانية الاميركية .

قبل هذه الحرب بزمن طويل ، اعلنت الولايات المتحدة الاميركية عن رغبتها فى التوسع فى بلدان اميركا اللاتينية والشرق الاقصى . وبذريعة مذهب مونرو* وسياسة «حسن الجوار» عززت الولايات المتحدة الاميركية تدخلها الاقتصادى فى بلدان اميركا اللاتينية ، وأزاحت منها الدول الاوروبية . وحاولت فى الوقت نفسه ان تقيم سيطرتها الاقتصادية فىبلدان الشرق الاقصى : فى اليابان ، والصين ، وغيرهما . وفى عام ١٨٩٨ ، الحقت الولايات المتحدة الاميركية جزر هاوايى بها لأجل تعزيز مواقعها فى منطقة الشرق الاقصى ، وجعلت من هذه الجزر نقطة ارتكاز لأجل التوسع فى بلدان الشرق الاقصى ؛ وفى عام ١٨٩٩ ، حولت الولايات المتحدة الاميركية جزيرة ساموا الشرقية الى مستعمرة . وارادت الولايات المتحدة الاميركية ان تستولى على الفيليبين ، المستعمرة الاسبانية لتوطيد مواقعها فى الشرق الاقصى ، وعلى كوبا للتسرب الى بلدان اميركا اللاتينية .. وبدأت الاستعدادات للحرب ضد اسبانيا .

فى عام ١٨٩٥ ، انفجرت فى كوبا ثورة مسلحة بقيادة خوسه مارتى ومكسيم هوميس وانطونيو ماسيو ، وفى عام ١٨٩٦ انفجرت ثورة فى الفيليبين . فقررت الولايات المتحدة الاميركية ان تستغل هذا النضال ، وان تستولى على كوبا والفيليبين تحت

---

* مذهب مونرو – اعلان بسياسة الولايات المتحدة الاميركية حيال اميركا اللاتينية ، صدر عام ١٨٢٣ . كان مذهب مونرو («اميركا للاميركيين») موجها شكلا ضد تدخل الدول الاوروبية ، ولكنه كان بالفعل محاولة لتعليل وتبرير طموح الولايات المتحدة الاميركية الى بسط نفوذها فى عموم القارة الاميركية .

ستار مساعدة الثوار . فاتخذ كونغرس الولايات المتحدة الاميركية فى عام ١٨٩٦ قرارا خاصا بضرورة التدخل فى الاحداث الكوبية وتقدم من اسبانيا بعرض الوساطة . ولكن اسبانيا رفضت هذا العرض . وآنذاك عززت الولايات المتحدة الاميركية استعداداتها الحربية .

وقد جعل الرئيس الاميركى الجديد ماك كينلى من الاستيلاء فورا على كوبا والفيليبين حجر الزاوية فى سياسته . وفى ١٥ شباط (فبراير) ١٨٩٨ ، حدث انفجار فى السفينة الاميركية «ماين» الراسية فى مرفأ هافانا ، وذلك فى احوال غامضة ، وغرقت السفينة . وعلى الأثر ، بدأ التحقيق . وحتى قبل بداية التحقيق ، القت الحكومة الاميركية على اسبانيا مسؤولية الانفجار فى السفينة «ماين» . فاقدمت اسبانيا على التنازل ، ولكن مسالة الحرب كانت قد قررت .

ففى ٢١ نيسان (ابريل) بدأت الولايات المتحدة الاميركية العمليات الحربية بدون اعلان الحرب . ومنيت اسبانيا بالهزيمة التامة سواء أفى الجزر ام فى البحر . وبموجب الهدنة الموقعة بعد استسلام القوات الاسبانية فى مانيلا ، تخلت اسبانيا عن كوبا وبورتوريكو وغيرهما من الجزر فى الهند الغربية لصالح الولايات المتحدة الاميركية . وظلت مسالة الفيليبين معلقة .

واستغلت المانيا وبريطانيا ضعف اسبانيا وحاولتا ان تمدا ايديها الى قسم من مستعمراتها . فطالبت المانيا بان تبيعها اسبانيا جزر ماريان وجزر كارولين وجزر مارشال وجزر كانارى . فوافقت اسبانيا على اجراء مفاوضات حول بيع جميع الجزر باستثناء جزر كانارى .

ونظرا لادعاءات المانيا وبريطانيا ، اضطرت اسبانيا الى تلبية مطالب الولايات المتحدة الاميركية ، وفى ١٠ كانون الاول

(ديسمبر) ١٨٩٨ تم التوقيع فى باريس على معاهدة صلح اعترفت فيها اسبانيا « باستقلال » كوبا ، واحالت للولايات المتحدة الاميركية بورتوريكو وغوام وباعت جزر الفيليبين بعشرين مليون دولار . وفى اوائل عام ١٨٩٩ ، تم التوقيع على اتفاقية ببيع جزر ماريان ومارشال وكارولين لالمانيا بمبلغ زهيد (٢٥ مليون بيزوتو) . كذلك اصبحت جزر ساموا الغربية مستعمرات المانية . وواصلت الولايات المتحدة احتلال اراضى كوبا « المستقلة » حتى بعد توقيع معاهدة الصلح . وانتقلت السلطة كلها فى البلد الى يد الحاكم العسكرى الاميركى .

وفى عام ١٩٠١ ، فرض امبرياليو (استعماريو) الولايات المتحدة الاميركية ما يسمى تعديل بلاّت على دستور كوبا . وقد كرّس هذا التعديل الجائر تحويل كوبا الى مستعمرة فعلية للولايات المتحدة الاميركية . وبموجب تعديل بلاّت ، انال امبرياليو الولايات المتحدة الاميركية « حق » التدخل فى كوبا ، ومنعوا كوبا اساسا من عقد المعاهدات مع الدول الاخرى ومن نيل القروض الاجنبية دون موافقة الولايات المتحدة الاميركية . وحصلت الولايات المتحدة الاميركية على قواعد بحرية فى كوبا . وخوفا من نضالات جديدة يقوم بها الشعب الكوبى المناضل فى سبيل استقلال بلده ، حلت الولايات المتحدة الاميركية الجيش الكوبى . هكذا أنهت الولايات المتحدة الاميركية الحرب التى بدأتها ، كما اعلنت حكومتها ، من اجل تحرر كوبا واستقلالها .

كانت الحرب الاسبانية الاميركية اول حرب فى سبيل اعادة تقاسم العالم ، ونتيجة لتطور الرأسمالية بتفاوت وقفزات . ولقد كانت الولايات المتحدة الاميركية اول دولة فى عداد اقوى الدول الامبريالية (الاستعمارية) شنت الحرب فى سبيل اعادة تقاسم العالم وفى سبيل اسواق التصريف .

حرب البوير (الحرب بين البوير والانجليز)

فى عام ١٨٩٩ ، شنت بريطانيـــا حربـــا استيلائية ضد جمهوريتى اورانج والترانسفال فى جنوب افريقيا ، اللتين يقطنهما البوير وهم من ذرية المستوطنين الهولنديين . وكان هؤلاء قد استولوا على اراضى هذين البلدين من الافريقيين ، سكانهما الاصليين . قاوم البوير بعناد وانزلوا بالقوات البريطانية جملة من الهزائم ، ولجاوا الى حرب الانصـــار على نطاق واسع . ولكن البوير انفسهم كانوا ينتهجون سياسة التمييز العنصرى حيال السكان الزنوج الاصليين وبهذا قوضوا قواهم ذاتها .

فى عام ١٩٠٢ ، فرضت بريطانيا على جمهوريتى اورانج والترانسفال صلحا امبرياليا (استعماريا) تحولتا بموجبه الى مستعمرتين بريطانيتين .

توسع الولايات المتحدة الاميركية الامبريالى فى اميركا اللاتينية

فى اواخـــر العقد الثامن واوائل العقد التاسع من القرن التاسع عشر ، بدأت شركة فرنسية ببناء قناة باناما ، فدب فساد لا سابق له حوّل بناء القناة الى مغامرة وفضيحة (ومذ ذاك اصبح لكلمة « باناما » معنى سلبى) وادى الى افلاس الشركة . وفى عام ١٩٠٢ ، باعت الحكومة الفرنسية حقوقها الامتيازية من حكومة الولايات المتحدة الاميركية . وفى كانون الثانى (يناير) ١٩٠٣ ، تم التوقيع بين حكومتى الولايات المتحدة الاميركية وكولومبيا على معاهدة تستأجر بموجبها الولايات المتحدة الاميركية لمدة ٩٩ سنة شريطا من الارض الكولومبية من اجل بناء القناة . ولكن الكونغرس الكولومبى

رفض المصادقة على معاهدة الخيانة التى عقدتها حكومته . آنذاك استثارت الولايات المتحدة الاميركية بواسطة عملائها انتفاضة فى منطقة القناة ودعمتها على المكشوف . وتكونت دولة جديدة فى برزخ باناما هى دولة باناما ؛ فاعترفت بها الولايات المتحدة على الفور ، وشرعت تبنى القناة بحماية قواتها المسلحة ، وانتهت من بنائها فى عام ١٩١٤ . وقد استغلت الولايات المتحدة الاميركية قناة باناما من اجل التحكم ببلدان اميركا اللاتينية .

منح الاحتكاريون الاميركيون دول اميركا اللاتينية القروض بشروط مفيدة لهم الى اقصى حد . كذلك كان لاصحاب المصارف البريطانيين مقادير لا باس من الرساميل الموظفة فى هذه البلدان ، ولكن بريطانيا ، نظرا لتفاقم التناقضات البريطانية الالمانية ، قررت الاّ تختلف مع الولايات المتحدة الاميركية واقدمت على تنازلات كبيرة . كذلك لم تكن الولايات المتحدة الاميركية راضية عن اشتداد مزاحمة الشركات التجارية الالمانية فى بلدان اميركا اللاتينية .

فى اعوام ١٩١٠ ـ ١٩١٧ ، نشبت فى المكسيك ثورة ضد التوسع الامبريالى (الاستعمارى) وضد البقايا الاقطاعية زعزعت مواقع الرجعية الاقطاعية والاكليريكية والرأسمال الاجنبى فى البلاد وكانت لها اهمية جسيمة جدا بالنسبة لنهوض حركة التحرر الوطنى لشعوب اميركا اللاتينية .

ثورة الايخيتوان الشعبية فى الصين (١٨٩٩ـ١٩٠١)

كانت بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الاميركية تعتبر المانيا خصمها الرئيسى . ولم تخف المانيا عزمها على اعداد «حرب كبيرة» فاخذت بكل حمّى تبنى السكك الحديدية ،

وتعزز حامياتها فى المستعمرات ، وتبنى اسطولا بحريا حربيا جبارا .

وجاء امتناع بريطانيا وفرنسا عن تلبية مطامع العسكريين الالمان الاستعمارية تؤزم اكثر من ذى قبل العلاقات بين هذه البلدان . ولكن هذه البلدان كانت تعمل معا ضد حركة التحرر الوطنى . فعندما نشبت فى الصين عام ١٨٩٩ انتفاضة الايخيتوان الشعبية المعادية للامبريالية ، شكلت الدول الامبريالية (الاستعمارية) فيلقا دوليا بقيادة جنرال ألمانى وارسلت هذا الفيلق الى قمع الثورة . وفى عام ١٩٠١ قمعت الدول الامبريالية بتضافر جهودها الثورة .

الا ان نضال الايخيتوان عرقل تقاسم اراضى الصين كليا . وقد كان لثورة الايخيتوان الشعبية اهمية هائلة بالنسبة لتطور حركة التحرر الوطنى فى الصين .

وبعد مفاوضات طويلة ، اجبرت الدول الاستعمارية الصين على توقيع «بروتوكول نهائى» فى عام ١٩٠١ ألزمت بموجبه الصين على تلبية معظم مطامع الغزاة الاقليمية ، وعلى منحهم حق تحصيل الضرائب من الاهلين ، وعلى دفع غرامة جسيمة قدرها ٩٨٠ مليون ليان (زهاء مليار ونصف مليار روبل ذهبى) . وهكذا تحولت الصين ، من حيث جوهر الامر ، الى نصف مستعمرة للدول الامبريالية . ووافق ممثلو السلالة المنشورية الحاكمة على هذه المطالب لأنهم كانوا يخافون من انتصار الشعب .

وحتى قبل ثورة الايخيتوان ، كانت اراضى الصين مقسومة الى مناطق نفوذ ، فجاءت هزيمة الثورة توطد هذا التقسيم . فاصبح حوض نهر يانتسى منطقة سيادة لبريطانيـا ، واقليم شاندون لالمانيا ، واقليم يونّان لفرنسا ، والاقاليم الشمالية

الشرقية (منشوريا) لروسيا القيصرية ، واقليم فوتسيان لليابان . واستولت بريطانيا على مرفأ ويهاوى بحجة «استئجاره» لمدة ٢٥ سنة ، واستولت فرنسا على غوانتشووان بحجة «استئجارها» لمدة ٩٩ سنة ، والمانيا على مرفأ تسينداو بحجه «استئجاره» لمدة ٩٩ سنة ، وروسيا القيصرية على مرفأ بورت-ارتور بحجة «استئجاره» لمدة ٢٥ سنة .

بيد ان اعمال المستعمرين المشتركة ضد الشعب الصينى لم تخفف التناقضات فيما بينهم .

ونظرا لتقاسم الصين الى مناطق نفوذ ، تقدمت الولايات المتحدة بمذهب «الابواب المفتوحة» * مفترضة انه من الاسهل لها ان تتوسع فى الصين عن السبيل الاقتصادى .

توسع المانيا فى الشرقين الادنى والاوسط

حملت المانيا تركيا على منح الراسماليين الالمان امتيازات لبناء سكة حديد بغداد من البوسفور الى الخليج الفارسى عبر آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين . وكان من المتوقع ان تكتسب هذه السكة الحديدية اهمية ستراتيجية كبيرة . وقد وقعت معهدتان مع تركيا فى عامى ١٨٩٣ و ١٩٠٣ .

هدد توسع المانيا فى الشرقين الادنى والاوسط وامتداده

---

* مذهب «الابواب المفتوحة والفرص المتكافئة» - سياسة اعلنتها الولايات المتحدة الاميركية عام ١٨٩٩ حيال الصين . طالبت الولايات المتحدة الاميركية بتصفية مناطق نفوذ الدول الامبريالية (الاستعمارية) فى الصين لكى تنال جميع الدول الاجنبية حقوقا متساوية فى النشاط التجارى والصناعى فى عموم اراضى الصين . لم تامل الامبريالية الاميركية بالحصول على منطقة نفوذ ، فسعت الى تامين سيادتها على عموم الصين .

نحو الخليج الفارسى مصالح الامبرياليين (الاستعماريين) البريطانيين فى الهند . ففى كانون الثانى (يناير) ١٨٩٩ ، اعلنت بريطانيا حمايتها للكويت ووضعت الخطط للاستيلاء على الجزيرة العربية وبلاد ما بين النهرين . كل هذا ادى الى تازم التناقضات الامبريالية (الاستعمارية) بين بريطانيا والمانيا فى الشرقين الادنى والاوسط وفى افريقيا تأزما شديدا . وقد اختار الاستعماريون الالمان سبيل الاستيلاء بقوة السلاح لأجل تحقيق اهدافهم الاغتصابية ، لأن بريطانيا وفرنسا رفضتا تلبية مطالب المانيا بالسبيل السلمى . فشرع الاستعماريون الالمان فى بناء اسطول بحرى حربى جبار فى مستطاعه ان ينافس الاسطول البريطانى .

وكانت كل خطوة جديدة تخطوها المانيا فى ميدان الاستعداد للحرب تقوى خلافاتها مع بريطانيا وفرنسا .

فان بناء قناة كيل (١٨٩٥) التى تتيح لالمانيا توحيد اسطولى بحر البلطيق وبحر الشمال ، ونمو القوات البحرية والبرية بسرعة ، والمخطط الجليل لبناء السفن الحربية الذى وضعه الاميرال تيربيتس وصادق عليه الريخستاغ عام ١٨٩٨ ، وتغلغل الاحتكارات الالمانية فى بلدان اميركا اللاتينية وافريقيا والبلقان ، والامتيازات ببناء سكة حديد بغداد ، كل هذا اثار قلق الاوساط الحاكمة فى بريطانيا وفرنسا .

الحرب الروسية اليابانية ١٩٠٤-١٩٠٥

حبكت اليابان خططا للاستيلاء على الاقاليم الشمالية الشرقية من الصين ، حيث تتوافر مكامن غنية من المطمورات النافعة ، ولكن روسيا وقفت فى طريق تنفيذ هذه الخطط .

ناهيك بان اليابان حاولت ان تسولى على جزيرة ساخالين التى تخص روسيا والتى تفتح سبيلا الى سيبيريا .

فى مستهل عام ١٩٠٤ ، هاجمت اليابان روسيا دون اعلان حرب . وكانت روسيا غير مستعدة اطلاقا للحرب ، واضطرت الحكومة القيصرية على توقيع الصلح فى عام ١٩٠٥ .

وفى عـــام ١٩٠٥ ، بدأت الثورة الروسيـــة الاولى ، وبتاثيرها جرت ثورة فى جملة من البلدان التابعة : الثورة الايرانية (١٩٠٦-١٩١١) ، ثورة تركيا الفتاة (١٩٠٨-١٩٠٩) ، ثورة سينهاى فى الصين (١٩١١-١٩١٣) ، ونشبت حركة ثورية فى كوريا واشتد نضال التحرر الوطنى فى الهند واندونيسيا وفى البلدان العربية .

وكانت حكومة روسيا القيصرية تخشى ، اشد ما تخشى ، شعبها بالذات . وقد اثارت الثورة الروسية (١٩٠٥-١٩٠٧) الذعر فى الاوساط الحاكمة الى حد ان الحكومة القيصرية وافقت على الاستسلام شرط ان تحول دون انتصار الثورة . وبموجب معاهدة بورتسموت للصلح (ايلول - سبتمبر ١٩٠٥) ، سلمت روسيا اليابان القسم الجنوبى من ساخالين واعترفت بتفوق نفوذ اليابان فى كوريا ومنشوريا ، وتخلت عن حقوقها فى بورت-ارتور وسكة حديد الصين الشرقية .

تقوض نفوذ روسيـــا الدولى . واستغلت المانيـــا ذلك ، فعززت توسعها فى البلقان وفى تركيا . ولم تخف روسيا وحدها ، بل بريطانيا ايضا من سياسة الاستعمار الالمانى العدوانية ، لأن المانيا هددت كذلك النفوذ البريطانى فى الشرقين الادنى والاوسط .

وكانت تركيا تمزقها التناقضات الداخلية الحادة وحروب التحرر الوطنى التى خاضتها الشعوب المظلومة ، فوقعت اكثر فاكثر فى تبعية انجلترا وفرنسا ، المالية والاقتصادية .

خوفا من الحلف الثلاثى (المانيـا الاستعمارية الامبريالية ، النمسا-المجر ، ايطاليا) ، ارادت بريطانيا وفرنسا ان تحققا عن طريق المساومة مشاريعهما الاستيلائية الاغتصابية ، فعقدتا عام ١٩٠٤ اتفاقية معروفة فى التاريخ باسم «الوفاق القلبى» * او «الانتانت» . وكان الهدف الرئيسى من الاتفاقية الانجلو-فرنسية توحيد الجهود لخنق حركة التحرر الوطنى فى افريقيا وفى الشرقين الادنى والاوسط .

ولخلق ثقل موازن لالمانيا فى اوروبا ، قررت بريطانيـا وفرنسا ان تجتذبا روسيا الى جانبهما أملا فى مساعدتها لهما . وبنتيجة مفاوضات طويلة عقدت اتفاقية انجلو-روسية فى عام ١٩٠٧ حول مناطق النفوذ فى ايران وافغانستان والتيبت . وقد نصت هذه الاتفاقية على قسمة ايران الى ثلاث مناطق : القسم الشمالى من ايران وقع تحت اشراف روسيا ، واعتبر القسم الاوسط منطقة محايدة ، والقسم الجنوبى منطقة نفوذ لبريطانيا . وبشديد الالحاح توصلت بريطانيا الى بسط سيطرتها فى هذا القسم من ايران لسبب آخر ايضا هو انه اكتشفت فى هذا القسم احتياطيات غنية جدا من البترول . وبموجب اتفاقية عام ١٩٠٧ ، تنازلت روسيا لبريطانيا عن الهيمنة فى افغانستان . كل هذا خفف التناقضات الانجلو-روسية واجبر روسيا القيصرية على نقل مركز سياستها التوسعية الى البلقان . وكانت انجلترا تحسب ان تصدم روسيا بالنمسا-المجر ، حليفة المانيا ، وبذلك تشد روسيا اكثر فاكثر الى «الوفاق» .

---

* الوفاق (الوئام ، التفاهم ، الائتلاف) القلبى (الودى) . **المعرب** .

٤ ـ الحرب العالمية الاولى الاستعمارية

بتوقيع الاتفاقية الانجلو-روسية ، تم انشـــاء «الوفاق» ككتلة امبريالية استعمارية تضم بريطانيا وفرنسا وروسيا . وبدأت مرحلة من الصراع الضارى بين الكتلتين الامبرياليتين الاستعماريتين . ولكن التناقضات فى داخل كل من الكتلتين كانت على درجة من الاهمية (الخلافات بين ايطاليا والنمسا-المجر بسبب التيرول ، وساحل بحر الادرياتيك ، وغيرهما من الاراضى) بحيث ان ايطاليا شرعت تبحث عن تأييد لدى بلدان «الوفاق» ، وخرجت ابان الحرب العالمية الاولى من الحلف الثلاثى وانضمت الى «الوفاق» . وداخل «الوفاق» ايضا ، كانت تقوم خلافات . فقد كانت روسيا غير راضية من سعى بريطانيا وفرنسا الى قطع الطريق عليها نحو مضايق البحر الاسود (البوسفور والدردنيل) التى كانت من زمان هدف توسع القيصرية الروسية .

ورغم الاتفاقية المعقودة بشـــأن تقاسم مناطق النفوذ فى افريقيا بين بريطانيا وفرنسا ، ظلت بعض الخلافات قائمة بينهما . وكانت الولايات المتحدة الاميركية تنتهج سياسة الحياد من الناحية الحقوقيـــة ، ولكنهـــا كانت تلتصق فعلا ببلدان «الوفاق» ، لأنها رأت فى الامبريالية الالمانية افدح الخطر على مصالحها .

الحرب العالمية الاولى

وهكذا ادى الصراع بين الكتلتين الامبرياليتين الاستعماريتين (الحلف الثلاثى و «الوفاق») الى الحرب العالمية الاولى التى اشتركت فيها فيما بعد اليابان والولايات المتحدة الاميركية

وتركيا وغيرها من البلدان . وكانت الحرب من كلا الطرفين تتسم بطابع امبريالى ، استعمارى ، اغتصابى ، وكانت حربا غير عادلة .

كان الاستعماريون الالمان يفكرون ويحلمون بانشاء «المانيا العظمى» او «اوروبا الوسطى» ، على ان تشمل منطقة البلطيق وبولونيا واوكرانيا وسكاندينافيا وبلجيكا وهولنده وآسيا الامامية والنمسا والمجر والبلقان وقسما من فرنسا . وصمموا انشاء امبراطورية استعمارية شاسعة فى افريقيا وحوض المحيط الهادى ، وحلموا بالسيطرة فى اميركا الجنوبية ، وأملوا بالاستيلاء على المستعمرات البريطانية والفرنسية والبلجيكية وعلى مستعمرات الدول الاخرى . وارادت الامبريالية الالمانية ان تزيح منافستها الرئيسية ، بريطانيا ، وان تحطم سيادتها البحرية وتضيق على مرتكزاتها البحرية .

وكان الاستعماريون الامبرياليون البريطانيون يستهدفون تحطيم المانيا ، بوصفها اخطر خصم لهم فى السوق العالمية ، واضعاف جبروتها الاقتصادى ، والقضاء على الاسطول الالمانى البحرى الحربى والتجارى ، واغتصاب المستعمرات الالمانية ، والاستيلاء على بلاد ما بين النهرين وفلسطين والجزيرة العربية ، وتوطيد مواقعهم فى مصر .

وكان الامبرياليون الاستعماريون الفرنسيون لا يسعون الى استعادة الالزاس واللورين اللتين انتزعتهما المانيا من فرنسا فى عام ١٨٧١ وحسب ، بل كانوا يسعون ايضا الى الاستيلاء على حوض الرور وضم منطقة السار الى فرنسا ، واضعاف قدرة المانيا الاقتصادية والمالية ، واحتلال المستعمرات الالمانية فى افريقيا .

وكان الامبرياليون الاستعماريون الروس يسعون الى فرض سيطرتهم السياسية والعسكرية فى البلقان وضم غاليسيا الى روسيا والاستيلاء على القسطنطينية ومضايق البحر الاسود .

ولكن استعماريي الكتلتين كانوا يريدون ، عن طريق شن الحرب ، اضعاف الحركة العمالية فى بلدانهم ووقف تقدمها .

اضعفت الحرب العالمية الاولى بعض البلدان فى المضمار الاقتصادى ، وأسهمت فى تطور واثراء بعضها الآخر (وخاصة الولايات المتحدة الاميركية واليابان) بمزيد من السرعة . فان ٤٨ تروستا فقط كانت اكبر التروستات فى الولايات المتحدة الاميركية ، قد جنت فى عام ١٩١٦ زهاء ٩٦٥ مليون دولار من الارباح اى ما يوازى ثلاثة امثال الربح الوسطى فى السنوات الثلاث السابقة للحرب . اما عدد الضحايا البشرية والخسائر المادية فى الحرب العالمية الاولى ، فقد ازداد على عدد جميع الضحايا والخسائر فى السنوات الـ ١٢٥ السابقة . ويستفاد من المعطيات الرسمية ان عدد القتلى فى سنوات الحرب العالمية الاولى بلغ ٩ ملايين و ٧٠٠ الف ، وعدد الجرحى والمشوهين اكثر من ٢١ مليونا ، وفتكت المجاعة والاوبئة بملايين الناس .

الفصل التاسع

المقدمات الاجتماعية والاقتصادية و السياسية للثورة الاشتراكية فى روسيا

ان تاريخ الرأسمالية انما هو تاريخ نضال الطبقة العاملة ضد الاستثمار ، فى سبيل دك النظام البرجوازى وبناء مجتمع جديد، مجتمع من اناس احرار ومتساوين فى الحقوق . وغير مرة ، منيت بالاخفاق محاولات الطبقة العاملة لدك سيطرة البرجوازية . وللمرة الاولى تحققت هذه المهمة فى روسيا عام ١٩١٧ عندما انتصرت ثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى . وقد كانت ثورة اكتوبر نتيجة منطقية ، حتمية لتطور المجتمع . فان مقدمات الثورة فى روسيا قد تكونت قبل انتصارها بزمن طويل .

دخول روسيا فى مرحلة الامبريالية

بعد سقوط نظام القنانة ، سار تطور الرأسمالية فى روسيا بسرعة كبيرة . ونحو العقد التاسع من القرن التاسع عشر ، حدث انقلاب صناعى . فقد بنى عدد عديد من المؤسسات الصناعية الجديدة . ومن عام ١٨٦٦ الى عام ١٨٩٠ ، ازداد عدد المصانع والمعامل من ٢,٥ ـ ٣ آلاف حتى ٦ آلاف . وفى الحقبة نفسها من الزمن ، ازداد طول السكك الحديدية من ٤

آلاف كيلومتر حتى ٢٩ الف كيلومتر . ونحو عام ١٨٩٠ بلغت نسبة المؤسسات الكبيرة التي يعمل في الواحدة منها اكثر من ١٠٠ عامل اقل من ٧ بالمئة من جميع مؤسسات البلاد ، ولكنها أنتجت اكثر من نصف المنتوج الصناعي الاجمالي . ومنذ منتصف العقد العاشر من القرن التاسع عشر ، بدأ النهوض الصناعي في روسيا يسير بمزيد من السرعة . وفي عام ١٨٩٠ ، بلغ المنتوج من البضائع ما قيمته ١,٥ مليار روبل ؛ اما في عام ١٩٠٠ فقد بلغ ما قيمته ٣ مليارات روبل .

نحو مستهل القرن العشرين ، تنامت الرأسمالية في روسيا ، كما في سائر البلدان الرأسمالية ، الى اعلى وآخر مراحلها ، الامبريالية . ففي الفروع الصناعية الرئيسية ، شغلت الاحتكارات مواقع السيادة . وقد انشئت اكبر منظمات الرأسمال الاحتكاري في مرحلة الازمة الاقتصادية الحادة التي شملت اعوام ١٩٠٠- ١٩٠٣ ، والتي توقف فيها نصف المؤسسات تقريبا عن العمل . ففي عام ١٩٠٢ ، تأسس سنديكا «بروداميت» («شركة بيع مصنوعات المصانع التعدينية الروسية») . وكانت هذه السنديكا تشرف على بيع ٨٣ بالمئة من عموم انتاج الحديد و٧٤ بالمئة من الحديد الصب . وسنديكا «برودوغول» ، التي تأسست في عام ١٩٠٤ ، كانت تبيع ٧٥ بالمئة من عموم الفحم المستخرج في عموم البلاد . وسنديكا مصانع بناء العربات الحديدية «برود فاغون» ، التي تأسست في العام نفسه ، كانت تحتكر كليا تقريبا انتاج وتصريف العربات الحديدية في روسيا . كذلك تأسست احتكارات كبيرة في سائر فروع الصناعة .

وفي روسيا ، كما في سائر البلدان الامبريالية ، جرت عملية امتزاج الرأسمال المصرفي بالرأسمال الصناعي وعملية نشوء الرأسمال المالي والطغمة المالية على هذا الاساس . وقد اضطلع

مصرف الدولة ، ومصرف الاعيان ومصرف الفلاحين ، والمصارف المساهمة الخاصة (مصرف بطرسبورغ العالمى ، مصرف الفولغا- كاما ، مصرف آزوف-الدون وغيرها) بدور هائل فى الصناعة والنقليات والتجارة . واخذت الطغمة المالية فى روسيا تؤثر اكثر فاكثر فى سياسة الحكومة القيصرية .

وقد تطورت الرأسمالية الاحتكارية فى روسيا بكل ما يلازم الرأسمالية الاحتكارية من علائم ، ولكنها تميزت فى الوقت نفسه بسمات خاصة .

الخصائص الرئيسية للامبريالية فى روسيا

ان خصائص الامبريالية فى روسيا قد اشترطتها فى المقام الاول البقايا الاقطاعية القوية جدا فى الاقتصاد وفى النظام السياسى . ومن أهم نتائج هذا الوضع ، كانت تبعية روسيا القيصرية للامبريالية الاوروبية الغربية ، الامر الذى اسهم بدوره فى تكوين خصائص الامبريالية الروسية .

كانت الملكية الاقطاعية (ملكية الملاكين العقاريين) للارض والقيصرية البقيتين الرئيسيتين للقنانة فى روسيا الرأسمالية . ففى مستهل القرن العشرين ، كان ٣٠ الف اقطاعى يملكون ٧٠ مليون ديسياتين من الارض (الديسياتين يوازى ١,٠٩ هكتار) . وكان ١٠,٥ ملايين عائلة فلاحية تملك المساحة نفسها تقريبا من الارض . وبصورة وسطية كان لكل استثمارة فلاحية ٧ ديسياتينات ، ولكل استثمارة اقطاعية اكثر من ٢٣٠٠ ديسياتين . وكان كبار الاقطاعيين يملكون عقارات شاسعة جدا تبلغ مساحة الواحد منها بضع عشرات الآلاف من الديسياتينات . وكان القيصر اكبر اقطاعى . وكانت العائلة القيصرية تملك ٧ ملايين ديسياتين ، اى قدر ما كان يملكه نصف مليون من العائلات الفلاحية .

وكان الفلاح مضطرا الى استئجار الارض من الاقطاعى بشروط مرهقة للغاية من اجل تامين معيشته ومعيشة عائلته . ولم يكن فى مستطاع الفلاح ان يسدد بدل الايجار ، ولهذا كان ملزما بالعمل خلال وقت معين فى استثمارة الاقطاعى . وكان الاقطاعيون يديرون استثماراتهم بالطريقة القديمة اساسا ، مستغلين عمل الفلاحين الاكراهى القليل الانتاجية . وكانت حراثة الارض بدائية سواء أفى الاستثمارات الاقطاعية ام فى الاستثمارات الفلاحية ، وقلما كان التكنيك الجديد موضع استخدام . كل هذا عرقل تطور القوى المنتجة فى الزراعة . وكان احتكار امتلاك الارض من قبل الاقطاعيين يمكنهم من فرض اسعار عالية للارض ، الامر الذى اعاق كذلك تطور الرأسمالية فى الصناعة وفى الزراعة . وكان امتلاك الارض المشاعى واداء الفلاحين لجملـــة من الفرائض الاقطاعية يكبح انتقال سكان الريف الى المدينة ويقلص امكانيات الرأسماليين للحصول على يد عاملة رخيصة .

كذلك دامت بقايا القنانة فى حياة البلد السياسية والاجتماعية . وكان الحكم المطلق القيصرى شكل ديكتاتورية الاقطاعيين . وكان الاقطاعيون يشغلون جميع الوظائف الاساسية فى الدولة . وكان الآلاف من رجال الدرك والبوليس يحرسون القيصر والاقطاعيين والرأسماليين من الشعب . وكان نحو ٢٠٠ الف من القسس ورجال الدين يخبلون الشعب ويعظونه بالخضوع للمستثمرين . وكانت القيصرية تبقى الشغيلة فى لجة الامية والجهل . وكان زهاء اربعة اخماس السكان فى روسيا اميين .

وافصاحا عن مصالح الاقطاعيين ، كان الحكم المطلق القيصرى يدعم الرأسماليين فى الوقت نفسه . فبناء على طلب اصحاب المصانع والمعامل ، كانت السلطات ترسل قواتها بكل طيبة خاطر من اجل قمع الاضرابات . ولهذا كان للبرجوازية الروسية ، التى

تخشى حركة الجماهير الشعبية اشد ما تخشى ، مصلحة فى بقاء القيصرية بجهازها الهائل للقمع والضغط والخنق . ولم تكن البرجوازية الروسية تسعى الى النضال ضد القيصرية ، ضد بقايا الاقطاعية ، بل الى التفاهم مع القيصرية .

كانت بقايا القنانة تعيق تطور روسيا . ففى اوائل القرن العشرين ، كانت روسيا تنتج من الفحم الحجرى ما يقل ٢٠ مرة عما تنتجه الولايات المتحدة الاميركية ، وما يقل زهاء ١٤ مرة عما تنتجه بريطانيا . ولم يقل تأخر روسيا الاقتصادى عن البلدان الرأسمالية الطليعية ، بل كان يزداد سنة بعد سنة . فبعد ٥٠ سنة على الغاء نظام القنانة ، ازداد استهلاك الحديد فى روسيا الى خمس مرات ، ولكن روسيا ظلت بلدا زراعيا متأخرا . وكان تجهيز المعامل والمصانع بادوات الانتاج الجديدة اقل مما فى بريطانيا باربع مرات ، ومما فى المانيا بخمس مرات ، ومما فى الولايات المتحدة الاميركية بعشر مرات . ولم تكن تملك فى روسيا أهم الفروع الصناعية كصناعة الآلات الادوات وصناعة الإنشاءات الميكانيكية الكبيرة ، وصناعة السيارات ، الخ .. وكانوا يستوردون من الخارج الآلات والآلات - الادوات الضرورية للصناعة الروسية .

كان تأخر روسيا الاقتصادى والتكنيكى يضعها فى تبعية اقتصادية حيال الامبريالية الاوروبية الغربية . ونظرا لنقص مقادير الرأسمال الروسى ، استتبع تطور العلاقات الرأسمالية فى روسيا تدفق الرساميل الاجنبية الى روسيا . ومع انتقال البلدان الاوروبية الى مرحلة الامبريالية ، أخذ تصدير الرساميل الى روسيا يحل اكثر فاكثر محل تصدير البضائع اليها . وكان توظيف الرساميل الاجنبية فى صناعة روسيا يتحقق بواسطة الشركات المساهمة . كذلك كان تدفق الرساميل الاجنبية الى

المصارف كبيرا . ففى عام ١٨٩٠ ، بلغ مجمل التوظيفات الاجنبية فى المؤسسات الروسية المساهمة اكثر من ٢٠٠ مليون روبل ؛ اما نحو عام ١٩١٧ ، فقد بلغ اكثر من ملياري روبل . وبلغت حصة الرساميل الاجنبية فى الشركات الصناعية المساهمة فى روسيا ٣٣ بالمئة ، وفى رأسمال المصارف الروسية الرئيسية ٤٣ بالمئة . وكان الرأسماليون الاجانب يتحكمون بأهم فروع الصناعة . وكان فى ايديهم ٦٧ بالمئة من الحديد الصب المنتوج فى جنوب روسيا ، و٧٠ بالمئة من الفحم المستخرج فى منطقة الدونيتس ، و٦٠ بالمئة من مجمل البترول المستخرج فى روسيا ، و٣٦ بالمئة من النحاس المستخرج .

وكان الدافع الى تدفق الرساميل الاجنبية الى روسيا هو الربح العالى الذى كان يحصل عليه اصحاب هذه الرساميل . وكان الربح العالى يؤمنه استثمار شغيلة روسيا بقساوة وضراوة . وبكل طيبة خاطر ، كان الماليون الاجانب ، ولا سيما الفرنسيون منهم ، يقدمون القروض للحكومة القيصرية . وكان تسديد الفوائد عن هذه القروض يقع على عاتق الشعب الروسى . ففى بحر ١٥ سنة ، من ١٨٩٨ الى ١٩١٣ ، دفعت روسيا القيصرية للامبرياليين الاجانب ٥ مليارات روبل من الفوائد والقسائم (ارباح الاسهم) . واكثر فاكثر ، اخذت روسيا تقع فى التبعية الاقتصادية حيال الدول الامبريالية المتطورة اكثر منها ، ولا سيما حيال بريطانيا وفرنسا .

كذلك اشترطت خصائص تكوّن الامبريالية السمات الخاصة لعلائمها الاساسية فى روسيا .

فان تمركز الانتاج قد بلغ فى روسيا درجة اعلى بالقياس الى ما كان عليه فى البلدان الاخرى . مثلا . فى المؤسسات التى تضم الواحدة منها اكثر من ٥٠٠ عامل ، كان يتمركز فى روسيا

٥٣,٤ بالمئة من جميع العمال ، بينما كان يتمركز ٣٣ بالمئة فقط في بلد كالولايات المتحدة الاميركية . ولكن رغم وجود المؤسسات الكبيرة ، لم تكن في روسيا جملة كاملة من الفروع الصناعية القادرة على تأمين التقدم التكنيكي باطراد (صناعة الانشاءات الميكانيكية الكبيرة ، انتاج التجهيزات الهكربائية ، الخ .) . وكانت الصناعة بمجملها متأخرة ، من حيث مستواها التكنيكي ، عن صناعة البلدان الرأسمالية الطليعية . وكانت الاتحادات الاحتكارية في روسيا تشمل اساسا ميدان التصريف ، وبدرجة اقل ، ميدان الانتاج ، ولهذا كان السنديكا الشكل الابرز للاحتكار في روسيا . وغالبا ما كان الرأسمال الاجنبي يضطلع بالدور الفاصل في هذه السنديكات .

كان تصدير الرساميل الروسية زهيدا . وكان لا يتجه الا الى بعض البلدان المتأخرة ، نصف المستعمَرة ، اي الى ايران وتركيا والصين . وكانت روسيا نفسها هدفا لتصدير الرساميل من بلدان كفرنسا وبريطانيا وبلجيكا وغيرها .

وقد اشتركت الامبريالية الروسية في تكتلات الرأسماليين الاحتكارية العالمية لتقاسم العالم ، ولكنها لم تلعب فيها الدور الفاصل . ناهيك بان السوق الروسية كانت موضع قسمة بين احتكارات اوروبا الغربية والولايات المتحدة الاميركية .

وسعت روسيا القيصرية الى الاشتراك في تقاسم العالم من جديد . فبعد ما منيت القيصرية بالهزيمة في الحرب ضد اليابان وفقدت نفوذها في منشوريا ، استولت على منطقة نفوذ في ايران الشمالية . ومع امبرياليي بريطانيا وفرنسا ، حاكت الحكومة القيصرية المشاريع لتقاسم تركيا .

واصبحت روسيا احدى حلقات نظام الامبريالية العالمي الذي يؤزم الى الحد الاقصى جميع تناقضات المجتمع الرأسمالي .

وفى روسيا اتخذت تناقضات الامبريالية شكلا حادا جدا ، الامر الذى عزز ضرورة حلها بالسبيل الثورى . وكان لا بدّ للثورة فى روسيا ان تصفى فى المقام الاول بقايا الاقطاعية التى تعرقل تطور البلاد الى امام . وكانت جميع القوى الرجعية — القيصرية والاقطاعيون ، والبرجوازية الروسية والاجنبية — مترابطة بمصالح مشتركة . ولهذا كان النضال ضد القيصرية والاقطاعيين نضالا ضد الامبريالية فى الوقت نفسه ، الامر الذى أتاح تحويل الثورة البرجوازية الديموقراطية الى ثورة اشتراكية . ونضجت فى روسيا القوى اللازمة لثورة اشتراكية . وكانت البروليتاريا زعيمة هذه القوى .

تكوّن الطبقة العاملة العصرية

ظهر اوائل العمال الروس فى ظل الاقطاعية (القنانة) . ولكنهم لم يكونوا يمثلون آنذاك قوة سياسية مستقلة . ومع تطور الصناعة الكبيرة ، اخذت تتكون البروليتاريا الصناعية العصرية . فى عام ١٨٦٥ كان يعمل فى المؤسسات الصناعية الكبيرة فى روسيا ٧٠٦ آلاف عامل ؛ وبعد ٢٥ سنة ازداد عددهم ١٠٠ بالمئة ، ونحو مطلع القرن العشرين ، بلغ عددهم زهاء ٢٥٠٠٠٠٠ عامل . وبلغ مجمل عدد العمال العاملين فى الصناعة والنقليات والبناء والزراعة ، الخ . ، زهاء ١٠ ملايين عامل .

تكوّنت البروليتاريا فى روسيا بوصفها البروليتاريا الاوفر ثورية فى العالم . وهذا ما تفسره الظروف الموضوعية التى تكوّنت فيهـــا .

فان نمو الرأسمالية فى روسيا قد آل فى ظل وجود البقايا الاقطاعية ، الى استثمار العمال المحرومين من جميع الحقوق السياسية استثمارا فى منتهى الوحشية . وكان الرأسماليون

يعتمدون على دعم الحكومة القيصرية وينهبون العمال ويضطهدونهم بلا عقاب . وحتى اواخر القرن التاسع عشر تقريبا ، بقى يوم العمل فى روسيا يتراوح بين ١٢ ساعة و١٣ ساعة ، وكان العمال يكدحون فى مصانع النسيج ١٥ او ١٦ ساعة فى اليوم . ولم تكن ثمة اى وقاية وحماية للعمل . وكان الرأسماليون يحددون اجور العمال كما يطيب لهم . وكانوا يخدعون العمال ، ويجبرونهم على شراء المأكولات باسعار غالية فى دكاكين المصانع . وكانوا يحسمون ٣٥ او ٤٠ بالمئة من اجور العمال كغرامات . وقد كتب العامل الثورى بيوتر مويسيينكو فى مذكراته يقول : «عن كل شيء ، غرامة . اذا مررت بمحاذاة نوافذ الادارة وعلى رأسك قبعة ، غرامة . واذا تكلمت بصوت عال فى ثكنة العمال ، غرامة . واذا رحت فى الشارع حاملا اكورديونا ، غرامة . واذا ولدت زوجتك توأمين ، غرامة . فلا يبقى لك الا ان تتمدد وتموت !» . كان العمال يعيشون فى ثكنات مصنعية ضيقة يضعون فيها الاسرة الخشبية للنوم طابقين او ثلاثة . وقد كتب ضابط من الدرك راقب عمال موسكو فى عام ١٩٠٢ يقول : «فى غرف صغيرة جدا مقسمة الى ٨ اعشاش ، يعيش ١٨ – ٢٤ شخصا ، مع العلم ان عائلة تنام مع اطفالها فى كل عش . كبر العش ارشينين ونصف طولا وزهاء ارشينين عرضا» (الارشين يوازى ٧١,١٢ سنتمترا) . وكيفما ابدى العمال استياءهم ، كانوا يصرفونهم من العمل ويزجون بهم فى السجون ، ويرسلونهم الى معتقلات الاشغال الشاقة .

وقد بلغ التناقض بين العمل والرأسمال فى روسيا حدة خارقة . وكان الاستثمار الضارى وشروط وظروف الحياة والعمل اللاانسانية تدفع العمال الى النضال الحازم ضد الرأسماليين . وكان السواد الاعظم من العمال الصناعيين متمركزين فى المؤسسات

الكبيرة حيث كانت شروط العمل نفسها تربى العمال بروح التنظيم والانضباط . وكانت جماعية العمل تيسر تلاحم نشاطات العمال فى النضال ضد المستثمرين .

تكونت البروليتاريا فى روسيا بعد تكونها فى البلدان الاخرى . ولهذا استطاعت ان تستفيد من تجربة النضال التى كدسها قبل ذاك عمال البلدان الاخرى . وكان ما تتحلى به بروليتاريا روسيا من قابلية للتنظيم وما تلاقيه من اضطهـــاد فى منتهى القساوة يجعلانها ذات قابلية كبرى لتفهم واستيعاب النظرية الثورية . ان الطبقة العاملة فى اوروبا الغربية قد بدأت نضالها ضد الاقطاعيين تحت قيادة البرجوازية ؛ اما فى روسيا فقد برزت الطبقة العاملة على الفور كقوة سياسية مستقلة . ثم ان مهمة تصفية بقايا الاقطاعية وتمهيد الطريق امام تطور البلاد وتقدمها قد وقعت بكليتها على كاهل الطبقة العاملة الروسية المعبّرة عن مصالح المجتمع باسره . ولم تكن القيصرية دعامة الرجعية الروسية وحسب ، بل كانت ايضا دعامة الرجعية الاوروبية والآسيوية كلها ، ولهذا دفع النضال من اجل الاطاحة بالقيصرية البروليتاريا الروسية الى السير فى طليعة نضال البروليتاريا الثورية العالمية .

وفى ظل الامبريالية ، نهضت البروليتاريا الروسية بوصفها القوة الحاسمة القادرة على تحطيم القيصرية وشق الطريق الى الثورة الاشتراكية .

ان قوة الطبقة العاملة لا تكمن فى عددها ووعيها وقابليتها للتنظيم وحسب ، بل تكمن كذلك فى وحدة مصالحها مع مصالح سائر فئات الشغيلة . وكان العمال يؤلفون مع عائلاتهم زهاء ٥ بالمئة من السكان ، ولكن وزن البروليتاريا النسبى فى الحركة الثورية كان اكبر بما لا يقاس نظارا لمساندة الجماهير الكادحة غير البروليتارية لها .

اشتداد نضال الفلاحين من اجل الارض

كانت الاغلبية الساحقة من السكان فى روسيا (زهاء ٨٥ بالمئة) تتألف من الفلاحين . وكان بقاء الملكية الاقطاعية للارض يحكم عليهم بالفقر والخراب . وبعد اصلاح ١٨٦١ ، فقدت اغلبية الفلاحين قسما كبيرا من الاراضى ، فلم يبق فى مستطاعهم تأمين معيشتهم من استثماراتهم . وكان يترتب على الفلاحين ان يدفعوا لقاء الارض الباقية لهم تعويضا يفوق طاقتهم كثيرا . وكان الفلاح يشتغل وقتا طويلا من اجل الاقطاعى تسديدا لبدل استئجار الارض واستعمال المحاريث ، وتسديدا لبدل المرور فى ارض الاقطاعى ، الخ ..

كذلك الحقت الحكومة القيصرية الخراب بالفلاحين . فقد كان الفلاحون يدفعون ضرائب كبيرة لتمويل الجيش والبوليس وسائر هيئات السلطة . وكانوا يضربون الفلاحين بالعصي ويبيعون مقتنياتهم اذا تأخروا عن دفع الضرائب. وكان كل تمرد على السلطات يعاقب بصرامة . وكانت الكنائس والاديرة تحصل جزيتها من الفلاحين .

كانت الارض المحروثة سيئا وغير المسمدة كفاية تعطى غلالا زهيدة . وعلى الدوام كان الفلاحون لا يأكلون حتى الشبع ، وفى حال بوار الغلال ، كان عشرات الآلاف من الفلاحين يموتون من الجوع والاوبئة . وقد ادى تطور الرأسمالية الى تمايز الفلاحين . كان قسم ضئيل من الفلاحين يغتنى ، مركزا فى يديه الارض وماشية الجر ، ومستثمرا بلا رحمة الفلاحين الفقراء . وكان الفلاحون الاغنياء هم البرجوازية الريفية ، وقد اطلق عليهم اسم الكولاك . وبالكاد كان الفلاحون المتوسطون يؤمنون معيشتهم من استثماراتهم ، وغالبا ما كان يحل بهم الخراب فيلتحقون بصفوف الفلاحين الفقراء الذين كانوا بروليتاريين ريفيين وانصاف

بروليتاريين . ونحو اواخر القرن التاسع عشر ، كان عدد الاستثمارات الفلاحية ١٠ ملايين استثمارة ، منها قرابة ٦,٥ ملايين استثمارة للفلاحين الفقراء ، ومليونا استثمارة للفلاحين المتوسطين و١,٥ مليون استثمارة للكولاك . وكان عدد استثمارات الفلاحين الفقراء يزداد سنة بعد سنة من جراء خراب استثمارات الفلاحين المتوسطين .

وقد اضطر الفلاحون المتوسطون ، بسبب من وضعهم اليائس الذى لا مخرج منه ، الى خوض النضال ضد الاقطاعيين . وفى عام ١٩٠٢ اتسع نضال الفلاحين كثيرا جدا فى محافظتى خاركوف وبولتافا باوكرانيا ، وفى بعض المحافظات الاخرى فى القسم الاوروبى من روسيا . وقد انتزع الفلاحون من الاقطاعيين الحبوب والماشية ، واحرقوا املاكهم . قمعت قوات الحكومة القيصرية الانتفاضات بقساوة ، ولكن الفلاحين واصلوا النضال . ففى المرحلة الممتدة من عام ١٩٠٠ الى عام ١٩٠٤ ، قام الفلاحون فى روسيا بـ٦٧٠ انتفاضة . وكانت هذه الانتفاضات عفوية ، مبعثرة ، متفرقة ، ولكنها بينت ان الفلاحين يمثلون قوة ثورية هائلة . وكان ينقص الفلاحين التنظيم لأجل النضال ضد الاقطاعيين من اجل الارض ؛ وشرع الفلاحون يميلون الى الطبقة العاملة شاعرين بان الطبقة العاملة وحدها هى التى تستطيع ان تساعدهم على الخروج من لجة الفقـــر .

فى مستهل القرن العشرين ، تشكل تحالف العمال والفلاحين فى روسيا فى النضال ضد القيصر والاقطاعيين . وفى صفوف الفلاحين بالذات ، بدأ نضال الفقراء ضد الكولاك ، وهكذا نشأت المقدمات لأجل تحالف الطبقة العاملة والفلاحين الكادحين لا فى الثورة البرجوازية الديموقراطية وحسب ، بل ايضا فى الثورة الاشتراكية .

كانوا عن حق وصواب يسمون روسيا القيصرية بسجن الشعوب . فقد كان ٥٧ بالمئة من سكان روسيا من قوميات غير روسية . وكانت اوضاع العمال والفلاحين فى الاطراف القومية اسوأ مما فى وسط روسيا . وكان شغيلة المناطق القومية يكابدون نيرا مزدوجا ، نير مستثمريهم المحليين ونير الاقطاعيين والرأسماليين الروس .

ومن جرّاء دخول روسيا فى مرحلة الامبريالية ، ازداد وضع الكادحين غير الروس سوءا على سوء . ونظرا لعدم كفاية تطور القوى المنتجـــة ، كان نهب الشعوب المظلومة واحدا من أهم مصادر ايرادات الطبقات السائدة . وكانوا ينتزعون من فلاحى المناطق القومية اراضيهم ، ويسكنون فيها الروس بحجة زيادة حصص فلاحى روسيا الوسطى ذوى القطع الصغيرة من الارض . وهكذا اختلقوا بصورة مصطنعة النفور بين القوميات . وكانوا يعينون المحافظين والحكام فى المناطق القومية من عداد الاقطاعيين الروس . وكان هؤلاء المحافظون والحكام يتمتعون بسلطة لا حد لها فكانوا يفرضون على الكادحين مختلف الضرائب ، ويبتزون مع جيش الموظفين اللجب الرشوات من السكان المحليين .

واخضع الاقطاعيون والرأسماليون الروس الشعوب المظلومة لما لا يحصى من الاهانات والمذلات . وكانوا يسمون ممثلى القوميات غير الروسية ، ازدراء واحتقارا ، بالغرباء . وكان من الممنوع فى المناطق القومية انشاء المدارس التى تعلم اللغة الام ، اللغة القومية ، واصدار الكتب والمجلات . وكان سكان هذه المناطق اميين بكليتهم تقريبا ، بل ان بعض الشعوب لم تكن

لها كتابة . وكانت اللغة الروسية هى اللغة الرسمية فى جميع اراضى البلاد .

وسعيا الى صرف انتباه الشعب عن النضال الطبقى ، كانت الحكومة القيصرية تشدد النفور القومى ، وتحرض قومية على اخرى . وكان ممثلو السلطة ينظمون مذابح اليهود ، ويسلحون الارمن والاذربيجانيين ويثيرون الاحقاد فيما بينهم ، ويسعّرون الضغينة بين مختلف الشعوب . وكانت العداوة القومية تضعف قوة ضغط الشغيلة على القيصرية .

وقد ارادت برجوازية المناطق القومية ان تتحرر من القيصرية الروسية لكى تخلق اكثر الشروط ملاءمة لاستثمار شغيلة قوميتها ، ولكنها كانت تخاف من الحركة العمالية المتنامية داخل القومية ولهذا اقبلت على الاتفاق مع القيصرية والاقطاعيين والرأسماليين الروس . فقط بروليتاريا القوميات المضطهدة المظلومة كان فى وسعها ان تستنهض الشغيلة الى النضال فى سبيل التحرر الوطنى . وكانت القيصرية العقبة الرئيسية امام حرية التطور الوطنى . وقد هبت جميع القوميات المظلومة الى النضال ضد القيصرية . وفى هذا النضال من اجل التحرر الوطنى ، كانت البروليتاريا المحلية القوة القائدة ، مع البروليتاريا الروسية الناهضة ضد العدو المشترك ، القيصرية . واصبحت حركة التحرر الوطنى قوة جبارة فى النضال من اجل الاطاحة بالحكم المطلق القيصرى .

ان تحرر الشغيلة كليا من النير القومى لا يغدو ممكنا الا بعد تصفية الملكية الخاصة لادوات الانتاج ، هذه الملكية التى تفرّق الناس . ولهذا كان نضال التحرر الوطنى الذى خاضته شعوب روسيا المتعددة القوميات ، بقيادة البروليتاريا ، احتياطيا هائلا لا للثورة البرجوازية الديموقراطية فى روسيا وحسب ، بل ايضا للثورة الاشتراكية فى هذا البلد .

تنقسم الحركة الثورية فى روسيا فى القرن التاسع عشر الى ثلاث مراحل . ففى مستهل القرن التاسع عشر ، كان النبلاء ، ممثلو الطبقة الحاكمة يرأسون الحركة ضد القيصرية . ففى كانون الاول (ديسمبر) ١٨٢٥ ، قاموا بانتفاضة مسلحة ولكن القيصرية حطمتها . كان النبلاء الثوريون منفصلين عن الشعب وكانوا يشكلون اقلية ضئيلة من الطبقة الحاكمة التى كانت بكليتها سندا متينـا للحكم المطلق القيصرى . وبعد عام ١٨٦١ ، نهض المثقفون الديموقراطيون المتحدرون من الفلاحين ومن البرجوازية الصغيرة فى المدن الى النضال . كان هؤلاء «اللانبلاء» الثوريون ، كما كانوا يسمونهم ، على صلة اوثق بالشعب مما كان النبلاء . ولكنهم لم يكونوا يعرفون بعد السبل الحقيقية الى الثورة ، ولم يروا ان القوة الرئيسية ، الحاسمة فى النضال هى البروليتاريا . اما المرحلة البروليتارية ، فقد بدأت من منتصف العقد العاشر من القرن التاسع عشر عندما اخذت الجماهير الشعبية الواسعة تشترك فى الحركة الثورية ، برئاسة الطبقة الوحيدة الثورية الى النهاية ، البروليتاريا .

فى سنوات العقدين السابع والثامن من القرن التاسع عشر ، ولدت الحركة العمالية فى روسيا . وخلال عشر سنوات (من ١٨٧٠ الى ١٨٧٩) ، قام العمال ، كما يستفاد من معطيات غير كاملة ، بـ ٣٢٦ اضرابا . وفى سنوات العقد الثامن ، انشئت اولى مؤسسات العمال: «اتحاد العمال فى جنوب روسيا» و«اتحاد العمال الروس فى الشمال» . ولكن تلك كانت فقط الخطوات الاولى التى تخطوها الطبقة العاملة بصورة مستقلة فى نضالها . وظلت اغلبية الاضرابات تتسم بطابع عفوى . وكان العمال يطرحون المطالب الاقتصادية فقط .

بالبلدان التابعة المستقلة شكلا فى المضمار السياسى ، والمشبوكة فعلا بشباك التبعية المالية والاقتصادية . ففى مطلع القرن العشرين ، كان يمكن تصنيف الصين وايران وتركيا واغلبية دول اميركا اللاتينية فى عداد البلدان التابعة .

نظام الامبريالية الاستعمارى

لقد استعبد الامبرياليون سكان دول شاسعة وقارات برمتها بقساوة لم يسبق لها مثيل ، مستخدمين فى كثير من الاحيان احدث الاسلحة الفتاكة ضد الشعوب العزلاء فى بلدان عديدة . ونحو مستهل القرن العشرين ، كان القسم الاكبر من آسيا واميركا اللاتينية ، وافريقيا كلها واوستراليا كلها قد حوّلت الى مستعمرات واشباه مستعمرات وبلدان تابعة للامبرياليين ، وكان نشأ نظام الامبريالية الاستعمارى .

تستغل الامبريالية البلدان المستعمَرة والتابعة كذيل زراعى خامى (يقدم المنتوجات الزراعية والخامات) للمتروبولات ، ومنطقة لتوظيف الرساميل وسوق للتصريف . وقبل الحرب العالمية الثانية ، كانت المستعمرات وانصاف المستعمرات تنتج ٩٧ بالمئة من الكاوتشوك فى العالم الرأسمالى ، واكثر من ٩٦ بالمئة من القصدير ، و٩٥ بالمئة من النيكل ، و٨٢ بالمئة من الذهب ، و ٧٠ بالمئة من الفضة ، و٦٤ بالمئة من النحاس ، و٩٩ بالمئة من الجوت ، و٩٧ بالمئة من الفستق ، و٦٧ بالمئة من الصوف . وعموما ، كانت البلدان الامبريالية هى التى تحصل على هذه الخامات عن طريق التبادل غير المتكافئ مع البلدان المستعمَرة والتابعة ، وتشتريها باسعار ادنى من القيمة وتبيع البضائع الصناعية باسعار اعلى من القيمة . وكان استثمار الدول الامبريالية لشغيلة

البلدان المستعمَرة والتابعة يتحقق عن طريق تصدير الرساميل والتبادل غير المتكافئ ، اى بتوريد البضائع الصناعية الى المستعمرات باسعار عالية وتصدير الخامات منها باسعار زهيدة .

ويستفاد من معطيات الاقتصادى الاميركى فيكتور برلو إن احتكارات الولايات المتحدة الاميركية حصلت عام ١٩٤٨ على دخل مباشر من البلدان التابعة قدره ٧,٥ مليارات دولار ، منها ١,٩ مليار دولار كايرادات معترف بها من توظيفات الرساميل ، و١,٩ مليار دولار من النقليات والضمان ، الخ .، و٢,٥ مليار دولار من البيع باسعار اعلى من القيمة ، و١,٢ مليار دولار من الشراء باسعار ادنى من القيمة .

ورغبة فى الحصول على ربح عال احتكارى ، يجمع الرأسمال الاحتكارى النهب الامبريالى مع الاشكال الاقطاعية لاستثمار الشغيلة . وتحافظ الامبريالية فى البلدان المستعمَرة والتابعة على بقايا الاقطاعية ونظام الرق ، وتستغل وتغرس العمل الاكراهى . والبلدان المستعمَرة والتابعة هى منطقة لتوظيف رساميل الدول الامبريالية .

ان معدل الارباح التى ابتزتها شركات البترول فى عام ١٩٥٨ بلغ فى الولايات المتحدة الاميركية ١٠ بالمئة ، وفى اميركا الجنوبية ٢٥ بالمئة ، وفى الشرقين الادنى والاوسط ٧٥ بالمئة . وفى عام ١٩٤٨ بلغ معدل ارباح احتكار السيارات الاميركى «جنرال موتورس» داخل الولايات المتحدة ٢٥ بالمئة ومن توظيفات الرساميل فى الخارج ٥٠ بالمئة .

ونحو فروع صناعة الاستخراج والزراعة تتجه بصورة رئيسية توظيفات الرساميل الاجنبية من الدول الامبريالية فى البلدان المستعمَرة والتابعة . ويتجه قسم كبير من توظيفات رساميل الدول الرأسمالية فى البلدان الضعيفة التطور نحو صناعة

الاستخراج ، وخاصة نحو استخراج البترول والفلزات الحديدية والقصدير والنيكل والالومينيوم والنحاس والاورانيوم والكوبالت وغيرها من المعادن النادرة وغير الحديدية .

لقد عرض الاقتصاديون البرجوازيون نظرية ما يسمى «محو الطابع الاستعماري» . ان هذه النظرية تزعم انه فى مستطاع المستعمرات والبلدان التابعة ، بدون حركة التحرر الوطنى ضد الامبريالية والكولونيالية ، وبمساعدة توظيفات الرساميل الاجنبية من الدول الامبرياليـــة ، ان تحقق التصنيع وتبلغ الاستقلال الاقتصادى والسياسى . ولكن هذا الزعم لا ينطبق مع الواقع . فان تجربة التطور التاريخى فى بلدان آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية تبين ان النضال التحررى الوطنى وحده هو الذى يمكن من نيل الاستقلال السياسى الذى يشكل المقدمة الاولى والأهم للاستقلال الكامل . فان توظيفات الرساميل الاجنبية من الدول الامبريالية لا تسهم على العموم فى تصفية التأخر الاقتصادى فى البلدان المستعمرة والتابعة . الا ان قسما ضئيلا من توظيفات الرساميل الاجنبية يتجه نحو تطوير صناعة الانشاءات الميكانيكية والى الصناعة الثقيلة على العموم ، وذلك نتيجة لضغط البلدان التى نالت الاستقلال السياسى .

ان توظيفات الرساميل الاجنبية من الدول الامبريالية فى البلدان المستعمرة والتابعة تشوه اقتصاد هذه البلدان باضفائها عليه طابعا وحيدا واحدا . فان البلدان المستعمرة والتابعة سابقا تتميز بالتخصص الوحيد الطرف . فان اساس الاقتصاد فى العربية السعودية والكويت وايران وفينيزويلا ، مثلا ، هو البترول ، وفى الملايو الكاوتشوك والقصدير ، وفى بوليفيـــا القصدير وفى البرازيل البن وفى السودان القطن وفى السنغال الفستق وفى غابون المانغانيز والاخشاب من الاصناف القيّمة ، الخ ..

ان تصدير الرساميل الى البلدان الضعيفة التطور في المضمار الاقتصادى يعجل تطور الرأسمالية في هذه البلدان ويفضى فى الوقت نفسه الى تحكم البلدان المتطورة اقتصاديا باقتصادها واخضاعها لها . وان نضال التحرر الوطنى الذى تخوضه شعوب البلدان المستعمرة والتابعة ضد الامبريالية هو وحده الذى يمكن هذه البلدان من الظفر بالاستقلال السياسى ويمكنها بعد الظفر به من تطوير الصناعة وسائر فروع الاقتصاد وتطوير التعليم واعداد المثقفين التكنيكيين من ابنائها ، ورفع مستوى حياة الشعب .

٢ ـ مكان الامبريالية فى التاريخ

الامبريالية هى مرحلة تاريخية خاصة من مراحل الرأسمالية . وخصائصها ثلاث : فالامبريالية هى الرأسمالية الاحتكارية ، والطفيلية او المتعفنة ، والمحتضرة .

الامبريالية هى الراسمالية الاحتكارية

ان الامبريالية ، من حيث جوهرها الاقتصادى ، هى الرأسمالية الاحتكارية . ان الامبريالية هى استمرار وتطور الخصائص الاساسية للرأسمالية ، ولهذا تحتفظ القوانين الاقتصادية للرأسمالية على العموم بمفعولها فى ظل الرأسمالية الاحتكارية . وفى مرحلة الامبريالية ، يؤدى فعل القوانين الاقتصادية للرأسمالية الى تازم جميع تناقضاتها ولا سيما الى تازم تناقض الرأسمالية الاساسى ، اى التناقض بين الطابع الاجتماعى للانتاج والشكل الرأسمالى الخاص لامتلاك ثمار الانتاج . وتدفع الاتحادات الاحتكارية اضفاء الصفة

الاجتماعية على الانتاج حتى الحد الاقصى الممكن فى ظل الراسمالية ، ولكن وسائل الانتاج تبقى ، كما فى السابق ، ملكا خاصا للبرجوازية . وبغية الحصول على الربح العالى الاحتكارى ، يرفع الاحتكاريون درجة استثمار البروليتاريا ، مما يؤدى الى انخفاض قدرة السكان الشرائية . وليس يمكن عن غير طريق الثورة الاشتراكية حل التناقضات بين القوى المنتجة المتنامية والاطارات الضيقة لعلاقات الانتاج الرأسمالية .

فى عهد الامبريالية ، تتطور رأسمالية الدولة الاحتكارية على نطاق واسع . وتتدخل الدولة الرأسمالية مباشرة فى الحياة الاقتصادية لمصلحة الطغمة المالية . ولمصلحة الطغمة المالية ، تطبق الدولة البرجوازية مختلف اجراءات التنظيم والضبط ، وتلجأ الى استدالة بعض فروع الاقتصاد . ولئن كانت الدولة فى ظل الراسمالية ما قبل الاحتكار لجنة لتصريف شؤون البرجوازية كلها ، فهى تتحول عمليا فى عهد الامبريالية الى لجنة لتصريف شؤون البرجوازية الاحتكارية . وهذا ما يؤول الى تفاقم التناقضات بين البرجوازية الاحتكارية وجميع فئات الشعب ، بما فيها البرجوازية الصغيرة والمتوسطة .

الامبريالية هى الرأسمالية الطفيلية او المتعفنة

ان تعفن الرأسمالية وطفيليتها فى مرحلتها الامبريالية يتجليان فى التباطؤ العام لوتائر تطور الانتاج ، فى الميل الى الركود والى التعفن رغم نمو الانتاج فى الوقت نفسه فى بعض فروع الصناعة فى بعض البلدان الرأسمالية ، فى عرقلة تطور التكنيك وفى تطوره بصورة متفاوتة ووحيدة الشكل ، فى العجز عن استخدام الامكانيات الهائلة التى يكشفها العلم والتكنيك المعاصرين .

وفى عهد الامبريالية يتجلى تعفن الرأسمالية وطفيليتها فى

وجود فئة كبيرة من اصحاب الدخل ومن الدول صاحبة الدخل ، فى العجز المزمن عن استخدام الجهاز المنتج ، فى وجود بطالة جماهيرية دائمة ، فى انفلات العسكرية ، فى نمو استهلاك البرجوازية الطفيلى ، فى السياسة الرجعية التى تنتهجها الدول الامبريالية فى الميدانين الداخلى والخارجى ، فى رشوة برجوازية البلدان الامبريالية للفئة العليا القليلة العدد من الطبقة العاملة .

ان الاتحادات الاحتكارية تخلق بحكم وجودها الميل الى التعفن والركود . وفى ظل الامبريالية ، تتوافر للاحتكارات ، بفضل وضعها السائد ، امكانية فرض الاسعار الاحتكارية والاحتفاظ بها على مستوى عال بصورة اصطناعية . ومن جرّاء ذلك ، لا تكون دائما لدى الصناعيين مصلحة فى استخدام الاختراعات وفى الاستعاضة عن التجهيزات الشائخة بتجهيزات احدث .

وفى ظل الرأسمالية الاحتكارية ، يتعاظم كثيرا الفرق بين امكانيات العلم والتكنيك بوصفهما مصدرين لاكثار ثروات المجتمع البشرى ودرجة استغلال هذه الامكانيات . فان عددا عديدا من الاحتكارات الرأسمالية تشترى براءات الاختراع لكى لا ترى اختراعات النور . فان الاحتكار الاميركى «جنرال موتورس»، مثلا ، لا يستغل سوى واحد بالمئة من براءات الاختراع التى يملكها .

ولكن الميل الى الركود والجمود لا يعنى انه لا يوجد اى تطور فى ظل الامبريالية . فان الاحتكار يولد الركود والجمود ، ولكن المزاحمة القائمة فى ظل الامبريالية ايضا تدفع الرأسماليين على الدوام الى استخدام احدث منجزات العلم والتكنيك فى الانتاج من اجل بيع البضائع باسعار ارخص من اسعار مزاحميهم ، من اجل الحصول على المزيد من الارباح . ولهذا يتطور التكنيك بسرعة فى ظل الامبريالية فى جملة من الفروع ولا سيما فى الفروع الجديدة .

ان الميل الى التعفن والميل الى التقدم التكنيكى يتصادمان باستمرار . فتارة ينتصر احدهما وطورا الميل الآخر ، وهذا ما يشدد تفاوت التطور الذى تتميز به الرأسمالية .

ومن علائم تعفن الرأسمالية ، هبوط وتاثر نمو الانتاج الصناعى . ففى الولايات المتحدة الاميركية ، مثلا ، بالكاد يسبق نمو الانتاج الصناعى نمو عدد السكان . ففى اعوام ١٩٥٣-١٩٦٠ ، مثلا ، بلغ نمو عدد السكان فى السنة زهاء ٢ بالمئة ، بينا نما الانتاج بصورة وسطية فى السنة ٢,٤ بالمئة فقط . وفى عام ١٩٦١ كان نمو الانتاج (اقل من واحد بالمئة) ادنى من نمو عدد السكان (١,٥ بالمئة) .

وتتجلى طفيلية الرأسمالية فى نمو العسكرية . فان قسما جسيما جدا من الدخل الوطنى (القومى) ومن دخل الشغيلة ينفق بصورة رئيسية على الاغراض العسكرية والحربية . والارقام التالية تدل على نمو النفقات العسكرية والحربية الهائل : فى عام ١٩٢٩ ، بلغت النفقات العسكرية المباشرة فى جميع البلدان الرأسمالية ٤,٢ مليارات دولار ؛ وفى عام ١٩٥٨ ، بلغت النفقات العسكرية فى دول الناتو (حلف الاطلسى الشمالى) وحدها اكثر من ٦٠ مليار دولار . وفى شهر واحد فقط ، تبلغ النفقات العسكرية لهذه الدول قدرا من الاموال يكفى لرى الصحراء الكبرى كلها .

ان الاموال التى انفقت على خوض غمار الحرب العالمية الثانية كان من شأنها ان تكفى لبناء شقة من خمس غرف لكل من العائلات فى العالم اجمع ، ولتأمين التحصيل الثانوى لجميع الاولاد فى العالم اجمع ، ولتجهيز مستشفى لكل خمسة آلاف نسمة من سكان الارض .

ويتجلى تعفن الرأسمالية فى كون البرجوازية الامبريالية تستغل

ارباحها من استثمار البلدان المستعمرة والتابعة وترشي الفئة العليا من الطبقة العاملة ، او ما يسمى باريستقراطية العمال ، وتجبرها على خدمة مصالحها .

الامبريالية هي الرأسمالية المحتضرة

تؤزم الامبريالية تناقضات الرأسمالية الى الحد الاقصى . وتناقضات الامبريالية الرئيسية هي : ١ ـ التناقض بين العمل والرأسمال ؛ ٢ ـ التناقض بين الدول الامبريالية ؛ ٣ ـ التناقض بين المتروبولات والمستعمرات . وهذه التناقضات لم يبق من الممكن حلها في اطار الرأسمالية .

وهكذا يفضي تطور الرأسمالية ، ولا سيما في مرحلتها العليا ، الى ضرورة الثورة الاشتراكية المدعوة الى القضاء على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وعلى استثمار الانسان للانسان .

ان تطور البلدان الرأسمالية في مرحلة الامبريالية يجري بصورة متفاوتة وبشكل قفزات . وهذا ما يدل عليه تغير الوزن النسبي لبعض البلدان في الانتاج الصناعي بالعالم الرأسمالي كله (راجع الجدول . المعطيات بالنسبة المئوية) :

البلد	١٨٧٠	*١٩١٣	١٩٣٨	١٩٤٦	١٩٥٨
الولايات المتحدة الاميركية	٢٣,٣	٣٧,٩	٤١,٤	٥٩,١	٤٦,٩
بريطانيا	٣١,٨	١٤,٨	١٢,٥	١٢,١	١٠,٥
جمهورية المانيا الاتحادية	**١٣,٢	**١٦,٦	**٩,٠	٣,٨	٨,٣
فرنسا	١٠,٣	٦,٨	٦,٠	٥,١	٥,٤

* بدون روسيا .

** المانيا كلها .

يتبين من الجدول ان بريطانيا كانت في عام ١٨٧٠ تشغل المرتبة الاولى في ميدان الانتاج الصناعي بين البلدان الرأسمالية ، والولايات المتحدة الاميركية المرتبة الثانية ، والمانيا المرتبة الثالثة ، وفرنسا المرتبة الرابعة . وفي عام ١٩١٣ ، لم تشغل الولايات المتحدة الاميركية المرتبة الاولى في ميدان الانتاج الصناعي وحسب ، بل بلغ منتوجها الصناعي قرابة منتوج المانيا وبريطانيا وفرنسا معا . وشغلت المانيا المرتبة الثانية ، وبريطانيا الثالثة وفرنسا الرابعة . وفي عام ١٩٣٧ ، ازداد الانتاج الصناعي في الولايات المتحدة الاميركية ٥٠ بالمئة عنه في بريطانيا والمانيا وفرنسا معا .

وبعد الحرب العالمية الثانية ، في عام ١٩٤٦ ، ازداد نصيب الولايات المتحدة الاميركية في الانتاج الصناعي بالعالم الرأسمالي حتى ٥٩,١ بالمئة ، ولكنه هبط في عام ١٩٥٨ الى ٤٦,٩ بالمئة .

ان تفاوت التطور الاقتصادي يؤدي الى الحدالاقصى من تأزم التناقضات بين البلدان الامبريالية .

ان تفاوت التطور الاقتصادي في البلدان الرأسمالية في عهد الامبريالية يؤدي الى تفاوت تطورها السياسي . فان الحركة العمالية ، مثلا ، قد تطورت بصورة متفاوتة منذ ولادتها . ففي غضون القرن التاسع عشر ، انتقل مركز الحركة الثورية من بريطانيا (العقدان الرابع والخامس) الى المانيا (اعوام ١٨٤٤ـ ١٨٤٩) ، وفرنسا (عام ١٨٧١) وعاد من جديد الى المانيا (الثلث الاخير من القرن التاسع عشر) . وفي مطلع القرن العشرين انتقل مركز الحركة الثورية العالمية الى روسيا .

ان تفاوت التطور الاقتصادي والسياسي في البلدان الرأسمالية يفضي الى اختلاف اوقات نضوج المقدمات لأجل انتصار الثورة الاشتراكية في مختلف البلدان . وبفعل قانون تفاوت التطور

الاقتصادى والسياسى فى البلدان الرأسمالية فى عهد الامبريالية ، تضعف جبهة الامبريالية العالمية . واختلاف اوقات نضوج الثورة ينفى امكانية انتصار الثورة فى آن واحد فى جميع البلدان او فى اغلبية البلدان . وتنشا امكانية تحطيم للسلسلة الامبريالية فى حلقتها الضعيفة وامكانية انتصار الثورة الاشتراكية اولا فى عدة بلدان وحتى فى بلد واحد بمفرده .

ان النظرية القائلة ان الامبريالية هى اعلى وآخر مراحل الراسمالية ، نظرية انتصار الثورة الاشتراكية فى بلد واحد هى من وضع لينين .

٣ ـ السياسة الامبريالية للدول الكبرى فى اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين

تأزم التناقضات الامبريالية

فى اواخر القرن التاسع عشر ، تازمت التناقضات الاقتصادية والسياسية بين الدول الامبريالية الكبرى . ونشات تدريجيا كتلتان متعاديتان ، احداهما برئاسة بريطانيا ، والثانية برئاسة المانيا . واصبحت مسالة اسواق التصريف والمستعمرات مسالة حادة . ولكنه لم تكن قد بقيت فى الكرة الارضية اراض «حرة» . وقد اعتبرت الدول الرأسمالية الكبيرة التى شرعت فى وقت متأخر بالفتوحات الاستعمارية ، وبالدرجة الاولى المانيا والولايات المتحدة الاميركية واليابان ، انها مغبونة من حيث مصادر الخامات واسواق التصريف ، وطرحت قضية اقتسام المستعمرات ومناطق النفوذ من جديد . ولم يكن الاستيلاء على المستعمرات يبتغى الحصول على الارباح الطائلة وحسب ، بل كان يبتغى ايضا حل

التناقضات الداخلية على حساب شعوب البلدان المستعمرة ، لأن جزءا من الارباح الاستعمارية كان يستغل لرشوة الفئة العليا من الطبقة العاملة .

استعباد شعوب افريقيا الشرقية. ثورة المهدى فى السودان

فى اواخر السبعينيات من القرن التاسع عشر ، بسط اصحاب المصارف الانجليز والفرنسيون مراقبتهم على مصر . وفى عام ١٨٨٢ ، نشبت ثورة شعبية فى مصر بقيادة عرابى باشا ، الضابط فى الجيش المصرى . وقد طالب الثوار بطرد الاجانب واجراء اصلاحات برجوازية . وجوابا على ذلك ، شنت بريطانيا الحرب على مصر ، واحتلتها كليا واقامت فيهـــا نظام الحكم الاستعمارى .

وفى عام ١٨٨١ نشبت فى السودان ثورة ضد الاستعمار ، بقيادة المهدى محمد احمد . وكانت ثورة الفلاحين والرحل والارقاء السودانيين على المستعمرين الانجليز والدواوينية (البيروقراطية) الاقطاعية المصرية . وفى عام ١٨٨٥ ، حرر الثوار جميع اراضى البلاد واحتلوا المدينة الرئيسية ، الخرطوم . وانشئت الدولة المهدية المستقلة ؛ وقد دامت ١٣ سنة .

ابان الحرب التى امتدت من عام ١٨٩٦ الى عام ١٨٩٨ استولى المستعمرون البريطانيون على السودان وقضوا على الدولة المهدية ، ودمروا مدينة ام درمان بصورة وحشية ، وعلقوا على جدران الخرطوم وام درمان رؤوس الاسرى المقطوعة ، وهدموا ضريح المهدى واحرقوا رفاته فى موقد

احدى السفن . الا ان ثورة المهدى ألهمت شعوب مصر والهند وغيرهما من البلدان المستعبدة فى افريقية وآسيا على مقاومة المستعمرين .

المانيا وفتوحاتها الاستعمارية

بعد عقد الحلف الثلاثى (المانيا ، النمسا-المجر ، ايطاليا) فى عام ١٨٨٢ ، تعاظم دور المانيا العالمى . فطالب الامبرياليون (الاستعماريون) الالمان على المكشوف بمنحهم نصيبا من المستعمرات يتناسب مع قدرتهم العسكرية والاقتصادية .

فى سنوات العقد التاسع من القرن التاسع عشر ، اخذت المانيا تشدد سياستها التوسيعية . وفى نيسان (ابريل) ١٨٨٤ ، اعلنت المانيا حمايتها لمكاتب التاجر الالمانى لوديريتس (من مدينة بريمن) فى جنوب غرب افريقيا عند خليج انغرا-بيكينيا وللساحل الممتد من انغولا (المستعمرة البرتغالية) حتى مستعمرة الرأس . وهكذا استولت المانيا على مساحة شاسعة من الاراضى أسميت بافريقيا الجنوبية الغربية الالمانية .

وفى منتصف عام ١٨٨٤ استولت المانيا على التوغو والكاميرون ، وفى عام ١٨٨٥ على اراض فى الجزء الشرقى من افريقيا وعلى زنجبار ، واسمتها بافريقيا الشرقية الالمانية .

الحرب الاسبانية الاميركية

كذلك ابدت الولايات المتحدة الاميركية نشاطا كبيرا فى مضمار الفتوحات الاستعمارية . وقد استثارت فى عام ١٨٩٨ الحرب الاسبانية الاميركية .

قبل هذه الحرب بزمن طويل ، اعلنت الولايات المتحدة الاميركية عن رغبتها فى التوسع فى بلدان اميركا اللاتينية والشرق الاقصى . وبذريعة مذهب مونرو* وسياسة «حسن الجوار» عززت الولايات المتحدة الاميركية تدخلها الاقتصادى فى بلدان اميركا اللاتينية ، وازاحت منها الدول الاوروبية . وحاولت فى الوقت نفسه ان تقيم سيطرتها الاقتصادية فىبلدان الشرق الاقصى : فى اليابان ، والصين ، وغيرهما . وفى عام ١٨٩٨ ، الحقت الولايات المتحدة الاميركية جزر هاوايى بها لأجل تعزيز مواقعها فى منطقة الشرق الاقصى ، وجعلت من هذه الجزر نقطة ارتكاز لأجل التوسع فى بلدان الشرق الاقصى ؛ وفى عام ١٨٩٩ ، حولت الولايات المتحدة الاميركية جزيرة ساموا الشرقية الى مستعمرة . وارادت الولايات المتحدة الاميركية ان تستولى على الفيليبين ، المستعمرة الاسبانية لتوطيد مواقعها فى الشرق الاقصى ، وعلى كوبا للتسرب الى بلدان اميركا اللاتينية .. وبدأت الاستعدادات للحرب ضد اسبانيا .

فى عام ١٨٩٥ ، انفجرت فى كوبا ثورة مسلحة بقيـــادة خوسه مارتى ومكسيم هوميس وانطونيو ماسيو ، وفى عام ١٨٩٦ انفجرت ثورة فى الفيليبين . فقررت الولايات المتحدة الاميركية ان تستغل هذا النضال ، وان تستولى على كوبا والفيليبين تحت

---

* مذهب مونرو – اعلان بسياسة الولايات المتحدة الاميركية حيال اميركا اللاتينيـــة ، صدر عـــام ١٨٢٣ . كان مذهب مونرو («اميركا للاميركيين») موجها شكلا ضد تدخل الدول الاوروبية ، ولكنه كان بالفعل محاولة لتعليل وتبرير طموح الولايات المتحدة الاميركية الى بسط نفوذها فى عموم القارة الاميركية .

ستار مساعدة الثوار . فاتخذ كونغرس الولايات المتحدة الاميركية فى عام ١٨٩٦ قرارا خاصا بضرورة التدخل فى الاحداث الكوبية وتقدم من اسبانيا بعرض الوساطة . ولكن اسبانيا رفضت هذا العرض . وآنذاك عززت الولايات المتحدة الاميركية استعداداتها الحربية .

وقد جعل الرئيس الاميركى الجديد ماك كينلى من الاستيلاء فورا على كوبا والفيليبين حجر الزاوية فى سياسته . وفى ١٥ شباط (فبراير) ١٨٩٨ ، حدث انفجار فى السفينة الاميركية «ماين» الراسية فى مرفأ هافانا ، وذلك فى احوال غامضة ، وغرقت السفينة . وعلى الأثر ، بدأ التحقيق . وحتى قبل بداية التحقيق ، القت الحكومة الاميركية على اسبانيا مسؤولية الانفجار فى السفينة «ماين» . فاقدمت اسبانيا على التنازل ، ولكن مسالة الحرب كانت قد قررت .

ففى ٢١ نيسان (ابريل) بدأت الولايات المتحدة الاميركية العمليات الحربية بدون اعلان الحرب . ومنيت اسبانيا بالهزيمة التامة سواء أفى الجزر ام فى البحر . وبموجب الهدنة الموقعة بعد استسلام القوات الاسبانية فى مانيلا ، تخلت اسبانيا عن كوبا وبورتوريكو وغيرهما من الجزر فى الهند الغربية لصالح الولايات المتحدة الاميركية . وظلت مسالة الفيليبين معلقة .

واستغلت المانيا وبريطانيا ضعف اسبانيا وحاولتا ان تمدا ايديها الى قسم من مستعمراتها . فطالبت المانيا بان تبيعها اسبانيا جزر ماريان وجزر كارولين وجزر مارشال وجزر كانارى . فوافقت اسبانيا على اجراء مفاوضات حول بيع جميع الجزر باستثناء جزر كانارى .

ونظرا لادعاءات المانيا وبريطانيا ، اضطرت اسبانيا الى تلبية مطالب الولايات المتحدة الاميركية ، وفى ١٠ كانون الاول

(ديسمبر) ١٨٩٨ تم التوقيع فى باريس على معاهدة صلح اعترفت فيها اسبانيا «باستقلال» كوبا ، واحالت للولايات المتحدة الاميركية بورتوريكو وغوام وباعت جزر الفيليبين بعشرين مليون دولار . وفى اوائل عام ١٨٩٩ ، تم التوقيع على اتفاقية ببيع جزر ماريان ومارشال وكارولين لالمانيا بمبلغ زهيد (٢٥ مليون بيزوتو) . كذلك اصبحت جزر ساموا الغربية مستعمرات المانية . وواصلت الولايات المتحدة احتلال اراضى كوبا «المستقلة» حتى بعد توقيع معاهدة الصلح . وانتقلت السلطة كلها فى البلد الى يد الحاكم العسكرى الاميركى .

وفى عام ١٩٠١ ، فرض امبرياليو (استعماريو) الولايات المتحدة الاميركية ما يسمى تعديل بلاّت على دستور كوبا . وقد كرّس هذا التعديل الجائر تحويل كوبا الى مستعمرة فعلية للولايات المتحدة الاميركية . وبموجب تعديل بلاّت ، انال امبرياليو الولايات المتحدة الاميركية «حق» التدخل فى كوبا ، ومنعوا كوبا اساسا من عقد المعاهدات مع الدول الاخرى ومن نيل القروض الاجنبية دون موافقة الولايات المتحدة الاميركية . وحصلت الولايات المتحدة الاميركية على قواعد بحرية فى كوبا . وخوفا من نضالات جديدة يقوم بها الشعب الكوبى المناضل فى سبيل استقلال بلده ، حلت الولايات المتحدة الاميركية الجيش الكوبى . هكذا أنهت الولايات المتحدة الاميركية الحرب التى بدأتها ، كما اعلنت حكومتها ، من اجل تحرر كوبا واستقلالها .

كانت الحرب الاسبانية الاميركية اول حرب فى سبيل اعادة تقاسم العالم ، ونتيجة لتطور الرأسمالية بتفاوت وقفزات . ولقد كانت الولايات المتحدة الاميركية اول دولة فى عداد اقوى الدول الامبريالية (الاستعمارية) شنت الحرب فى سبيل اعادة تقاسم العالم وفى سبيل اسواق التصريف .

حرب البوير (الحرب بين البوير والانجليز)

فى عام ١٨٩٩ ، شنت بريطانيا حربا استيلائية ضد جمهوريتى اورانج والترانسفال فى جنوب افريقيا ، اللتين يقطنهما البوير وهم من ذرية المستوطنين الهولنديين . وكان هؤلاء قد استولوا على اراضى هذين البلدين من الافريقيين ، سكانهما الاصليين . قاوم البوير بعناد وانزلوا بالقوات البريطانية جملة من الهزائم ، ولجاوا الى حرب الانصار على نطاق واسع . ولكن البوير انفسهم كانوا ينتهجون سياسة التمييز العنصرى حيال السكان الزنوج الاصليين وبهذا قوضوا قواهم ذاتها .

فى عام ١٩٠٢ ، فرضت بريطانيا على جمهوريتى اورانج والترانسفال صلحا امبرياليا (استعماريا) تحولتا بموجبه الى مستعمرتين بريطانيتين .

توسع الولايات المتحدة الاميركية الامبريالى فى اميركا اللاتينية

فى اواخر العقد الثامن واوائل العقد التاسع من القرن التاسع عشر ، بدأت شركة فرنسية ببناء قناة باناما ، فدب فساد لا سابق له حول بناء القناة الى مغامرة وفضيحة (ومذ ذاك اصبح لكلمة « باناما » معنى سلبى) وادى الى افلاس الشركة . وفى عام ١٩٠٢ ، باعت الحكومة الفرنسية حقوقها الامتيازية من حكومة الولايات المتحدة الاميركية . وفى كانون الثانى (يناير) ١٩٠٣ ، تم التوقيع بين حكومتى الولايات المتحدة الاميركية وكولومبيا على معاهدة تستأجر بموجبها الولايات المتحدة الاميركية لمدة ٩٩ سنة شريطا من الارض الكولومبية من اجل بناء القناة . ولكن الكونغرس الكولومبى

رفض المصادقة على معاهدة الخيانة التى عقدتها حكومته . آنذاك استثارت الولايات المتحدة الاميركية بواسطة عملائها انتفاضة فى منطقة القناة ودعمتها على المكشوف . وتكونت دولة جديدة فى برزخ باناما هى دولة باناما ؛ فاعترفت بها الولايات المتحدة على الفور ، وشرعت تبنى القناة بحماية قواتها المسلحة ، وانتهت من بنائها فى عام ١٩١٤ . وقد استغلت الولايات المتحدة الاميركية قناة باناما من اجل التحكم ببلدان اميركا اللاتينية .

منح الاحتكاريون الاميركيون دول اميركا اللاتينية القروض بشروط مفيدة لهم الى اقصى حد . كذلك كان لاصحاب المصارف البريطانيين مقادير لا باس من الرساميل الموظفة فى هذه البلدان ، ولكن بريطانيا ، نظرا لتفاقم التناقضات البريطانية الالمانية ، قررت ألاّ تختلف مع الولايات المتحدة الاميركية واقدمت على تنازلات كبيرة . كذلك لم تكن الولايات المتحدة الاميركية راضية عن اشتداد مزاحمة الشركات التجارية الالمانية فى بلدان اميركا اللاتينية .

فى اعوام ١٩١٠ ـ ١٩١٧ ، نشبت فى المكسيك ثورة ضد التوسع الامبريالى (الاستعمارى) وضد البقايا الاقطاعية زعزعت مواقع الرجعية الاقطاعية والاكليريكية والرأسمال الاجنبى فى البلاد وكانت لها اهمية جسيمة جدا بالنسبة لنهوض حركة التحرر الوطنى لشعوب اميركا اللاتينية .

ثورة الايخيتوان الشعبية فى الصين (١٨٩٩ـ١٩٠١)

كانت بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الاميركية تعتبر المانيا خصمها الرئيسى . ولم تخف المانيا عزمها على اعداد «حرب كبيرة» فاخذت بكل حمّى تبنى السكك الحديدية ،

وتعزز حامياتها فى المستعمرات ، وتبنى اسطولا بحريا حربيا جبارا .

وجاء امتناع بريطانيا وفرنسا عن تلبية مطامع العسكريين الالمان الاستعمارية تؤزم اكثر من ذى قبل العلاقات بين هذه البلدان . ولكن هذه البلدان كانت تعمل معا ضد حركة التحرر الوطنى . فعندما نشبت فى الصين عام ١٨٩٩ انتفاضة الايخيتوان الشعبية المعادية للامبريالية ، شكلت الدول الامبريالية (الاستعمارية) فيلقا دوليا بقيادة جنرال ألمانى وارسلت هذا الفيلق الى قمع الثورة . وفى عام ١٩٠١ قمعت الدول الامبريالية بتضافر جهودها الثورة .

الا ان نضال الايخيتوان عرقل تقاسم اراضى الصين كليا . وقد كان لثورة الايخيتوان الشعبية اهمية هائلة بالنسبة لتطور حركة التحرر الوطنى فى الصين .

وبعد مفاوضات طويلة ، اجبرت الدول الاستعمارية الصين على توقيع «بروتوكول نهائى» فى عام ١٩٠١ ألزمت بموجبه الصين على تلبية معظم مطامع الغزاة الاقليمية ، وعلى منحهم حق تحصيل الضرائب من الاهلين ، وعلى دفع غرامة جسيمة قدرها ٩٨٠ مليون ليان (زهاء مليار ونصف مليار روبل ذهبى) . وهكذا تحولت الصين ، من حيث جوهر الامر ، الى نصف مستعمرة للدول الامبريالية . ووافق ممثلو السلالة المنشورية الحاكمة على هذه المطالب لأنهم كانوا يخافون من انتصار الشعب .

وحتى قبل ثورة الايخيتوان ، كانت اراضى الصين مقسومة الى مناطق نفوذ ، فجاءت هزيمة الثورة توطد هذا التقسيم . فاصبح حوض نهر يانتسى منطقة سيادة لبريطانيا ، واقليم شاندون لالمانيا ، واقليم يونّان لفرنسا ، والاقاليم الشمالية

الشرقية (منشوريا) لروسيا القيصرية ، واقليم فوتسيان لليابان . واستولت بريطانيا على مرفأ ويهاوى بحجة «استئجاره» لمدة ٢٥ سنة ، واستولت فرنسا على غوانتشووان بحجة «استئجارها» لمدة ٩٩ سنة ، والمانيا على مرفأ تسينداو بحجه «استئجاره» لمدة ٩٩ سنة ، وروسيا القيصرية على مرفأ بورت-ارتور بحجة «استئجاره» لمدة ٢٥ سنة .

بيد ان اعمال المستعمرين المشتركة ضد الشعب الصينى لم تخفف التناقضات فيما بينهم .

ونظرا لتقاسم الصين الى مناطق نفوذ ، تقدمت الولايات المتحدة بمذهب «الابواب المفتوحة» * مفترضة انه من الاسهل لها ان تتوسع فى الصين عن السبيل الاقتصادى .

توسع المانيا فى الشرقين الادنى والاوسط

حملت المانيا تركيا على منح الراسماليين الالمان امتيازات لبناء سكة حديد بغداد من البوسفور الى الخليج الفارسى عبر آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين . وكان من المتوقع ان تكتسب هذه السكة الحديدية اهمية ستراتيجية كبيرة . وقد وقعت معهدتان مع تركيا فى عامى ١٨٩٣ و ١٩٠٣ .

هدد توسع المانيا فى الشرقين الادنى والاوسط وامتداده

---

* مذهب «الابواب المفتوحة والفرص المتكافئة» - سياسة اعلنتها الولايات المتحدة الاميركية عام ١٨٩٩ حيال الصين . طالبت الولايات المتحدة الاميركية بتصفية مناطق نفوذ الدول الامبريالية (الاستعمارية) فى الصين لكى تنال جميع الدول الاجنبية حقوقا متساوية فى النشاط التجارى والصناعى فى عموم اراضى الصين . لم تامل الامبريالية الاميركية بالحصول على منطقة نفوذ ، فسعت الى تامين سيادتها على عموم الصين .

نحو الخليج الفارسى مصالح الامبرياليين (الاستعماريين) البريطانيين فى الهند . ففى كانون الثانى (يناير) ١٨٩٩ ، اعلنت بريطانيا حمايتها للكويت ووضعت الخطط للاستيلاء على الجزيرة العربية وبلاد ما بين النهرين . كل هذا ادى الى تازم التناقضات الامبريالية (الاستعمارية) بين بريطانيا والمانيا فى الشرقين الادنى والاوسط وفى افريقيا تأزما شديدا . وقد اختار الاستعماريون الالمان سبيل الاستيلاء بقوة السلاح لأجل تحقيق اهدافهم الاغتصابية ، لأن بريطانيا وفرنسا رفضتا تلبية مطالب المانيا بالسبيل السلمى . فشرع الاستعماريون الالمان فى بناء اسطول بحرى حربى جبار فى مستطاعه ان ينافس الاسطول البريطانى .

وكانت كل خطوة جديدة تخطوها المانيا فى ميدان الاستعداد للحرب تقوى خلافاتها مع بريطانيا وفرنسا .

فان بناء قناة كيل (١٨٩٥) التى تتيح لالمانيا توحيد اسطولى بحر البلطيق وبحر الشمال ، ونمو القوات البحرية والبرية بسرعة ، والمخطط الجليل لبناء السفن الحربية الذى وضعه الاميرال تيربيتس وصادق عليه الريخستاغ عام ١٨٩٨ ، وتغلغل الاحتكارات الالمانية فى بلدان اميركا اللاتينية وافريقيا والبلقان ، والامتيازات ببناء سكة حديد بغداد ، كل هذا اثار قلق الاوساط الحاكمة فى بريطانيا وفرنسا .

الحرب الروسية اليابانية ١٩٠٤-١٩٠٥

حبكت اليابان خططا للاستيلاء على الاقاليم الشمالية الشرقية من الصين ، حيث تتوافر مكامن غنية من المطمورات النافعة ، ولكن روسيا وقفت فى طريق تنفيذ هذه الخطط .

ناهيك بان اليابان حاولت ان تسولى على جزيرة ساخالين التى تخص روسيا والتى تفتح سبيلا الى سيبيريا .

فى مستهل عام ١٩٠٤ ، هاجمت اليابان روسيا دون اعلان حرب . وكانت روسيا غير مستعدة اطلاقا للحرب ، واضطرت الحكومة القيصرية على توقيع الصلح فى عام ١٩٠٥ .

وفى عـــام ١٩٠٥ ، بدأت الثورة الروسيـــة الاولى ، وبتاثيرها جرت ثورة فى جملة من البلدان التابعة : الثورة الايرانية (١٩٠٦-١٩١١) ، ثورة تركيا الفتاة (١٩٠٨-١٩٠٩) ، ثورة سينهاى فى الصين (١٩١١-١٩١٣) ، ونشبت حركة ثورية فى كوريا واشتد نضال التحرر الوطنى فى الهند واندونيسيا وفى البلدان العربية .

وكانت حكومة روسيا القيصرية تخشى ، اشد ما تخشى ، شعبها بالذات . وقد اثارت الثورة الروسية (١٩٠٥-١٩٠٧) الذعر فى الاوساط الحاكمة الى حد ان الحكومة القيصرية وافقت على الاستسلام شرط ان تحول دون انتصار الثورة . وبموجب معاهدة بورتسموت للصلح (ايلول - سبتمبر ١٩٠٥) ، سلمت روسيا اليابان القسم الجنوبى من ساخالين واعترفت بتفوق نفوذ اليابان فى كوريا ومنشوريا ، وتخلت عن حقوقها فى بورت-ارتور وسكة حديد الصين الشرقية .

تقوض نفوذ روسيـــا الدولى . واستغلت المانيـــا ذلك ، فعززت توسعها فى البلقان وفى تركيا . ولم تخف روسيا وحدها ، بل بريطانيا ايضا من سياسة الاستعمار الالمانى العدوانية ، لأن المانيا هددت كذلك النفوذ البريطانى فى الشرقين الادنى والاوسط .

وكانت تركيا تمزقها التناقضات الداخلية الحادة وحروب التحرر الوطنى التى خاضتها الشعوب المظلومة ، فوقعت اكثر فاكثر فى تبعية انجلترا وفرنسا ، المالية والاقتصادية .

خوفا من الحلف الثلاثى (المانيـا الاستعمارية الامبريالية ، النمسا-المجر ، ايطاليا) ، ارادت بريطانيا وفرنسا ان تحققا عن طريق المساومة مشاريعهما الاستيلائية الاغتصابية ، فعقدتا عام ١٩٠٤ اتفاقية معروفة فى التاريخ باسم «الوفاق القلبى» * او «الانتانت» . وكان الهدف الرئيسى من الاتفاقية الانجلو-فرنسية توحيد الجهود لخنق حركة التحرر الوطنى فى افريقيا وفى الشرقين الادنى والاوسط .

ولخلق ثقل موازن لالمانيا فى اوروبا ، قررت بريطانيـا وفرنسا ان تجتذبا روسيا الى جانبهما أملا فى مساعدتها لهما . وبنتيجة مفاوضات طويلة عقدت اتفاقية انجلو-روسية فى عام ١٩٠٧ حول مناطق النفوذ فى ايران وافغانستان والتيبت . وقد نصت هذه الاتفاقية على قسمة ايران الى ثلاث مناطق : القسم الشمالى من ايران وقع تحت اشراف روسيا ، واعتبر القسم الاوسط منطقة محايدة ، والقسم الجنوبى منطقة نفوذ لبريطانيا . وبشديد الالحاح توصلت بريطانيا الى بسط سيطرتها فى هذا القسم من ايران لسبب آخر ايضا هو انه اكتشفت فى هذا القسم احتياطيات غنية جدا من البترول . وبموجب اتفاقية عام ١٩٠٧ ، تنازلت روسيا لبريطانيا عن الهيمنة فى افغانستان . كل هذا خفف التناقضات الانجلو-روسية واجبر روسيا القيصرية على نقل مركز سياستها التوسعية الى البلقان . وكانت انجلترا تحسب ان تصدم روسيا بالنمسا-المجر ، حليفة المانيا ، وبذلك تشد روسيا اكثر فاكثر الى «الوفاق» .

---

* الوفاق (الوئام ، التفاهم ، الائتلاف) القلبى (الودى) . **المعرب** .

٤ ـ الحرب العالمية الاولى الاستعمارية

بتوقيع الاتفاقية الانجلو-روسية ، تم انشــاء «الوفاق» ككتلة امبريالية استعمارية تضم بريطانيا وفرنسا وروسيا . وبدأت مرحلة من الصراع الضارى بين الكتلتين الامبرياليتين الاستعماريتين . ولكن التناقضات فى داخل كل من الكتلتين كانت على درجة من الاهمية (الخلافات بين ايطاليا والنمسا-المجر بسبب التيرول ، وساحل بحر الادرياتيك ، وغيرهما من الاراضى) بحيث ان ايطاليا شرعت تبحث عن تأييد لدى بلدان «الوفاق» ، وخرجت ابان الحرب العالمية الاولى من الحلف الثلاثى وانضمت الى «الوفاق» . وداخل «الوفاق» ايضا ، كانت تقوم خلافات . فقد كانت روسيا غير راضية من سعى بريطانيا وفرنسا الى قطع الطريق عليها نحو مضايق البحر الاسود (البوسفور والدردنيل) التى كانت من زمان هدف توسع القيصرية الروسية .

ورغم الاتفاقية المعقودة بشــأن تقاسم مناطق النفوذ فى افريقيا بين بريطانيا وفرنسا ، ظلت بعض الخلافات قائمة بينهما . وكانت الولايات المتحدة الاميركية تنتهج سياسة الحياد من الناحية الحقوقيــة ، ولكنهــا كانت تلتصق فعلا ببلدان «الوفاق» ، لأنها رأت فى الامبريالية الالمانية افدح الخطر على مصالحها .

الحرب العالمية الاولى

وهكذا ادى الصراع بين الكتلتين الامبرياليتين الاستعماريتين (الحلف الثلاثى و «الوفاق») الى الحرب العالمية الاولى التى اشتركت فيها فيما بعد اليابان والولايات المتحدة الاميركية

وتركيا وغيرها من البلدان . وكانت الحرب من كلا الطرفين تتسم بطابع امبريالى ، استعمارى ، اغتصابى ، وكانت حربا غير عادلة .

كان الاستعماريون الالمان يفكرون ويحلمون بانشاء «المانيا العظمى» او «اوروبا الوسطى» ، على ان تشمل منطقة البلطيق وبولونيا واوكرانيا وسكانديناقيا وبلجيكا وهولنده وآسيا الامامية والنمسا والمجر والبلقان وقسما من فرنسا . وصمموا انشاء امبراطورية استعمارية شاسعة فى افريقيا وحوض المحيط الهادى ، وحلموا بالسيطرة فى اميركا الجنوبية ، وأملوا بالاستيلاء على المستعمرات البريطانية والفرنسية والبلجيكية وعلى مستعمرات الدول الاخرى . وارادت الامبريالية الالمانية ان تزيح منافستها الرئيسية ، بريطانيا ، وان تحطم سيادتها البحرية وتضيق على مرتكزاتها البحرية .

وكان الاستعماريون الامبرياليون البريطانيون يستهدفون تحطيم المانيا ، بوصفها اخطر خصم لهم فى السوق العالمية ، واضعاف جبروتها الاقتصادى ، والقضاء على الاسطول الالمانى البحرى الحربى والتجارى ، واغتصاب المستعمرات الالمانية ، والاستيلاء على بلاد ما بين النهرين وفلسطين والجزيرة العربية ، وتوطيد مواقعهم فى مصر .

وكان الامبرياليون الاستعماريون الفرنسيون لا يسعون الى استعادة الالزاس واللورين اللتين انتزعتهما المانيا من فرنسا فى عام ١٨٧١ وحسب ، بل كانوا يسعون ايضا الى الاستيلاء على حوض الرور وضم منطقة السار الى فرنسا ، واضعاف قدرة المانيا الاقتصادية والمالية ، واحتلال المستعمرات الالمانية فى افريقيا .

وكان الامبرياليون الاستعماريون الروس يسعون الى فرض سيطرتهم السياسية والعسكرية فى البلقان وضم غاليسيا الى روسيا والاستيلاء على القسطنطينية ومضايق البحر الاسود .

ولكن استعماريى الكتلتين كانوا يريدون ، عن طريق شن الحرب ، اضعاف الحركة العمالية فى بلدانهم ووقف تقدمها .

اضعفت الحرب العالمية الاولى بعض البلدان فى المضمار الاقتصادى ، وأسهمت فى تطور واثراء بعضها الآخر (وخاصة الولايات المتحدة الاميركية واليابان) بمزيد من السرعة . فان ٤٨ تروستا فقط كانت اكبر التروستات فى الولايات المتحدة الاميركية ، قد جنت فى عام ١٩١٦ زهاء ٩٦٥ مليون دولار من الارباح اى ما يوازى ثلاثة امثال الربح الوسطى فى السنوات الثلاث السابقة للحرب . اما عدد الضحايا البشرية والخسائر المادية فى الحرب العالمية الاولى ، فقد ازداد على عدد جميع الضحايا والخسائر فى السنوات الـ ١٢٥ السابقة . ويستفاد من المعطيات الرسمية ان عدد القتلى فى سنوات الحرب العالمية الاولى بلغ ٩ ملايين و ٧٠٠ الف ، وعدد الجرحى والمشوهين اكثر من ٢١ مليونا ، وفتكت المجاعة والاوبئة بملايين الناس .

الفصل التاسع

المقدمات الاجتماعية والاقتصادية و السياسية للثورة الاشتراكية فى روسيا

ان تاريخ الرأسمالية انما هو تاريخ نضال الطبقة العاملة ضد الاستثمار ، فى سبيل دك النظام البرجوازى وبناء مجتمع جديد، مجتمع من اناس احرار ومتساوين فى الحقوق . وغير مرة ، منيت بالاخفاق محاولات الطبقة العاملة لدك سيطرة البرجوازية . وللمرة الاولى تحققت هذه المهمة فى روسيا عام ١٩١٧ عندما انتصرت ثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى . وقد كانت ثورة اكتوبر نتيجة منطقية ، حتمية لتطور المجتمع . فان مقدمات الثورة فى روسيا قد تكونت قبل انتصارها بزمن طويل .

دخول روسيا فى مرحلة الامبريالية

بعد سقوط نظام القنانة ، سار تطور الرأسمالية فى روسيا بسرعة كبيرة . ونحو العقد التاسع من القرن التاسع عشر ، حدث انقلاب صناعى . فقد بنى عدد عديد من المؤسسات الصناعية الجديدة . ومن عام ١٨٦٦ الى عام ١٨٩٠ ، ازداد عدد المصانع والمعامل من ٢,٥ ـ ٣ آلاف حتى ٦ آلاف . وفى الحقبة نفسها من الزمن ، ازداد طول السكك الحديدية من ٤

آلاف كيلومتر حتى ٢٩ الف كيلومتر . ونحو عام ١٨٩٠ بلغت نسبة المؤسسات الكبيرة التى يعمل فى الواحدة منها اكثر من ١٠٠ عامل اقل من ٧ بالمئة من جميع مؤسسات البلاد ، ولكنها أنتجت اكثر من نصف المنتوج الصناعى الاجمالى . ومنذ منتصف العقد العاشر من القرن التاسع عشر ، بدأ النهوض الصناعى فى روسيا يسير بمزيد من السرعة . وفى عام ١٨٩٠ ، بلغ المنتوج من البضائع ما قيمته ١,٥ مليار روبل ؛ اما فى عام ١٩٠٠ فقد بلغ ما قيمته ٣ مليارات روبل .

نحو مستهل القرن العشرين ، تنامت الرأسمالية فى روسيا ، كما فى سائر البلدان الرأسمالية ، الى اعلى وآخر مراحلها ، الامبريالية . ففى الفروع الصناعية الرئيسية ، شغلت الاحتكارات مواقع السيادة . وقد انشئت اكبر منظمات الرأسمال الاحتكارى فى مرحلة الازمة الاقتصادية الحادة التى شملت اعوام ١٩٠٠ـ ١٩٠٣ ، والتى توقف فيها نصف المؤسسات تقريبا عن العمل . ففى عام ١٩٠٢ ، تأسس سنديكا «برودواميت» («شركة بيع مصنوعات المصانع التعدينية الروسية») . وكانت هذه السنديكا تشرف على بيع ٨٣ بالمئة من عموم انتاج الحديد و٧٤ بالمئة من الحديد الصب . وسنديكا «برودوغول» ، التى تأسست فى عام ١٩٠٤ ، كانت تبيع ٧٥ بالمئة من عموم الفحم المستخرج فى عموم البلاد . وسنديكا مصانع بناء العربات الحديدية «برود فاغون» ، التى تأسست فى العام نفسه ، كانت تحتكر كليا تقريبا انتاج وتصريف العربات الحديدية فى روسيا . كذلك تأسست احتكارات كبيرة فى سائر فروع الصناعة .

وفى روسيا ، كما فى سائر البلدان الامبريالية ، جرت عملية امتزاج الرأسمال المصرفى بالرأسمال الصناعى وعملية نشوء الرأسمال المالى والطغمة المالية على هذا الاساس . وقد اضطلع

مصرف الدولة ، ومصرف الاعيان ومصرف الفلاحين ، والمصارف المساهمة الخاصة (مصرف بطرسبورغ العالمى ، مصرف الفولغا- كاما ، مصرف آزوف-الدون وغيرها) بدور هائل فى الصناعة والنقليات والتجارة . واخذت الطغمة المالية فى روسيا تؤثر اكثر فاكثر فى سياسة الحكومة القيصرية .

وقد تطورت الرأسمالية الاحتكارية فى روسيا بكل ما يلازم الرأسمالية الاحتكارية من علائم ، ولكنها تميزت فى الوقت نفسه بسمات خاصة .

الخصائص الرئيسية للامبريالية فى روسيا

ان خصائص الامبريالية فى روسيا قد اشترطتها فى المقام الاول البقايا الاقطاعية القوية جدا فى الاقتصاد وفى النظام السياسى . ومن أهم نتائج هذا الوضع ، كانت تبعية روسيا القيصرية للامبريالية الاوروبية الغربية ، الامر الذى اسهم بدوره فى تكوين خصائص الامبريالية الروسية .

كانت الملكية الاقطاعية (ملكية الملاكين العقاريين) للارض والقيصرية البقيتين الرئيسيتين للقنانة فى روسيا الرأسمالية . ففى مستهل القرن العشرين ، كان ٣٠ الف اقطاعى يملكون ٧٠ مليون ديسياتين من الارض (الديسياتين يوازى ١,٠٩ هكتار) . وكان ١٠,٥ ملايين عائلة فلاحية تملك المساحة نفسها تقريبا من الارض . وبصورة وسطية كان لكل استثمارة فلاحية ٧ ديسياتينات ، ولكل استثمارة اقطاعية اكثر من ٢٣٠٠ ديسياتين . وكان كبار الاقطاعيين يملكون عقارات شاسعة جدا تبلغ مساحة الواحد منها بضع عشرات الآلاف من الديسياتينات . وكان القيصر اكبر اقطاعى . وكانت العائلة القيصرية تملك ٧ ملايين ديسياتين ، اى قدر ما كان يملكه نصف مليون من العائلات الفلاحية .

وكان الفلاح مضطرا الى استئجار الارض من الاقطاعى بشروط مرهقة للغاية من اجل تامين معيشته ومعيشة عائلته . ولم يكن فى مستطاع الفلاح ان يسدد بدل الايجار ، ولهذا كان ملزما بالعمل خلال وقت معين فى استثمارة الاقطاعى . وكان الاقطاعيون يديرون استثماراتهم بالطريقة القديمة اساسا ، مستغلين عمل الفلاحين الاكراهى القليل الانتاجية . وكانت حراثة الارض بدائية سواء أفى الاستثمارات الاقطاعية ام فى الاستثمارات الفلاحية ، وقلما كان التكنيك الجديد موضع استخدام . كل هذا عرقل تطور القوى المنتجة فى الزراعة . وكان احتكار امتلاك الارض من قبل الاقطاعيين يمكنهم من فرض اسعار عالية للارض ، الامر الذى اعاق كذلك تطور الرأسمالية فى الصناعة وفى الزراعة . وكان امتلاك الارض المشاعى واداء الفلاحين لجملة من الفرائض الاقطاعية يكبح انتقال سكان الريف الى المدينة ويقلص امكانيات الرأسماليين للحصول على يد عاملة رخيصة .

كذلك دامت بقايا القنانة فى حياة البلد السياسية والاجتماعية . وكان الحكم المطلق القيصرى شكل ديكتاتورية الاقطاعيين . وكان الاقطاعيون يشغلون جميع الوظائف الاساسية فى الدولة . وكان الآلاف من رجال الدرك والبوليس يحرسون القيصر والاقطاعيين والرأسماليين من الشعب . وكان نحو ٢٠٠ الف من القسس ورجال الدين يخبلون الشعب ويعظونه بالخضوع للمستثمرين . وكانت القيصرية تبقى الشغيلة فى لجة الامية والجهل . وكان زهاء اربعة اخماس السكان فى روسيا اميين .

وافصاحا عن مصالح الاقطاعيين ، كان الحكم المطلق القيصرى يدعم الرأسماليين فى الوقت نفسه . فبناء على طلب اصحاب المصانع والمعامل ، كانت السلطات ترسل قواتها بكل طيبة خاطر من اجل قمع الاضرابات . ولهذا كان للبرجوازية الروسية ، التى

تخشى حركة الجماهير الشعبية اشد ما تخشى ، مصلحة فى بقاء القيصرية بجهازها الهائل للقمع والضغط والخنق . ولم تكن البرجوازية الروسية تسعى الى النضال ضد القيصرية ، ضد بقايا الاقطاعية ، بل الى التفاهم مع القيصرية .

كانت بقايا القنانة تعيق تطور روسيا . ففى اوائل القرن العشرين ، كانت روسيا تنتج من الفحم الحجرى ما يقل ٢٠ مرة عما تنتجه الولايات المتحدة الاميركية ، وما يقل زهاء ١٤ مرة عما تنتجه بريطانيا . ولم يقل تأخر روسيا الاقتصادى عن البلدان الرأسمالية الطليعية ، بل كان يزداد سنة بعد سنة . فبعد ٥٠ سنة على الغاء نظام القنانة ، ازداد استهلاك الحديد فى روسيا الى خمس مرات ، ولكن روسيا ظلت بلدا زراعيا متأخرا . وكان تجهيز المعامل والمصانع بادوات الانتاج الجديدة اقل مما فى بريطانيا باربع مرات ، ومما فى المانيا بخمس مرات ، ومما فى الولايات المتحدة الاميركية بعشر مرات . ولم تكن تملك فى روسيا أهم الفروع الصناعية كصناعة الآلات الادوات وصناعة الإنشاءات الميكانيكية الكبيرة ، وصناعة السيارات ، الخ .. وكانوا يستوردون من الخارج الآلات والآلات - الادوات الضرورية للصناعة الروسية .

كان تأخر روسيا الاقتصادى والتكنيكى يضعها فى تبعية اقتصادية حيال الامبريالية الاوروبية الغربية . ونظرا لنقص مقادير الرأسمال الروسى ، استتبع تطور العلاقات الرأسمالية فى روسيا تدفق الرساميل الاجنبية الى روسيا . ومع انتقال البلدان الاوروبية الى مرحلة الامبريالية ، أخذ تصدير الرساميل الى روسيا يحل اكثر فاكثر محل تصدير البضائع اليها . وكان توظيف الرساميل الاجنبية فى صناعة روسيا يتحقق بواسطة الشركات المساهمة . كذلك كان تدفق الرساميل الاجنبية الى

المصارف كبيرا . ففى عام ١٨٩٠ ، بلغ مجمل التوظيفات الاجنبية فى المؤسسات الروسية المساهمة اكثر من ٢٠٠ مليون روبل ؛ اما نحو عام ١٩١٧ ، فقد بلغ اكثر من ملياري روبل . وبلغت حصة الرساميل الاجنبية فى الشركات الصناعية المساهمة فى روسيا ٣٣ بالمئة ، وفى رأسمال المصارف الروسية الرئيسية ٤٣ بالمئة . وكان الرأسماليون الاجانب يتحكمون بأهم فروع الصناعة . وكان فى ايديهم ٦٧ بالمئة من الحديد الصب المنتوج فى جنوب روسيا ، و٧٠ بالمئة من الفحم المستخرج فى منطقة الدونيتس ، و٦٠ بالمئة من مجمل البترول المستخرج فى روسيا ، و٣٦ بالمئة من النحاس المستخرج .

وكان الدافع الى تدفق الرساميل الاجنبية الى روسيا هو الربح العالى الذى كان يحصل عليه اصحاب هذه الرساميل . وكان الربح العالى يؤمنه استثمار شغيلة روسيا بقساوة وضراوة . وبكل طيبة خاطر ، كان الماليون الاجانب ، ولا سيما الفرنسيون منهم ، يقدمون القروض للحكومة القيصرية . وكان تسديد الفوائد عن هذه القروض يقع على عاتق الشعب الروسى . ففى بحر ١٥ سنة ، من ١٨٩٨ الى ١٩١٣ ، دفعت روسيا القيصرية للامبرياليين الاجانب ٥ مليارات روبل من الفوائد والقسائم (ارباح الاسهم) . واكثر فاكثر ، اخذت روسيا تقع فى التبعية الاقتصادية حيال الدول الامبريالية المتطورة اكثر منها ، ولا سيما حيال بريطانيا وفرنسا .

كذلك اشترطت خصائص تكوّن الامبريالية السمات الخاصة لعلائمها الاساسية فى روسيا .

فان تمركز الانتاج قد بلغ فى روسيا درجة اعلى بالقياس الى ما كان عليه فى البلدان الاخرى . مثلا . فى المؤسسات التى تضم الواحدة منها اكثر من ٥٠٠ عامل ، كان يتمركز فى روسيا

٥٣,٤ بالمئة من جميع العمال ، بينما كان يتمركز ٣٣ بالمئة فقط في بلد كالولايات المتحدة الاميركية . ولكن رغم وجود المؤسسات الكبيرة ، لم تكن في روسيا جملة كاملة من الفروع الصناعية القادرة على تأمين التقدم التكنيكي باطراد (صناعة الانشاءات الميكانيكية الكبيرة ، انتاج التجهيزات الهكربائية ، الخ .) . وكانت الصناعة بمجملها متأخرة ، من حيث مستواها التكنيكي ، عن صناعة البلدان الرأسمالية الطليعية . وكانت الاتحادات الاحتكارية في روسيا تشمل اساسا ميدان التصريف ، وبدرجة اقل ، ميدان الانتاج ، ولهذا كان السنديكا الشكل الابرز للاحتكار في روسيا . وغالبا ما كان الرأسمال الاجنبي يضطلع بالدور الفاصل في هذه السنديكات .

كان تصدير الرساميل الروسية زهيدا . وكان لا يتجه الا الى بعض البلدان المتأخرة ، نصف المستعمرة ، اي الى ايران وتركيا والصين . وكانت روسيا نفسها هدفا لتصدير الرساميل من بلدان كفرنسا وبريطانيا وبلجيكا وغيرها .

وقد اشتركت الامبريالية الروسية في تكتلات الرأسماليين الاحتكارية العالمية لتقاسم العالم ، ولكنها لم تلعب فيها الدور الفاصل . ناهيك بان السوق الروسية كانت موضع قسمة بين احتكارات اوروبا الغربية والولايات المتحدة الاميركية .

وسعت روسيا القيصرية الى الاشتراك في تقاسم العالم من جديد . فبعد ما منيت القيصرية بالهزيمة في الحرب ضد اليابان وفقدت نفوذها في منشوريا ، استولت على منطقة نفوذ في ايران الشمالية . ومع امبرياليي بريطانيا وفرنسا ، حاكت الحكومة القيصرية المشاريع لتقاسم تركيا .

واصبحت روسيا احدى حلقات نظام الامبريالية العالمي الذي يؤزم الى الحد الاقصى جميع تناقضات المجتمع الرأسمالي .

وفى روسيا اتخذت تناقضات الامبريالية شكلا حادا جدا ، الامر الذى عزز ضرورة حلها بالسبيل الثورى . وكان لا بدّ للثورة فى روسيا ان تصفى فى المقام الاول بقايا الاقطاعية التى تعرقل تطور البلاد الى امام . وكانت جميع القوى الرجعية — القيصرية والاقطاعيون ، والبرجوازية الروسية والاجنبية — مترابطة بمصالح مشتركة . ولهذا كان النضال ضد القيصرية والاقطاعيين نضالا ضد الامبريالية فى الوقت نفسه ، الامر الذى أتاح تحويل الثورة البرجوازية الديموقراطية الى ثورة اشتراكية . ونضجت فى روسيا القوى اللازمة لثورة اشتراكية . وكانت البروليتاريا زعيمة هذه القوى .

تكوّن الطبقة العاملة العصرية

ظهر اوائل العمال الروس فى ظل الاقطاعية (القنانة) . ولكنهم لم يكونوا يمثلون آنذاك قوة سياسية مستقلة . ومع تطور الصناعة الكبيرة ، اخذت تتكون البروليتاريا الصناعية العصرية . فى عام ١٨٦٥ كان يعمل فى المؤسسات الصناعية الكبيرة فى روسيا ٧٠٦ آلاف عامل ؛ وبعد ٢٥ سنة ازداد عددهم ١٠٠ بالمئة ، ونحو مطلع القرن العشرين ، بلغ عددهم زهاء ٢٥٠٠٠٠٠ عامل . وبلغ مجمل عدد العمال العاملين فى الصناعة والنقليات والبناء والزراعة ، الخ . ، زهاء ١٠ ملايين عامل .

تكوّنت البروليتاريا فى روسيا بوصفها البروليتاريا الاوفر ثورية فى العالم . وهذا ما تفسره الظروف الموضوعية التى تكوّنت فيها .

فان نمو الرأسمالية فى روسيا قد آل فى ظل وجود البقايا الاقطاعية ، الى استثمار العمال المحرومين من جميع الحقوق السياسية استثمارا فى منتهى الوحشية . وكان الرأسماليون

يعتمدون على دعم الحكومة القيصرية وينهبون العمال ويضطهدونهم بلا عقاب . وحتى اواخر القرن التاسع عشر تقريبا ، بقى يوم العمل فى روسيا يتراوح بين ١٢ ساعة و١٣ ساعة ، وكان العمال يكدحون فى مصانع النسيج ١٥ او ١٦ ساعة فى اليوم . ولم تكن ثمة اى وقاية وحماية للعمل . وكان الرأسماليون يحددون اجور العمال كما يطيب لهم . وكانوا يخدعون العمال ، ويجبرونهم على شراء المأكولات باسعار غالية فى دكاكين المصانع . وكانوا يحسمون ٣٥ او ٤٠ بالمئة من اجور العمال كغرامات . وقد كتب العامل الثورى بيوتر مويسيينكو فى مذكراته يقول : «عن كل شيء ، غرامة . اذا مررت بمحاذاة نوافذ الادارة وعلى رأسك قبعة ، غرامة . واذا تكلمت بصوت عال فى ثكنة العمال ، غرامة . واذا رحت فى الشارع حاملا اكورديونا ، غرامة . واذا ولدت زوجتك توأمين ، غرامة . فلا يبقى لك الا ان تتمدد وتموت !» . كان العمال يعيشون فى ثكنات مصنعية ضيقة يضعون فيها الاسرة الخشبية للنوم طابقين او ثلاثة . وقد كتب ضابط من الدرك راقب عمال موسكو فى عام ١٩٠٢ يقول : «فى غرف صغيرة جدا مقسمة الى ٨ اعشاش ، يعيش ١٨ ـ ٢٤ شخصا ، مع العلم ان عائلة تنام مع اطفالها فى كل عش . كبر العش ارشينين ونصف طولا وزهاء ارشينين عرضا» (الارشين يوازى ٧١,١٢ سنتمترا) . وكيفما ابدى العمال استياءهم ، كانوا يصرفونهم من العمل ويزجون بهم فى السجون ، ويرسلونهم الى معتقلات الاشغال الشاقة .

وقد بلغ التناقض بين العمل والرأسمال فى روسيا حدة خارقة . وكان الاستثمار الضارى وشروط وظروف الحياة والعمل اللاانسانية تدفع العمال الى النضال الحازم ضد الرأسماليين . وكان السواد الاعظم من العمال الصناعيين متمركزين فى المؤسسات

الكبيرة حيث كانت شروط العمل نفسها تربي العمال بروح التنظيم والانضباط . وكانت جماعية العمل تيسر تلاحم نشاطات العمال فى النضال ضد المستثمرين .

تكونت البروليتاريا فى روسيا بعد تكونها فى البلدان الاخرى . ولهذا استطاعت ان تستفيد من تجربة النضال التى كدسها قبل ذاك عمال البلدان الاخرى . وكان ما تتحلى به بروليتاريا روسيا من قابلية للتنظيم وما تلاقيه من اضطهـــاد فى منتهى القساوة يجعلانها ذات قابلية كبرى لتفهم واستيعاب النظرية الثورية . ان الطبقة العاملة فى اوروبا الغربية قد بدأت نضالها ضد الاقطاعيين تحت قيادة البرجوازية ؛ اما فى روسيا فقد برزت الطبقة العاملة على الفور كقوة سياسية مستقلة . ثم ان مهمة تصفية بقايا الاقطاعية وتمهيد الطريق امام تطور البلاد وتقدمها قد وقعت بكليتها على كاهل الطبقة العاملة الروسية المعبّرة عن مصالح المجتمع باسره . ولم تكن القيصرية دعامة الرجعية الروسية وحسب ، بل كانت ايضا دعامة الرجعية الاوروبية والآسيوية كلها ، ولهذا دفع النضال من اجل الاطاحة بالقيصرية البروليتاريا الروسية الى السير فى طليعة نضال البروليتاريا الثورية العالمية .

وفى ظل الامبريالية ، نهضت البروليتاريا الروسية بوصفها القوة الحاسمة القادرة على تحطيم القيصرية وشق الطريق الى الثورة الاشتراكية .

ان قوة الطبقة العاملة لا تكمن فى عددها ووعيها وقابليتها للتنظيم وحسب ، بل تكمن كذلك فى وحدة مصالحها مع مصالح سائر فئات الشغيلة . وكان العمال يؤلفون مع عائلاتهم زهاء ٥ بالمئة من السكان ، ولكن وزن البروليتاريا النسبى فى الحركة الثورية كان اكبر بما لا يقاس نظارا لمساندة الجماهير الكادحة غير البروليتارية لها .

كانت الاغلبية الساحقة من السكان فى روسيا (زهاء ٨٥ بالمئة) تتألف من الفلاحين . وكان بقاء الملكية الاقطاعية للارض يحكم عليهم بالفقر والخراب . وبعد اصلاح ١٨٦١ ، فقدت اغلبية الفلاحين قسما كبيرا من الاراضى ، فلم يبق فى مستطاعهم تأمين معيشتهم من استثماراتهم . وكان يترتب على الفلاحين ان يدفعوا لقاء الارض الباقية لهم تعويضا يفوق طاقتهم كثيرا . وكان الفلاح يشتغل وقتا طويلا من اجل الاقطاعى تسديدا لبدل استئجار الارض واستعمال المحاريث ، وتسديدا لبدل المرور فى ارض الاقطاعى ، الخ ..

كذلك الحقت الحكومة القيصرية الخراب بالفلاحين . فقد كان الفلاحون يدفعون ضرائب كبيرة لتمويل الجيش والبوليس وسائر هيئات السلطة . وكانوا يضربون الفلاحين بالعصي ويبيعون مقتنياتهم اذا تأخروا عن دفع الضرائب. وكان كل تمرد على السلطات يعاقب بصرامة . وكانت الكنائس والاديرة تحصل جزيتها من الفلاحين .

كانت الارض المحروثة سيئا وغير المسمّدة كفاية تعطى غلالا زهيدة . وعلى الدوام كان الفلاجون لا يأكلون حتى الشبع ، وفى حال بوار الغلال ، كان عشرات الآلاف من الفلاحين يموتون من الجوع والاوبئة . وقد ادى تطور الرأسمالية الى تمايز الفلاحين . كان قسم ضئيل من الفلاحين يغتنى ، مركزا فى يديه الارض وماشية الجر ، ومستثمرا بلا رحمة الفلاحين الفقراء . وكان الفلاحون الاغنياء هم البرجوازية الريفية ، وقد اطلق عليهم اسم الكولاك . وبالكاد كان الفلاحون المتوسطون يؤمنون معيشتهم من استثماراتهم ، وغالبا ما كان يحل بهم الخراب فيلتحقون بصفوف الفلاحين الفقراء الذين كانوا بروليتاريين ريفيين وانصاف

بروليتاريين . ونحو اواخر القرن التاسع عشر ، كان عدد الاستثمارات الفلاحية ١٠ ملايين استثمارة ، منها قرابة ٦,٥ ملايين استثمارة للفلاحين الفقراء ، ومليونا استثمارة للفلاحين المتوسطين و١,٥ مليون استثمارة للكولاك . وكان عدد استثمارات الفلاحين الفقراء يزداد سنة بعد سنة من جراء خراب استثمارات الفلاحين المتوسطين .

وقد اضطر الفلاحون المتوسطون ، بسبب من وضعهم اليائس الذى لا مخرج منه ، الى خوض النضال ضد الاقطاعيين . وفى عام ١٩٠٢ اتسع نضال الفلاحين كثيرا جدا فى محافظتى خاركوف وبولتافا باوكرانيا ، وفى بعض المحافظات الاخرى فى القسم الاوروبى من روسيا . وقد انتزع الفلاحون من الاقطاعيين الحبوب والماشية ، واحرقوا املاكهم . قمعت قوات الحكومة القيصرية الانتفاضات بقساوة ، ولكن الفلاحين واصلوا النضال . ففى المرحلة الممتدة من عام ١٩٠٠ الى عام ١٩٠٤ ، قام الفلاحون فى روسيا بـ٦٧٠ انتفاضة . وكانت هذه الانتفاضات عفوية ، مبعثرة ، متفرقة ، ولكنها بينت ان الفلاحين يمثلون قوة ثورية هائلة . وكان ينقص الفلاحين التنظيم لأجل النضال ضد الاقطاعيين من اجل الارض ؛ وشرع الفلاحون يميلون الى الطبقة العاملة شاعرين بان الطبقة العاملة وحدها هى التى تستطيع ان تساعدهم على الخروج من لجة الفقـــر .

فى مستهل القرن العشرين ، تشكل تحالف العمال والفلاحين فى روسيا فى النضال ضد القيصر والاقطاعيين . وفى صفوف الفلاحين بالذات ، بدأ نضال الفقراء ضد الكولاك ، وهكذا نشأت المقدمات لأجل تحالف الطبقة العاملة والفلاحين الكادحين لا فى الثورة البرجوازية الديموقراطية وحسب ، بل ايضا فى الثورة الاشتراكية .

كانوا عن حق وصواب يسمون روسيا القيصرية بسجن الشعوب . فقد كان ٥٧ بالمئة من سكان روسيا من قوميات غير روسية . وكانت اوضاع العمال والفلاحين فى الاطراف القومية اسوأ مما فى وسط روسيا . وكان شغيلة المناطق القومية يكابدون نيرا مزدوجا ، نير مستثمريهم المحليين ونير الاقطاعيين والرأسماليين الروس .

ومن جرّاء دخول روسيا فى مرحلة الامبريالية ، ازداد وضع الكادحين غير الروس سوءا على سوء . ونظرا لعدم كفاية تطور القوى المنتجـــة ، كان نهب الشعوب المظلومة واحدا من أهم مصادر ايرادات الطبقات السائدة . وكانوا ينتزعون من فلاحى المناطق القومية اراضيهم ، ويسكنون فيها الروس بحجة زيادة حصص فلاحى روسيا الوسطى ذوى القطع الصغيرة من الارض . وهكذا اختلقوا بصورة مصطنعة النفور بين القوميات . وكانوا يعينون المحافظين والحكام فى المناطق القومية من عداد الاقطاعيين الروس . وكان هؤلاء المحافظون والحكام يتمتعون بسلطة لا حد لها فكانوا يفرضون على الكادحين مختلف الضرائب ، ويبتزون مع جيش الموظفين اللجب الرشوات من السكان المحليين .

واخضع الاقطاعيون والرأسماليون الروس الشعوب المظلومة لما لا يحصى من الاهانات والمذلات . وكانوا يسمون ممثلى القوميات غير الروسية ، ازدراء واحتقارا ، بالغرباء . وكان من الممنوع فى المناطق القومية انشاء المدارس التى تعلم اللغة الام ، اللغة القومية ، واصدار الكتب والمجلات . وكان سكان هذه المناطق اميين بكليتهم تقريبا ، بل ان بعض الشعوب لم تكن

لها كتابة . وكانت اللغة الروسية هى اللغة الرسمية فى جميع اراضى البلاد .

وسعيا الى صرف انتباه الشعب عن النضال الطبقى ، كانت الحكومة القيصرية تشدد النفور القومى ، وتحرض قومية على اخرى . وكان ممثلو السلطة ينظمون مذابح اليهود ، ويسلحون الارمن والاذربيجانيين ويثيرون الاحقاد فيما بينهم ، ويسعّرون الضغينة بين مختلف الشعوب . وكانت العداوة القومية تضعف قوة ضغط الشغيلة على القيصرية .

وقد ارادت برجوازية المناطق القومية ان تتحرر من القيصرية الروسية لكى تخلق اكثر الشروط ملاءمة لاستثمار شغيلة قوميتها ، ولكنها كانت تخاف من الحركة العمالية المتنامية داخل القومية ولهذا اقبلت على الاتفاق مع القيصرية والاقطاعيين والرأسماليين الروس . فقط بروليتاريا القوميات المضطهدة المظلومة كان فى وسعها ان تستنهض الشغيلة الى النضال فى سبيل التحرر الوطنى . وكانت القيصرية العقبة الرئيسية امام حرية التطور الوطنى . وقد هبت جميع القوميات المظلومة الى النضال ضد القيصرية . وفى هذا النضال من اجل التحرر الوطنى ، كانت البروليتاريا المحلية القوة القائدة ، مع البروليتاريا الروسية الناهضة ضد العدو المشترك ، القيصرية . واصبحت حركة التحرر الوطنى قوة جبارة فى النضال من اجل الاطاحة بالحكم المطلق القيصرى .

ان تحرر الشغيلة كليا من النير القومى لا يغدو ممكنا الا بعد تصفية الملكية الخاصة لادوات الانتاج ، هذه الملكية التى تفرّق الناس . ولهذا كان نضال التحرر الوطنى الذى خاضته شعوب روسيا المتعددة القوميات ، بقيادة البروليتاريا ، احتياطيا هائلا لا للثورة البرجوازية الديموقراطية فى روسيا وحسب ، بل ايضا للثورة الاشتراكية فى هذا البلد .

تنقسم الحركة الثورية فى روسيا فى القرن التاسع عشر الى ثلاث مراحل . ففى مستهل القرن التاسع عشر ، كان النبلاء ، ممثلو الطبقة الحاكمة يرأسون الحركة ضد القيصرية . ففى كانون الاول (ديسمبر) ١٨٢٥ ، قاموا بانتفاضة مسلحة ولكن القيصرية حطمتها . كان النبلاء الثوريون منفصلين عن الشعب وكانوا يشكلون اقلية ضئيلة من الطبقة الحاكمة التى كانت بكليتها سندا متينا للحكم المطلق القيصرى . وبعد عام ١٨٦١ ، نهض المثقفون الديموقراطيون المتحدرون من الفلاحين ومن البرجوازية الصغيرة فى المدن الى النضال . كان هؤلاء «اللانبلاء» الثوريون ، كما كانوا يسمونهم ، على صلة اوثق بالشعب مما كان النبلاء . ولكنهم لم يكونوا يعرفون بعد السبل الحقيقية الى الثورة ، ولم يروا ان القوة الرئيسية ، الحاسمة فى النضال هى البروليتاريا . اما المرحلة البروليتارية ، فقد بدأت من منتصف العقد العاشر من القرن التاسع عشر عندما اخذت الجماهير الشعبية الواسعة تشترك فى الحركة الثورية ، برئاسة الطبقة الوحيدة الثورية الى النهاية ، البروليتاريا .

فى سنوات العقدين السابع والثامن من القرن التاسع عشر ، ولدت الحركة العمالية فى روسيا . وخلال عشر سنوات (من ١٨٧٠ الى ١٨٧٩) ، قام العمال ، كما يستفاد من معطيات غير كاملة ، بـ ٣٢٦ اضرابا . وفى سنوات العقد الثامن ، انشئت اولى مؤسسات العمال: «اتحاد العمال فى جنوب روسيا» و«اتحاد العمال الروس فى الشمال» . ولكن تلك كانت فقط الخطوات الاولى التى تخطوها الطبقة العاملة بصورة مستقلة فى نضالها . وظلت اغلبية الاضرابات تتسم بطابع عفوى . وكان العمال يطرحون المطالب الاقتصادية فقط .

فى العقد التاسع ، حدث ٤٤٦ اضراباً . وكان اضراب الحاكة فى مصنع موروزوف بمدينة اوريخوفو-زوييفو فى شهر كانون الثانى(يناير) ١٨٨٥ اضرابا كبيرا جدا . وكان العاملان الطليعيان بيوتر مويسيينكو وفاسيلى فولكوف يقودان الحاكة . وقد جمعا اوفر العمال ثورية . وفى هذا الاجتماع ، اتخذ قرار بشن الاضراب بصورة منظمة والامتناع عن العمل طالما لم تلب مطالب العمال الرئيسية : اعادة تعريفات العمل السابقة التى خفضت قبل ذاك بقليل ، والغاء غرامات النهب . استمر الاضراب عشرة ايام ، واشترك فيه ٨ آلافٍ عامل من عمال مصنع موروزوف . ولم تستطع الحكومة ان تقمع الاضراب الا بالقوة المسلحة . وقد اعتقل زهاء ٦٠٠ عامل . وقد اضطرت الحكومة التى تولاهـا الذعر من سعة الاضراب ، الى اصدار قانون بصدد الغرامات حدّ بعض الشىء من تعسف الرأسماليين . وهكذا انتزع نضال الطبقة العاملة المنظم فى روسيا اول تنازل من المستثمرين .

فى ذلك الوقت ، ظهرت اولى المنظمات الماركسية فى مختلف مدن روسيا وفى الخارج ، ولكنها كانت لا تزال ضعيفة الصلة بالحركة العمالية ولم يكن فى وسعها ان تقودها .

ومنذ منتصف العقد العاشر من القرن التاسع عشر ، برزت بروليتاريا روسيا كقوة سياسية مستقلة فى حياة البلاد . وفى اواخر عام ١٨٩٥ ، انشئت فى بطرسبورغ منظمة سرية ماركسية موحدة هى «اتحاد النضال من اجل تحرير الطبقة العاملة» . وكان لينين مؤسس وقائد «اتحاد النضال» .

ان فلاديمير ايليتش لينين (١٨٧٠-١٩٢٤) كان مؤسس وزعيم الحزب الشيوعى والدولة السوفييتية وقد انخرط فى طريق النضال الثورى عام ١٨٨٧، عندما كان فى السابعة عشرة من

عمره ، وطالبا فى جامعة قازان . وقد اعتقل لينين ونفى لنشاطه الثورى .

درس لينين بانتباه وعناية مؤلفات ماركس وانجلس واصبح ماركسيا مقتنعا . وقد اشترك بنشاط فى عمل الحلقات الماركسية ولعب دورا بارزا فى نشر الماركسية فى روسيا . وفى عـــام ١٨٩٣ انتقل لينين الى بطرسبورغ وسرعان ما اصبح القائد المعترف به لماركسيى بطرسبورغ .

وللمرة الاولى فى تاريخ الاشتراكية-الديموقراطية الروسية ، اخذ « اتحاد النضال من اجل تحرير الطبقة العاملة » فى بطرسبورغ يجمع بين دراسة الشيوعية العلمية وقيادة الحركة العمالية . وفى عام ١٨٩٦ ، ترأس « اتحاد النضال » اضرابا لعمال النسيج فى بطرسبورغ اشترك فيه ٣٠ الف عامل . وكان نجاح النضال كبيرا الى حد ان الحكومة القيصرية اضطرت الى تحديد يوم العمل قانونا بـ١١,٥ ساعة . ان تحديد يوم العمل كان انتصارا للبروليتاريا . وقد دشنت اضرابات بطرسبورغ فى عامى ١٨٩٥ و١٨٩٦ مرحلة جديدة فى تاريخ روسيا هى مرحلة اعداد الثورة الشعبية . ومذ ذاك ، اخذت الحركة العمالية الجماهيرية المتنامية تتطور تحت قيادة الماركسيين . وفى المدن الاخرى ، تأسست منظمات على غرار « اتحاد النضال » .

فى مستهل القرن العشرين ، تميزت الحركة العمالية بنهوض عاصف جدا . وكان هذا النهوض مرتبطا بالازمة الاقتصاديـــة العالمية التى دامت من عام ١٩٠٠ الى عام ١٩٠٣ . ومن جراء الازمة ، أغلقت فى روسيا قرابة ثلاثة آلاف مصنع ومعمل ، وفقد عشرات الآلاف من العمال عملهم . فبدأت الطبقة العاملة تنتقل الى اشكال جديدة للنضال ، الى الاضرابات السياسية والمظاهرات . ففى عام ١٩٠١ ، خرج عمال بطرسبورغ وموسكو

وخاركوف وكييف وغيرها من المدن الى الشوارع للمرة الاولى رافعين شعار «لتسقط الاوتوقراطية !» . وكان اضراب عمال مصنع اوبوخوف فى بطرسبورغ عنيدا جدا . فقد طالب العمال باعادة رفاقهم المسرحين من العمل لاحتفالهم بعيد اول ايار (مايو) ، وباعتبار هذا اليوم يوم راحة . وانتهى الاضراب باصطدام العمال بالقوات القيصرية . وفى عام ١٩٠٢ قامت الاضرابات والمظاهرات فى جملة من المدن . وقد قمعت القوات المسلحة عددا كبيرا منها بوحشية . وكان لاضراب عمال روستوف على الدون اهمية خاصة ، لأن البوليس لم يستطع ان يتغلب على المضربين . ولم يقمع الاضراب الا بواسطة وحدات عسكرية ارسلت خصيصا لهذا الغرض .

فى صيف ١٩٠٣ ، نشب اضراب سياسى عام فى جنوب روسيا ، شمل عددا كبيرا من مدن ما وراء القفقاس واوكرانيا ، واشترك فيه اكثر من ٢٠٠ الف عامل .

تأسيس حزب العمال الاشتراكى-الديموقراطى الروسى

فى مطلع القرن العشرين ، كانت قد نشأت المقدمات الموضوعية فى روسيا من اجل الانفجار الثورى . وهذه المقدمات الموضوعية كانت التالية : مستوى تطور الرأسمالية العالى نسبيا ، وجود بروليتاريا ثورية ، وجود حليف لها كما هما عليه طبقة الفلاحين المعوزين ، المخنوقين ، المضغوطين ، الذين يعدون بالملايين والملايين ، وحركة التحرر الوطنى الجبارة . وكانت تناقضات الامبريالية ، المعززة ببقايا القنانة ، قد بلغت الحد الاقصى . ولم يكن من الممكن ان يحل هذه التناقضات غير الثورة . ان روسيا التى اشتد فيها الاستثمار الرأسمالى من جراء بقاء

رواسب القنانة ، والاضطهاد القومى وسيطرة القيصرية على الحياة الاجتماعية والسياسية بكليتها ، فد اصبحت اضعف حلقة فى كامل النظام الامبريالى العالمى .

ولأجل تحطيم هذه الحلقة الضعيفة فى السلسلة ، اى لأجل الثورة ، لا تكفى المقدمات الموضوعية ، انما تنبغى ايضا المقدمات الذاتية . ان المقدمات الذاتية للثورة انما هى قدرة واستعداد الطبقة الطليعية للنهوض والنضال من اجل اسقاط الطبقات السائدة ، مع العلم ان هذه القدرة والاستعداد مشروطان بدرجة وعى هذه الطبقة ودرجة تنظيمها . وهاتان الصفتان اللتان تتحلى بهما الطبقة العاملة يربيهما ويصقلهما حزب الطبقة العاملة الثورى فى معمعان النضال الطبقى . وقد تطلب نهوض الجماهير الثورى المتنامى زعيما ومنظما سياسيا يقود ويوجه قوى الحركة . وهذا الزعيم والمنظم ، هذه القوة ما كان يمكن ان يكونها غير حزب البروليتاريا الثورى . وما كان يمكن ان يقود انضال الطبقة العاملة غير حزب مسلح بالنظرية الطليعية . وما كان فى غير وسع الحزب ان يربى من الطبقة العاملة مناضلا فى سبيل مصالح الشعب كله ويرص مختلف الحركات — اى نضال البروليتاريا الطبقى ونضال الفلاحين الديموقراطى من اجل الارض ونضال الشعوب من اجل التحرر الوطنى — فى سيل ثورى واحد موجه نحو الاطاحة بالقيصرية والراسمالية .

فى عام ١٨٩٨ ، جرت محاولة لانشاء حزب من هذا الطراز ، وذلك عندما انعقد مؤتمر الحلقات والمنظمات الاشتراكية-الديموقراطية . وقد اعلن المؤتمر تاسيس حزب العمال الاشتراكى-الديموقراطى الروسى (ح . ع . ا . د . ر .). ولكن الحزب لم يتاسس عملياً . ولم يقر المؤتمر برنامجا ونظاما داخليا للحزب ، واللجنة المركزية التى انتخبها المؤتمر

اعتقلت بعد فترة وجيزة . وكانت المنظمات الاشتراكية-الديموقراطية المحلية معزولة بعضها عن بعض . وفى بعضها ، كان يهيمن التيار الانتهازى المسمى «بالاقتصادية» . فقد كان «الاقتصاديون» ينكرون النضال السياسى من اجل تغيير النظام القائم ، وينادون بالاقتصار على النضال من اجل الاصلاحات الاقتصادية .

فلأجل تأليف الحزب ، كان لا بدّ من رص جميع القوى الماركسية الثورية ، ولهذا الغرض كان ينبغى ان يحدد كل موقفه بحزم ودقة ، وينفصل عن جميع العناصر الانتهازية . كان ينبغى تأليف حزب من طراز جديد ، يختلف عن الاحزاب الاوروبية الغربية التى كان يجهد زعماؤها للتوفيق بين الطبقة العاملة والرأسماليين ويرفضون فكرة ظفر البروليتاريا بالسلطة السياسية .

وقد كان لينين هو منظم الحزب الجديد الطراز فى روسيا . فى عام ١٨٩٥ ، اعتقل لينين لنشاطه الثورى ، وقضى خمسة اعوام فى السجن والمنفى . وبعد انتهاء مدة النفى ، اضطر فى عام ١٩٠٠ للسفر الى الخارج حيث أسس جريدة «الايسكرا» مع بليخانوف وغيره من الاشتراكيين-الديموقراطيين الروس . وقد قامت «الايسكرا» اللينينية بعمل كبير جدا لرص الاشتراكية-الديموقراطية فكريا وتنظيميا . وفضحت «الاقتصاديين» بوصفهم نقلة النفوذ البرجوازى الى صفوف البروليتاريا ، ووضعت مشروعى برنامج ونظام داخلى للحزب ، واعدت انعقاد المؤتمر الثانى اح . ع . ا . د . ر .

انعقد المؤتمر الثانى للحزب عام ١٩٠٣ . فى بادئ الامر ، عمل سرا فى بروكسل ثم فى لندن . وفى المؤتمر ، انشئ حزب عمالى ماركسى فى روسيا . واقر المؤتمر برنامج الحزب

ونظامه الداخلى وانتخب هيئات الحزب القيادية . وقد اشار البرنامج الى مهمة الحزب الاساسية ألا وهى بناء الاشتراكية ، والى الشروط الاساسية لتحقيقها ألا وهى القيام بالثورة الاشتراكية وبسط ديكتاتورية البروليتاريا . كذلك اشار البرنامج الى اقرب مهام الحزب التى يجب تحقيقها بنتيجة الثورة البرجوازية الديموقراطية الا وهى الاطاحة بالاوتوقراطية (الحكم المطلق) واقامة الجمهورية الديموقراطية واقرار يوم العمل من ثمانى ساعات ، والمساواة التامة فى الحقوق بين جميع الامم وحقها فى تقرير مصيرها بنفسها ، والقضاء على بقايا الاقطاعية فى الريف . واسترشادا بهذا البرنامج سار الحزب فى رأس نضال الطبقة العاملة الثورى فى روسيا من اجل دك القيصرية وتصفية الرأسمالية .

ووطد نظام الحزب الداخلى الذى اقره المؤتمر الثانى مبدأ المركزية فى بناء الحزب . ونبذ المؤتمر المبدأ الانتهازى القائل بالاستقلال الذاتى والفيديرالية (الاتحادية) .

وقد احتدم الصراع فى المؤتمر بين انصار لينين واخصامه حول جملة من قضايا البرنامج والتاكتيك . وعند انتخاب هيئات الحزب القيادية ، نال انصار لينين اغلبية الاصوات ، ولهذا اصبحوا يسمونهم «البلاشفة» (من كلمة «بولشنستفو» الروسية وتعنى الاغلبية) ، ونال خصوم لينين اقلية الاصوات ، فأطلقوا عليهم اسم «المناشفة» (من كلمة «منشنستفو» الروسية وتعنى الاقلية) . كان البلاشفة ثوريين ماركسيين منسجمين ، بينا كان المناشفة يمثلون الجناح الانتهازى فى الحزب . وقد اقتضى الامر خوض النضال ضدهم سنوات عديدة .

ان تاليف الحزب الماركسى الثورى فى روسيا كان أعظم حدث فى الحركة الثورية . فقد اصبح للبروليتاويا وجميع

الشغيلة فى روسيا زعيم ومنظم سياسى فى شخص الحزب . وكان ذلك ايضا انعطافا فى كل الحركة العمالية العالمية إذ أنه تألف ، للمرة الاولى فى عهد الامبريالية ، حزب فى مستطاعه ان يؤمن انتصار الثورة الاشتراكية ويقيم ديكتاتورية البروليتاريا من اجل بناء المجتمع الجديد .

الثورة البرجوازية الديموقراطية ١٩٠٥–١٩٠٧

ازدادت تناقضات الحياة الاجتماعية كلها فى روسيا حدة وتأزما من جراء الحرب الروسية اليابانية التى بدأت فى كانون الثانى (يناير) ١٩٠٤ ومن جراء الحرب تردت اوضاع الشغيلة . ودب التصدع فى اقتصاد البلاد . وارتفعت اسعار المنتوجات الغذائية مما افضى الى هبوط اجور العمال الفعلية مقدار ٢٥ بالمئة . وفقدت الاستثمارات الفلاحية الايدى العاملة بسبب من تعبئة الرجال فى الجيش . كل هذا اثار استياء الشغيلة . ومنيت القوات القيصرية بالهزيمة فى الحرب ضد اليابان . وكشفت القيصرية عن عجزها على خوض الحرب وادارة البلاد . ونضجت فى البلاد ازمة وطنية شاملة لم يكن من الممكن ان يحلها غير الثورة . وقد نشبت الثورة بعد حوادث ٩ كانون الثانى (يناير) ١٩٠٥ ، عندما امر القيصر باطلاق النار على مظاهرة سلمية للعمال . واستمرت الثورة حتى ١٩٠٧ ضمنا .

كانت الثورة الروسية الاولى ثورة برجوازية لأنها لم تطرح مباشرة مهمة تدمير النظام الرأسمالى ، بل كان يترتب عليها ان تقضى على بقايا القنانة فقط . ولكنها كانت ثورة شعبية لأن قواتها الرئيسية انما كانت البروليتاريا وطبقة الفلاحين اللتين تقدمتا بمطلب اقامة الجمهورية الديموقراطية ، واقرار يوم العمل من ٨ ساعات ، ومصادرة اراضى الاقطاعيين .

وكانت ثــورة ١٩٠٥ ــ ١٩٠٧ اول ثورة برجوازيــة ديموقراطية فى عهد الامبريالية . وفى طليعة الثورة الروسية سارت البروليتاريا ، لا البرجوازية بينما كانت البرجوازية هى التى سارت فى طليعة ثورات الغرب . وكانت الثورة الروسية اساسا ثورة فلاحية لأن مهمتها الاقتصادية الرئيسية كانت حل المسألة الزراعية فى صالح الفلاحين . وهذه الثورة البرجوازية الديموقراطية من حيث مضمونها كانت ثورة بروليتارية من حيث الدور الذى اضطلعت به البروليتاريا فيها ومن حيث اساليب النضال التى كان اهمها الاضراب السياسى العام والانتفاضة المسلحة . وفى حــال النصر ، كان لا بدّ للثورة ان تتنامى وتتحول الى ثورة بروليتارية . ورغم نضال العمال والفلاحين البطولى ، انتهت الثورة بالهزيمة . ففى ذلك الوقت ، لم يكن يتسنى بعد انشاء تحالف وثيق متين بين الطبقة العاملة والفلاحين ، وكانت هاتان الطبقتان تعملان بصورة متفرقة ، كل منها فى معزل عن الاخرى . وبقيت اغلبية الجنود الى جانب القيصر واشتركت فى قمع الثورة . كذلك لم يكن العمال يناضلون بمــا يكفى من التكاتف والتعاضد . ولم تنشب الانتفاضات فى مختلف المدن فى آن واحد ولم تتحد فى انتفاضة روسية شاملة واحدة . كذلك لم تكن قيادة الطبقة العاملة واحدة موحدة ؛ بل ان ما قام به المناشفة من اعمال انشقاقية بوصفهم عملاء البرجوازية فى الحركة العمالية قد اضعف هجوم الطبقة العاملة على القيصرية . كذلك قدم امبرياليو البلدان الاخرى مساعدة جدية للقيصرية ومنحوها القروض لمكافحة الثورة .

اكدت الثورة الروسية الاولى ان مركز الحركة الثوريــة العالمية قد انتقل الى روسيا . وقد اثرت تأثيرا هائلا فى نهوض الحركة العمالية وحركة التحرر الوطنى .

وسلحت ثورة ١٩٠٥ ـ ١٩٠٧ البروليتاريا الروسية بتجربة مرموقة فى النضال . وكانت بمثابة تمرين عام اصيل للثورة البرجوازية الديموقراطية فى شباط (فبراير) ١٩١٧ ولثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى .

وفى عام ١٩٠٥ وحده ، قفز وعى العمال السياسى قفزة عملاقة الى امام . ففى ٩ كانون الثانى (يناير) ، كان العمال لا يزالون يؤمنون بالقيصر ، ومشوا اليه يتوسلون منه ان يحسّن حياتهم . وفى كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٥ ، كانت الطبقة العاملة قد ظفرت بالحرية بقوة السلاح . فى كانون الثانى (يناير) ١٩٠٥ ، بلغ عدد العمال المضربين ٤٤٠ الفا ، بينما لم يبلغ عدد العمال المضربين فى السنوات العشر السابقة غير ٤٣٠ الفا . وفى عام ١٩٠٥ وحده ، اضرب زهاء ٣ ملايين عامل صناعى . ولم تبلغ الحركة الاضرابية مثل هذا المستوى فى اى بلد آخر .

وشمل نضال الفلاحين اكثر من نصف الاقضية فى روسيا . وقامت حركة فلاحية فى اوكرانيا ومنطقة ما وراء القفقاس ومنطقة البلطيق . وفى معمعان المعارك الثورية ، نشأ وتوطد تحالف الطبقة العاملة مع الفلاحين ، وتحالف الشغيلة من مختلف القوميات .

وبينت الثورة الروسية الاولى جميع الطبقات والاحزاب فى غمرة العمل . فان البرجوازية الروسية قد انتقلت على المكشوف الى جانب القيصرية وفضحت بالتالى طبيعتها المعادية للثورة .

وفى عام ١٩٠٥ ، ظهرت اشكال من النضال غير معروفة سابقا كالاضراب السياسى العام الذى تنامى وتحول الى انتفاضة مسلحة .

وفى سياق الثورة ، انشئت سوفييتات (مجالس) نواب العمال بفضل ابداع الجماهير ذاتها وروحها الخلاقة . وقد كانت هذه السوفييتات هيئات للانتفاضة وشكلا جنينيا لديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الثورية الديموقراطية اى لسلطة سياسية جديدة ، لسلطة دولة جديدة .

واكتسب حزب البلاشفة تجربـة سياسية كبيرة . وظفر على المتاريس بالنفوذ والمكانة بين الجماهير . ونمت صفوفـه بسرعة . واصبح حزبًا جماهيريا .

وقد كانت دروس وتجارب ثورة ١٩٠٥ موضع استفادة فى ثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى .

انتصار ثورة شباط البرجوازية الديموقراطية عام ١٩١٧

بعد هزيمة ثورة ١٩٠٥ ـ ١٩٠٧ ، بدأت مرحلـة من الرجعية الوحشية . فقد اطفأت وحدات القمع والتنكيل آخر بؤر النضالات الثورية .

وارسلت السلطات آلاف العمـال والفلاحين والمثقفين الى الاشغال الشاقة . ولكن القيصرية لم تبق بعد الثورة ما كانت عليه سابقا ؛ فقد تصدعت قواها ، وشقت اول ثغرة فى صرح الملكية القيصرية ؛ وهذه الثغرة اخذت تتسع ببطء ولكن بدأب واستمرار ، وتضعف النظام القديم الموروث عن القرون الوسطى . وقد اضطرت القيصرية الى انشاء هيئة بمظهر البرلمان ، هى دوما الدولة ، والى السماح بوجود النقابـات ، واجـازة اصدار المطبوعات الثورية العلنية . وفى تلك الاعوام ، عمل حزب البلاشفة فى سرية عميقة ، ولكنه استغل جميع الامكانيات العلنية لكى يهيئ البروليتاريا من اجل هجوم جديد .

بدأ النهوض الثوري الجديد في روسيا منذ اواسط عام ١٩١٠ ؛ وقد كان اولا بطيئا جدا ثم طفق يتنامى بوتائر عاصفة اكثر فاكثر . وفي النصف الاول من عام ١٩١٤ ، اضرب حوالى ١,٥ مليون عامل ، وارتفعت الحركة الاضرابية الى مستوى اعلى مما في صيف ١٩٠٥ . وفي بطرسبورغ ولودز وغيرهما من المدن ، ظهرت المتاريس ؛ ولكن الحرب العالمية التي نشبت جاءت تقطع مجرى النهوض الثوري .

كانت الحرب العالمية الاولى ظاهرة وبداية ازمة عامة في الرأسمالية . فان تطور الرأسمالية في عهد الامبريالية بتفاوت وتقطع قد افضى الى خلل شديد في توازن نظام الرأسمالية العالمي . وهذه الحرب التي كان يقصد منها ان تؤمن تقاسم العالم من جديد ، قد أضعفت الامبريالية وجعلتها اسهل منالا . وفي تلك المرحلة بالذات ، توصل لينين ، بتطويره النظرية الماركسية بشأن الثورة الاشتراكية ، الى الاستنتاج القائل بانه من الممكن في عهد الامبريالية ان تنتصر الثورة اولا في بلد واحد او في عدة بلدان ، وبانه من غير الممكن ان تنتصر الثورة في آن واحد في جميع البلدان . وقد استخلص لينين هذا الاستنتاج انطلاقا من اشتداد تفاوت التطور الاقتصادي والسياسي في البلدان الرأسمالية في عهد الامبريالية . فان تفاوت تطور البلدان الرأسمالية قد أسهم في تفاوت اوقات نضوج الثورة في مختلف البلدان وكانت روسيا مثالا ساطعا على تفاوت التطور السياسي . ففي مدة وجيزة ، سبقت البلدان الاخرى في المضمار السياسي واصبحت مركز الحركة الثورية ، بينما اصبحت البروليتاريا فيها طليعة الحركة العمالية العالمية . وبموجب النظرية اللينينية ، كان لا بدّ ان تبدأ الثورة الاشتراكية حيث نضجت المقدمات الاقتصادية والسياسية لهذا الغرض . وقد أنمت النظرية

اللينينية بشأن الثورة الاشتراكية نشاط البروليتاريا الثورى فى مختلف البلدان .

وبنتيجة كل التطور السابق ، غدت روسيا البلد الاكثر استعدادا للثورة الاشتراكية . فقد كانت اضعف حلقة فى السلسلة الامبريالية العالمية . وكما من قبل ، كانت الاطاحة بالقيصرية وتصفية سائر بقايا الاقطاعية اقرب المهام المباشرة التى تواجه الثورة فى روسيا ؛ ثم ان الامكانيات والاحتمالات لتنامى الثورة البرجوازية الديموقراطية وتحولها الى ثورة اشتراكية قد ازدادت عما كانت عليه عام ١٩٠٥ . وفى ١٠ سنوات ونيف ، نمت البروليتاريا واشتد ساعدها ، ومرت فى مدرسة النضال الصارمة . وتفاقم تمايز الفلاحين . وتعاظم بأس حركة التحرر الوطنى ، الامر الذى دلت عليه مثلا الانتفاضات فى آسيا الوسطى وكازاخستان فى عام ١٩١٦ .

لم تكن روسيا مستعدة للحرب . ورغم بطولة الجنود ، حلت الهزائم بالجيش القيصرى الذى لم يكن مزودا بما يكفى من السلاح ولم يكن لديه قادة اكفاء . وجلبت الحرب للشغيلة الجوع والعرى وتسببت بضحايا لا عدّ لها ، الامر الذى اثار استياء الجماهير . فتنامت الحركة الاضرابية بسرعة . ففى النصف الثانى من ١٩١٤ ، بلغ عدد المضربين ٣٥ الفا ، وفى عام ١٩١٥ اكثر من ٥٠٠ الف ، وفى عام ١٩١٦ اكثر من مليون . وفى الارياف ، استولى الفلاحون على حبوب الاقطاعيين وادواتهم وماشيتهم واحرقوا قصورهم وبناياتهم . واخذت الانتفاضات الثورية تتكاثر فى الجيش .

وفى مستهل عام ١٩١٧ ، وقعت الاحداث الحاسمة . ففى شباط (فبراير) بدأ عمال مصنع بوتيلوف فى بتروغراد الاضراب . وسرعان ما انضم اليهم عمال المصانع الاخرى . واستجابة لنداء

البلاشفة ، قامت مظاهرات العمال من ٢٣ شباط الى ٢٦ منه . وقد عجز البوليس عن تفريق المظاهرات . وفى ٢٧ شباط ، شملت الانتفاضة العاصمة بأكملها . وانضم جنود حامية العاصمة الى العمال . وفى ٢٧ شباط (فبراير) ، أطيح بالاوتوقراطية ، وانتصرت الثورة البرجوازية الديموقراطية ، وكانت قوتها الفاعلة الرئيسية هى البروليتاريا ، وكان الفلاحون المرتدون المعاطف العسكرية حلفاء البروليتاريا . ثم ان اشتراك الجماهير الشعبية الواسعة فى الثورة البرجوازية الديموقراطية قد جعل من الممكن تحويلها الى ثورة اشتراكية ، وجعل من الممكن دك سلطة البرجوازية كليا .

محتويات

١ . النظام المشاعى البدائى

٢ . مجتمع الرق

٣ . المجتمع الاقطاعى

٤ ـ المجتمع الرأسمالي

صدر حديثا عن دار الفارابي ١٩٧٨

		ليرة لبنانية
□ النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية (الجزءالاول)	د. حسين مروه	٥٠
□ الاقتصاد السياسي للتخلف (في ثلاثة اجزاء)	توماس سنتش	٣٢،٧٥
□ اسس علم الجمال الماركسي اللينيني (في جزئين)	اساتذة سوفيات	٣٣
□ مقدمات نظرية لدراسة اثر الفكر الاشتراكي في حركة التحرر الوطني (١ ، ٢)	دكتور مهدي عامل	٢٤
□ يوميات الصراع الطبقي في البرتغال	فالح عبد الجبار	١٤
□ القاموس السياسي	عبدالرزاق الصافي	١٠
□ قوانين التطور الاجتماعي	غليزرمن	١٢
□ عشية الحرب العالمية الثانية	خارلاموف وسيبولز	١٣
□ قضية المراة	ماركس،انجلز،لينين	٨،٥٠
□ دفاتر فلسطينية (طبعة ثانية)	معين بسيسو	١٠
□ رحلة الى جمهورية الصحراء العربية الديمقراطية	أرنو سبير	٢
□ مبادىء الشيوعية	فريدريك انجلز	٤
□ الحركات الفلاحية والقضية الزراعية في سوريا ولبنان (١٩٢٠ ـ ١٩٤٥) ـ الجزءالثاني	دكتور عبدالله حنا	١٥
□ من نافذتي	يوسف خطار الحلو	١٢
□ كتابات عبدالله باذيب (١ ، ٢)	عبدالله باذيب	٣٠
□ نظريات حديثة حول الثورة (٤ اجزاء)	جاك ووديس	٣٠
□ القيادة الصينية الجديدة والتخلي عن المبادىء	اشرف السيد	١،٥٠

العنوان	المؤلف	السعر
□ عسكرة الاقتصاد الصيني في خدمة من ؟	انطوان صيداوي	٤
□ الشمس تشرق من الجنوب	البير فرحات وحنا صالح	٦
□ ابدا من رقم يمشي (شعر)	حمزه عبود	٤،٥٠
□ الجبهة الوطنية ـ التجربة التشيكوسلوفاكية	علي عبدالخالق	٦
□ قصائد مختارة ـ شعر مجري	اتيلا يوجيف	٤،٥٠
□ خرافة الاشتراكية الجيدة والاشتراكية الرديئة	د. جيرفوف	٤
□ فكر غرامشي (في جزئين)	(مجموعة)	٢٠
□ المادية التاريخية	ماركس، انجلز، لينين	٢٠
□ سيرة حياة كارل ماركس	معهد ماركس انجلز في المانيا الديمقراطية	٢٠
□ مصر في ظل السادات	البير فرحات	٤
□ الولايات المتحدة والنزاع العربي الاسرائيلي	بريماكوف	٨
□ تطور مفهوم الحزب عند ماركس وانجلس	هورست بارتل شميدت	٣٠
□ ٣٠٠ يوم من الثورة الروسية	جورج صوريا	١٠
□ المجمع الصناعي الحربي في الولايات المتحدة الاميركية	ب. د. بياديشيف	١٥
□ الانعكاس والفعل وديالكتيك الواقعية في الابداع الفني	هورست ريديكر	٨
□ اناشيد الحزن اللبنانية	سمير عبد الباقي	٢
□ لافتة (قصص)	كمال حيدر	٤
□ يا اهل هذا الجبل (قصص)	احمد محفوظ عمر	٦
□ اثيوبيا في الثورة	طوني فرنسيس	٤
□ التحدي الديمقراطي	جورج مارشي	٨
□ ١٧ ساعة عند باب المندب	نبيل هادي	١٤

يصدر قريبا عن دار الفارابي في ١٩٧٨

الكتاب	المؤلف
□ محاضرات في الفاشية	تولياتي
□ عبد الفتاح اسماعيل ، كتابات مختارة	عبدالفتاح اسماعيل
□ الماوية بعد ماو	احمد ثابت
□ النظرية الماركسية للشخصية	لوسيان سيف
□ تكون الطبقة العاملة السورية	اليزابيت لونغنيس
□ النزعات المادية في الفلسفة الاسلامية العربية (الجزءالثاني)	دكتور حسين مروه
□ الحرب الاهلية اللبنانية	مهدي عامل
□ رأسمالية الدولة الاحتكارية (الجزء الاول)	(مجموعة)
□ البحث السوسيولوجي	تيودور كابلوف
□ المقاومة في الادب السوفياتي	شاكر نوري
□ التجربة المسرحية ـ معايشة وانعكاسات	يوسف العاني
□ اسس علم النفس	جورج بوليتزر
□ نظرية السكان	(مجموعة)
□ الانسان والمجتمع والبيئة	(مجموعة)
□ فلسفة التمرد	باتالوف
□ مدخل الى المادية الجدلية ـ نظرية المعرفة	موريس كونفورث
□ تحول الاشتراكية من طوباوية الى علم	انجلس
□ يانوس كادار ، كتابات مختارة	يانوس كادار
□ الدون الهادىء	دوستيوفسكي

□ في الشيوعية العلمية	
(الجزء الثاني)	افاناسييف
□ تاريخ المنطق	أ. ماكوفيلسكي
□ تاريخ الجدلية الماركسية	
المرحلة اللينينية	(مجموعة)
□ النظريات الاقتصادية والواقع	انيكين ــ اولزيفيتش
□ الولايات المتحدة ــ	
العسكرة والاقتصاد	ر. فارامازان
□ الجدلية في كتاب رأس المال	روزنتال
□ من الثورة الى الفن	
ومن الفن الى الثورة	سيرغي ايزنشتاين
الابارثيد ضد حرية الصحافة	التقدميين
□ بؤس الفلسفة	ماركس
□ المادية الديالكتيكية	
وعلوم الطبيعة	خ. فانالييف

★★★

تطلب هذه الكتب من :

دار الفارابي : صالة العرض ــ متفرع من شارع الاوزاعي ــ الحرج ــ تلفون : ٣١٧٢٠٥ ــ ص.ب ٣١٨١ ــ بيروت

مكتبة المكتبة : قرب البريستول ــ نزلة البيكاديللي
تلفون ٣٤٥٦٧٩

هـذا الكتاب

يتضمن هـذا الكتاب سلسلة محاضرات في منهاج «عرض أقتصادي تاريخي»، تلقى في جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب بلغات كثيرة أمام طلبة من بلدان آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية منذ السنة الدراسية ١٩٦٠ – ١٩٦١ .

ومادة المنهاج هي تاريـخ تطور المجتمع البشري . والمنهاج يكشف عن طابع هذا التطور الذي هو عبارة عن انتقال حتمي من تشكيلة إقتصادية اجتماعية الى أخرى، اكثر تقدماً؛ ويحلل مستوى القوى المنتجة، وخصائص العلاقات الاقتصادية الاجتماعية والمؤسسات السياسية والظاهرات الايديولوجية الملازمة للنظـام المشاعي البدائي، وللمجتمعين العبودي والاقطاعي، وللرأسمالية ومرحلتها الأخيرة – الامبريالية، وللتشكيلة الشيوعية وطورها الأول – الاشتراكية . ويدرس بصورة مفصلة قضايا مثل بناء المجتمع الشيوعي على نطاق واسع من قبـل الشعب السوفياتي، وتطور المنظومة الاشتراكية العالمية، وتوطد الحركة الثورية العالمية الطبقة العاملة، ونمـو النضال الوطني التحرري ونضال الشعوب في سبيل السلم .

الثمن: ٢٠ ل.ل.
أوما يعادلها

Mouyn